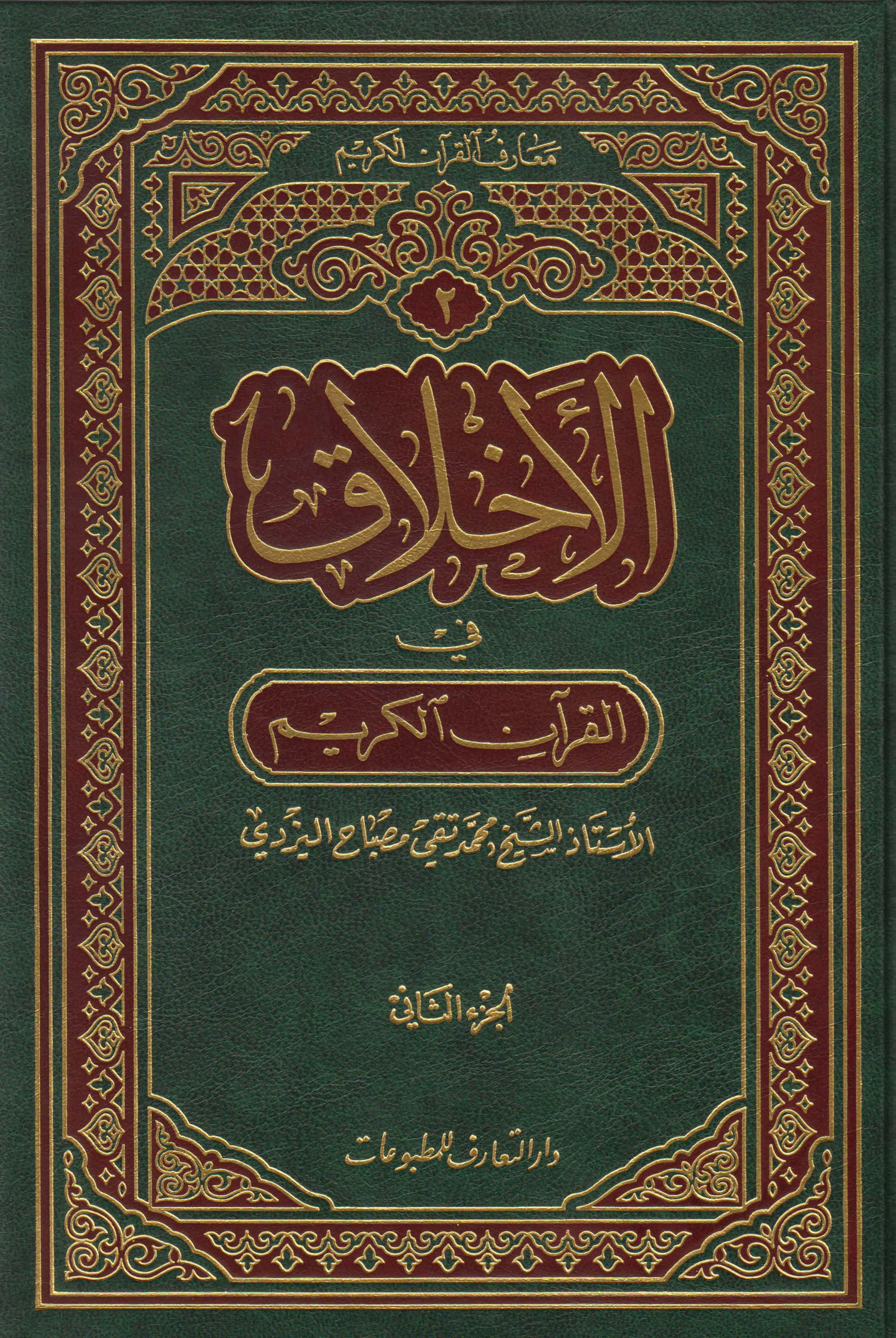


معارف القرآن الكريم
٢
الأخلاق
في
القرآن الكريم
الأستاذ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي
الجزء الثاني
دار المعارف للمطبوعات

الأخلاق
في
القرآن الكريم

معارف القرآن الكريم / ٢

الأخلاق في القرآن الكريم

الجزء الثاني

محاضرات

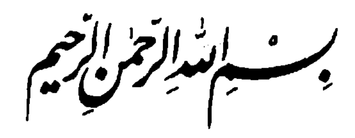
الأُستاذ الشيخ محمدتقي مصباح يزدي

تدوين وتحقيق:

محمد حسين اسكندري

نقله الى العربية:

الشيخ كاظم الصالحى



حُقُوق الطَّبع مَحفُوظَة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م

دار التعارف للمطبوعات:

الإدارة والمعرض ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين ـ
تلفـــــون: ٢٧١٩٠٧ / ٠١ ـ ٢٧١٩٠٨/ ٠١ ـ ٨٢٣٦٢٠ / ٠٣
ص.ب: ٨٦٠١ / ١١ ـ ٦٤٣/ ١١ ـ فاكس: ٢٧١٩٠٨ (٠٠٩٦١١)

المقدمة

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾[1].

و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[2].

﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

والصلاة والسلام علىٰ رسول الله الذي أرسله ﴿شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[4] وبعثه ليتمّم مكارم الأخلاق في نفوس المؤمنين ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وعلىٰ آله الأخيار والائمة الأبرار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

القرآن الكريم هو الهبة الإلٰهية الكبرىٰ التي منّ الله بها علىٰ الإنسان بتنزيله علىٰ رسول الإسلام ﷺ. القرآن نور ينير القلوب، دواء يسكن الآلام

---

(١) الكهف: ١ و ٢.
(٢) الفرقان: ١.
(٣) المائدة: ١٦.
(٤) الاحزاب: ٤٥ و ٤٦.

ويشفي الصدور، وهو موعظة يخرج الإنسان من الغفلة، «**وهو الدليل يدل علىٰ خير سبيل**».

«**من جعله أمامه قاده إلىٰ الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلىٰ النار**».

قد بيّن كلّ ما يحتاجه الإنسان ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**جعله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء**»[٢].

«**نور لا تطفأ مصابيحه، وسراج لا يخبو توقّده، وبحر لا يدرك قعره وينابيع العلم وبحوره...وعلم لمن وعى**»[٣].

«**لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه**»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء**»[٥].

ما سمعناه من تعريف الآيات والروايات بشأن هذا الكتاب الإلهي والسماوي يؤكّد علينا أن نتدبر في القرآن الكريم أكثر فأكثر، ونغوص في أعماقه ونتزوّد من ينابيعه ومعارفه الصافية والنفيسة قدر المستطاع، وما ورد من تأكيد في الآيات والروايات علىٰ ما في تلاوة القرآن واحترام القرآن والأُنس مع القرآن من فضيلة كبيرة يكون بالتالي لدرك معارف القرآن والعمل بآدابه وأحكامه، والخطوة الأُولىٰ لذلك هو التدبر والتأمل في القرآن.

القرآن بدوره يدل في موارد كثيرة بمختلف التعابير علىٰ انّه أُنزل لكي يتدبر الناس في آياته ويزدادوا معرفة بحقائقه، كـ﴿**وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٦]، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[٧] و﴿**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾[٨]

---

(١) النحل : ٨٩.
(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٣.
(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٣.
(٤) اصول الكافي: ٢ : ٥٩٨.
(٥) تفسير العياشي.
(٦) النحل : ٤٤.
(٧) يوسف : ٢.
(٨) ص : ٢٩.

القرآن الكريم مجموعة متكاملة من المعارف التي يحتاج إليها الإنسان، فهو يتحدّث عن التأريخ، الحقوق، السياسة، الأخلاق، التربية، العقائد، الاحكام، علم الاجتماع و... ويطرح رؤيته الخاصّة في جميعها، فعلىٰ العلماء المسلمين اكتشاف الرؤية القرآنية في كلّ واحد من الموضوعات المذكورة، من خلال التأمل واجراء الدراسة اللازمة وتقديمها للمجتمع، سيّما جيل الشباب المتعطش في العصر الحاضر ـ في ضوء الموجة العارمة التي أوجدتها الثورة الإسلامية في العالم ـ لدرك المعارف الإسلامية أكثر من ذي قبلُ، ويرغب في التعرّف علىٰ الرؤية القرآنية في المجالات المذكورة وما شاكلها.

ولحُسن الحظ فقد أُنجزت خطوات كبيرة بهذا الشأن، وتحقّقت إنجازات أساسية في كشف وتبيان وطباعة ونشر معارف القرآن. وقد قام علماء ومفسّروا العصور السالفة بكتابة تفاسير متعدّدة وتفصيلية بأساليب مختلفة، وقاموا بدراسة الآيات القرآنية من زوايا مختلفة، في حين تعتبر الدراسة التفصيلية لمعارف القرآن في المجالات المذكورة وخاصّةً مبادئ العقيدة والأخلاق وملاحظة أبعادها ومسائلها المتنوّعة ابتكاراً وإنجازاً حديثاً.

في هذا الباب يجب أن نشير إلىٰ المفكّر البارع والأستاذ الفذّ آية الله الشيخ مصباح يزدي (حفظه الله) حيث قام بفضل أُنسه الكبير مع القرآن الكريم، ونور قلبه ومساعيه الكثيرة في التحقيق بإبداعات وإنجازات نافعة حقّاً في معارف القرآن، وقد تمّ لحدّ الآن نشر أقسام كثيرة منها.

لقد قام سماحته بالتحقيق في معارف القرآن بمنهج خاصّ، وألقى حصيلته بدقةٍ كدروس منذ عام ١٩٧٤م في دورات تعليمية وتحقيقية في (مؤسسة في طريق الحقّ) وأبدىٰ ملاحظاته الخاصّة وذلك في فترات ومجموعات مختلفة. وقد تمّ

نشر أقسام منها بعد تكميلها وتنقيحها وإعدادها. ومن جملتها قسم الأخلاق. والأخلاق في القرآن الكريم ذو أهمّية بالغة، وحسب الآيات والروايات يمثّل تزكية النفس ـ وهو المحور الأساس فيها ـ من أهمّ الاهداف في تنزيل القرآن وبعثة رسول الإسلام ﷺ. وللأخلاق علاقة وطيدة مع الملكات النفسية، والسلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية للإنسان. وتقوم بتنظيم علاقة الإنسان مع ربه، وتقيم العلاقات بين أبناء المجتمع بحيث تبلغ بالفرد والمجتمع إلىٰ الفلاح والكمال، وبكلمة واحدة: إن لها الدورَ الأساس والشامل في حياة ومصير الفرد والمجتمع الإنساني.

من بين الموضوعات القرآنية المختلفة خصّص سماحته قسطا من عمله التحقيقي وجهده العلمي لدراسة موضوع الأخلاق في القرآن الكريم، وله في هذا القسم نكات وآراء وإبداعات قيّمة حقّاً، وقد قام بتدريس حصيلة هذا التحقيق والجهد في دورات تعليمية وتحقيقية أقامتها مؤسسة (في طريق الحقّ) في الفترة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٦ م ولا تزال كراساتها وأشرطتها موجودة.

ونظراً لعزمه علىٰ طباعتها ونشرها أوكل إليَّ شرف القيام بتنظيمها وتنقيحها. وقد سعيت بقدراتي الضعيفة لإخراجها بصورة بهيّة في مدة قصيرة، ومع ذلك فقد أنجزت المهمة ببطء وتأخير.

ثمّ انّ أفعال الإنسان الاختيارية التي تمثّل المحور والموضوع الأساس في الأخلاق تنشأ من علل و عوامل مختلفة، فيوجد لبعضها منشأ غريزي، في حين يستند البعض الآخر من سلوكه إلىٰ الانفعالات الروحية كالوحشة والاضطراب وغيرهما، وفي الكثير من الموارد تكون ميول الإنسان ورغباته الفطرية والخاصّة منشأ لتحقق أعمال وسلوك خاصّ، كما أنّ سلوك الإنسان ينشأ في بعض الموارد

من عوامل حسية وعاطفية أعمّ من الأحاسيس والعواطف الإيجابية من قبيل الأُنس والحبّ ومن المشاعر والعواطف السلبية كالحقد والنفور، ويمكن تقسيمها حسب تلك العوامل المختلفة إلىٰ اربع مجموعات.

ومن جهة أُخرىٰ يمكن تقسيم السلوك الاختياري للإنسان بلحاظ آخر، أي يمكن تبويبه بلحاظ ارتباطه بموجودات مختلفة.

في تبويب قسم (معرفة الأخلاق) من معارف القرآن اختار سماحته التقسيم الثاني كإطار ومنهج للبحث وقام بتقسيم السلوك الاختياري للإنسان حسب الهدف من ممارسته ومتعلّقه إلىٰ ثلاث مجموعات عامّة:

المجموعة الأولىٰ: الأعمال التي ينجزها الإنسان حسب ارتباطه بالله سُبحانه كالتوجّه إلىٰ الله والرجاء من الله والإيمان بالله والخوف والخشوع بين يدي الله و... ممّا يكون منشأً لعبادة الله تعالىٰ.

المجموعة الثانية: السلوك الذي يرتبط في الاصل بالإنسان نفسه وإنْ ارتبط بالآخرين عرَضا وبنحو ثانوي، أو لوحظ فيه الإرتباط مع الله سُبحانه.

المجموعة الثالثة: الأعمال التي ينجزها الإنسان بفضل ارتباطه مع الآخرين ومن خلال العلاقات التي يقيمها معهم.

وعلىٰ هذا الأساس تنقسم الأخلاق في القرآن إلىٰ ثلاثة أقسام عامّة وتبيّن أبحاثها تحت ثلاثة عناوين عامّة:

١ ـ الأخلاق الإلٰهية. ٢ ـ الأخلاق الفردية. ٣ ـ الأخلاق الاجتماعية.

و هناك مجموعة من الموضوعات والمفاهيم العامّة التي تمثّل في الواقع فلسفة الأخلاق من وجهة نظر القرآن، فنشرع قبل الخوض في البحث حول الأخلاق

الإلٰهية والأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية بالتطرق إلىٰ هذه المسائل والقضايا من قبيل: المبادئ الموضوعية فيعلم الأخلاق، خصائص المفاهيم الأخلاقية، المفاهيم الأخلاقية العامّة فيالقرآن، فرق النظام الأخلاقى للإسلام مع النُّظم الأخرىٰ، أساس القيمة الأخلاقية فيالإسلام، وقضايا كثيرة أُخرىٰ من هذا القبيل حيث سنقوم بالتحقيق والدراسة بشأنها.

الآن حيث ينشر كتاب (الأخلاق فيالقرآن الكريم) فيأجزاء ثلاثة يقسم حسب الأُطروحة العامّة وفيضوء القضايا المذكورة كمقدّمة، إلىٰ اربعة أقسام عامّة:

القسم الأول: مفاهيم عامّة.

القسم الثاني: الأخلاق الإلٰهية.

القسم الثالث: الأخلاق الفردية.

القسم الرابع: الأخلاق الاجتماعية.

وسينشر القسم الأول والثاني فيالجزء الأول من كتاب (الأخلاق فيالقرآن الكريم) والقسم الثالث فيالجزء الثاني والقسم الرابع فيالجزء الثالث من الكتاب.

نسال الله تعالىٰ مزيداً من تأثير الأخلاق القرآنية فيالمجتمع سيّما جيل الشباب، آملين أن يتقبل أعمالنا بفضله وكرمه، ولا يؤاخذنا علىٰ كلّ تقصير وقصور، ويوفقنا برعايته لإكمال هذا العمل.

٣٠ / ١ / ٧٦هـ ش

محمد حسين اسكندري

القسم الثالث

علاقة الإنسان بنفسه

القسم الثالث

١

قضايا عامّة

القسم الثالث

١ـ١

ما معنىٰ علاقة الإنسان بنفسه؟

علم النفس والأخلاق

خصائص النفس وأبعادها

أُطروحة مقترحة

النفس هرم ثلاثي الأبعاد

الترابط الدائم بين أبعاد النفس

ما معنىٰ علاقة الإنسان بنفسه؟

السؤال الأول الذي يطرح نفسه في هذا القسم ويستدعي الإجابة يدور حول عنوان هذا القسم (علاقة الإنسان بنفسه) لما فيه من إبهام وعدم تحديد لمفهومه الواقعي، إذ إنّ العلاقة تلاحظ عادة بين موجودين مستقلين يشكّلان طرفي العلاقة.

ويمكننا أن نجيب: انّ الإنسان بالرغم من أنه يُعدّ موجوداً واحداً الاّ انّه بامتلاكه روحاً مجرّدة وجسما مادياً وتركّبه من هاتين الحقيقتين المختلفتين أمكنه أن يمثّل طرفي العلاقة. من هنا سيكون المقصود من علاقة الإنسان بنفسه هو تلك العلاقة القائمة بين الروح والجسم. ويمكن القول: انّ علاقة الروح مع الجسم هي علاقة الإنسان مع عين ذاته، لانّ الروح والجسم كليهما ليسا أجنبيَّين عن الإنسان نفسه.

وفيما يرتبط بهذه الإجابة في تفسير علاقة الإنسان بنفسه ينبغي القول: انّ هذه الإجابة وإنْ كانت في ذاتها وجهاً صحيحاً بَيد أنها ـ بالنسبة للمشكلة التي نواجهها ـ لا يمكن أن تكون تبياناً دقيقاً لعنوان بحثنا هنا وموضوعه، لانّ القضايا التي ننوي طرحها تحت عنوان (علاقة الإنسان بنفسه) هي أوسع من ذلك ولا يستوعبها

التعليل المذكور، أي انّ ما نبحث بشأنه من القضايا التي ترتبط بـعلاقة الإنسـان بنفسه لا ينحصر في دائرة العلاقة بين الروح والجسم، لأنّا ـ إضافةً إلىٰ هذه العلاقة ـ نقوم بدراسة العلاقات الروحية الداخلية أيضاً، وبعبارة أُخرىٰ علاقة الروح مع الروح، ولعلّ من الممكن القول:

انّ هذا القسم من دراستنا أساسي ومحوري بـنحو أكـبر، وذلك بأن نـدرس ونلاحظ كيف ينبغي أن يقوم الإنسان برعاية روحه ونفسه، وكيف ينظم حيثياته النفسية والروحية، وما هي الملكات التي ينبغي تحصيلها؟

وعليه إذا لاحظنا العلاقة بالنفس بمعنىٰ علاقة الروح بالجسم فإنّ هذا العنوان لا يستوعب ما نروم البحث بشأنه.

الإجابة الأُخرىٰ التي يمكن طرحها عن التساؤل المذكور ستكون بهذا النحو:

يقال أحياناً انّ الإنسان ذو شخصين من الـ (أنا) أو (النفس) أو يقال: يشتمل علىٰ (أنا) و(النفس) وعليه فإنّ المراد من علاقة الإنسان بنفسه هو علاقة إحدىٰ نفسيه مع الأُخرىٰ، أو علاقة الـ (أنا) في الإنسان مع (نفس) الإنسان.

وهذه الإجابة غير صحيحة في رأينا أيضاً، وفي التعبير المذكور تسامح إذ إنّ امتلاك الإنسان ـ بـتعبيرات مـختلفة ـ (وجـودين) أو فـردين مـن الـ (أنـا) أو (روحين) أو (نفسين) لا ينسجم مع وحدة حقيقة الإنسان، ولا يكون مـراد مـن يطرحها واضحا، وبما أن هذه التعابير مجملة تحتاج إلىٰ تفسير فانّها قاصرة عن إعانتنا في توضيح عنوان البحث.

الإجابة الثالثة التي يمكن طرحها تجاه التساؤل المذكور هو التأكيد في تفسير (علاقة الإنسان بالنفس) عـلىٰ عـلاقة الـ (أنـا) الفـرديّ للانسـان مـع الـ (أنـا) الاجتماعي. يقال أحياناً انّ الإنسان ذو (أنا) فرديّ و(أنا) اجتماعيّ وهناك علاقة بينهما وليس مضمون عنوان بحثنا سوىٰ هذه العلاقة.

ينبغي القول انّ الإجابة الثالثة ـ إضافةً إلىٰ التسامح في تعبيرها ـ قاصرة عن تبيان مرادنا من عنوان (علاقة الإنسان بنفسه) لانّ الـ (أنا) الاجتماعيَّ للانسان يرتبط بالأخلاق الاجتماعية، ومحله القسم الثالث من بحث الأخلاق في القرآن وسنتناوله بعد اكمال هذا القسم، وأمّا في هذا القسم فسنقوم بدراسة القضايا ذات العلاقة بالإنسان الفرد، وذلك تحت عنوان (العلاقة بالنفس).

بعد ردّ الإجابات آنفة الذكر لنلاحظ أخيراً ما المراد من (العلاقة بالنفس)؟

يمكن القول: انّ المراد هو العلاقة بين شؤون النفس وأبعادها. أي انّ روح الإنسان وإنْ كانت موجوداً واحداً وبسيطا ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ هذا الموجود الواحد ذو شؤون مختلفة، وبتعبير أوضح: ذو أبعاد مختلفة مترابطة، وتكون العلاقة بين أبعاد النفس وشؤونها منشأ لانتزاع مجموعة من مسائل الأخلاق نشير إليها تحت عنوان (علاقة الإنسان بنفسه) وللمزيد من الإيضاح لابدّ من الإشارة إلىٰ أحد الأصول الموضوعة في علم الأخلاق يرتبط بعلم النفس وينبغي البحث بشأنه هناك.

علم النفس والأخلاق

يرتبط علم الأخلاق مع علوم مختلفة بأنواع من العلاقات ومنها علاقته الوثيقة مع علم النفس، وله علاقة أوضح مع فلسفة الأخلاق.

والأخلاق أساساً ـ سواء أكانت بمعنىٰ الملكات النفسية البحتة أم بمعنىٰ أوسع وأعمّ فتشمل أفعال الإنسان الاختيارية، بأن يكون علم الأخلاق محلاً لتبيين الأفعال الصالحة والسيئة أيضاً ـ ذات علاقة وثيقة مع النفس. إذ إنّ الملكات والأفعال الاختيارية من الظواهر النفسية ويتمّ كيفية تشكّلها في إطار علاقة واقعية

فيستدعي بحثاً واقعياً وموضوعياً ودراسةً وجهداً علمياً حقيقياً. أي مع غضّ النظر عن تقييم الإنسان للأعمال الصالحة والسيئة ـ والذي يتمّ في نطاق علم الأخلاق ـ فإنّ واقعيّات النفس والتفاعلات التي ترافق تشكُّل الأمور النفسية، من قبيل كيفية نشوء الملكات الأخلاقية في روح الإنسان وكيفية صدور الأفعال الأخلاقية من النفس وأحوال التفاعلات النفسية الأُخرىٰ، بحاجة إلىٰ تحقيق ودراسة موضوعية وبحث علمي لكي نوفّق في (علم الأخلاق) للبحث حول المسائل الأخلاقية ببصيرة تامة ومعرفة صحيحة عن الأمور النفسية، بل هي من جملة الأمور الواقعية الخارجية التي ينبغي الكشف عنها في إطار تحقيق علمي، فسيكون لها تناسب موضوعي مع أحد الفروع العلمية الحقيقية، وسيكون أفضل الفروع المعنيّة بالاهتمام بالبحث بشأن النفس والأمور النفسية هو (علم النفس).

انّ موضوع (علم النفس) يستدعي بذاته البحث عما يجري في نطاق النفس الإنسانية كظاهرة مرتبطة بالنفس، أي كموضوع خاصّ له وجوده الواقعي، في علم يتعلّق بهذا الموضوع، وليس ذلك العلم غير (علم النفس).

انّ علم النفس وإنْ ابتعد عن هذا المنهج في وقتنا الحاضر، ولا تعتبر أغلب مدارس علم النفس ـ بسبب حصرها العلم فيما يمكن مشاهدته وإخضاعه للتجربة الحسية ـ هذه المسائل النفسية الداخلية وغير المحسوسة والتي لا تخضع للتجربة الحسية، من المسائل العلمية. انّ هيمنة اللجوء إلىٰ التجربة الحسية في الأوساط العلمية في الغرب أدت إلىٰ انحصار علم النفس في دائرة السلوك الإنساني. وقام الكثير من علماء النفس بتعريف (علم النفس) ـ بسبب امكانية مشاهدة السلوك الإنساني واخضاعه للتجربة ـ بأنه علم السلوك الإنساني. ولهذا فقد أخرجوا مبادىء السلوك والحالات والملكات النفسية التي لا تخضع للتجربة الحسية من موضوع علم النفس، وألحقها بعضهم بفلسفة علم النفس.

لقد طرحت النظرية القائلة بضرورة قصر موضوع علم النفس علىٰ دراسة السلوك في مطلع القرن العشرين من قِبل عالم النفس الأمريكي المعاصر ج. ب. واتسون حيث طرح هذه الفكرة وهي ضرورة خضوع معلومات علم النفس ـ إذا أريد أن يعتبر علما ـ للمشاهدة والتقدير.

كان واتسون يعتقد بأنّ الطريق الوحيد لتأسيس علم النفس يتيسّر من خلال دراسة سلوك أفراد الإنسان، وبذلك يصبح علم النفس علماً موضوعياً متعلّقاً بالأمور العينية.

وقد قام الإستناد إلىٰ السلوك ـ والذي اختصت به نظرية واتسون ـ بوضع منهج لعلم النفس طيلة النصف الأول من القرن العشرين ولا يزال خليفته (علم نفس المحرّك والإستجابة) خاصّةً في ضوء بحوث العالم النفساني ب.ف.إسكينر في جامعة هارفارد يحتفظ بتأثيره النافذ.

ويتمّ في (علم نفس المحرّك والإستجابة SR) دراسة ماهية الدوافع التي تستدعي الردود السلوكية وما هي العطايا والتوبيخات التي تحافظ علىٰ دوام هذه الردود، وكيفية تغيير السلوك من خلال تغيير نماذج التشجيع والتوبيخ(١).

علىٰ أيّ حال، انّنا نعتقد ـ كما ذكرنا ـ انّ معرفة الظواهر النفسية تدخل في موضوع علم النفس، لانّ العلم لا ينحصر فيما يثبته منهج التجربة الحسية، بل من الممكن بناء اعتقاد يقيني وقاطع بالحقائق والأمور الواقعية الماثلة وخصائصها بطرق أُخرىٰ غير التجربة الحسية، والاعتقاد اليقيني علم مهما كان طريق تحقّقه، سواء أكان عن طريق التجربة الحسية أو أيّ طريق آخر.

---

(١) مبادىء علم النفس ـ تاليف علماء النفس: ريتال انكينسون وريتشاردس انكينسون وارنست هلفارد ـ ترجمة لجنة المترجمين الايرانيين ص ٢٥.

ومع غضّ النظر عن هذه المشكلة وإجابتنا عنها فإنّ علم النفس يبحث عن الأمور النفسية الواقعية، ووظيفته الكشف عن الحقائق النفسية، أعني الأمور النفسية الواقعية الموجودة في عالم التكوين، وليس بحثاً عمّا ينبغي أو لا ينبغي، إذ إنّ ما ينبغي وما لا ينبغي حتّىٰ بالنسبة إلىٰ ما يتعلّق بالأمور النفسية يرتبط بـ(علم الأخلاق). انّ ما يتعلّق بالأمور النفسية الواقعية يكون مرتبطاً بـ(علم النفس) المتقدم طبعاً على العلم الذي يبحث عمّا ينبغي وما لا ينبغي ففي الأمور النفسية أيضاً علينا ـكأي موضع آخر ـالتعرّف علىٰ الأشياء الموجودة لكي نعرف كيفية معالجتها والتعامل معها. وما لم تطّلع علىٰ هذه الحقائق حول ماهية النفس وشؤونها وأبعادها وقابلياتها وصياغتها لا يحقّ لنا الحكم بشأن ما ينبغي وما لا ينبغي للنفس أو الأفعال الاختيارية من الناحية الأخلاقية ووجوب العمل علىٰ هذا النحو وليس ذاك، وأيّ عمل يكون صالحاً أو سيئا؟ وأيّة ملكة تكون من الفضائل وأيها من الرذائل و... واتخاذ قرار بشأنها.

انّ تربية الإنسان بهذا اللحاظ كغرس شجرة، ومن يروم السير في هذا المضمار كمن يريد زراعة غرس، أي عليه في الخطوة الأُولىٰ أن يعرف ماهية الغرس، وأنّه لأي نوع من الأشجار؟ وما هي قابلياته؟ وما هو التأثير الطبيعي للمناخ عليه؟ وأيّة مواد تؤثّر في تغذيته ونموه؟ ما هو مدىٰ نموه وثماره التي يقدمها؟ هذه القضايا وما شاكلها لابدّ من الإحاطة بها من قبلُ كي نعرف كيف نزرع الشجرة؟ وما هي كمية المياه والأسمدة اللازم توفيرها؟ وفي أيّة منطقة جغرافية ومناخية نباشر بزراعتها؟

وبصورة إجمالية ما لم نعرف ماهية هذه الشجرة وما ستكون وتمتلكه من أشياء بالقوة وبالفعل لا يمكن أن نبحث عن زراعتها ورعايتها ونتخذ قراراً بشأنها.

إذا نظرنا إلىٰ النفس الإنسانية من هذه الزواية فانّها كالغرس تماماً مع فارق هو أنها أكثر تعقيداً، انّنا سوف نتعامل في مجال النفس مع ظاهرة الاختيار والإرادة والرغبة والمعرفة والخصائص الاُخرىٰ التي تميّزها عن الموجود المادي البسيط، وهي الخصائص التي لا تحظىٰ بها الشجرة ولا سائر الموجودات غير المختارة.

انّ مسؤولية علم الأخلاق هي تعليمنا كيفية تزكية النفس وتربيتها لأجل التخلّي عن الرذائل، والتحلّي بالفضائل، الاّ انّ أداء هذه المسؤولية والقيام بهذا الإرشاد التربوي في (علم الأخلاق) منوط بمعرفة ماهية النفس قُبيل السير في نطاق هذا العلم ومعرفة قابلياتها واستعداداتها، عمّا ينبغي أن تصير لكي نتمكن من البحث في (علم الأخلاق) وهو علم قيمي، وما هي مراحل الرشد والكمال التي ينبغي أن نطويها؟ وما هي الملكات التي يجب تحصيلها؟ وأيّة صفة تكون رذيلة وينبغي تطهير النفس منها؟ وأي عمل يكون صالحاً وينبغي أداؤه، وأي عمل يكون قبيحا وينبغي تركه؟

وفي هذه الحقيقة يكمن السرّ الأساسي لارتباط (علم النفس) مع (علم الأخلاق)، وفي هذا السياق يتبنّى علم الأخلاق جملة من الأصول الموضوعة أساساً له وهي مما تستفاد من علم النفس. وواضح انّ القسم المرتبط بـ(علاقة الإنسان بنفسه) الذي بادرنا به هنا أشدّ استناداً وتعلّقاً بهذه الأصول، وارتباطه بعلم النفس أوثق.

خصائص النفس وأبعادها

أجرى علماء النفس بحوثا كثيرة حول خصائص النفس وميزاتها الذاتية وحيثياتها الغريزية وأبعادها الفكرية. وقد أثبتوا للنفس ميولا خاصّةً أسموها

(الغريزة) أولاً، وبعد تقديم تعريف خاصّ للغريزة[١] تغيّرت هذه العبارة لتستخدم بدلاً عنها تعابير أُخرىٰ نظير السائق[٢] أو الدافع وما شاكلها.

انّهم كما قلنا: وإنْ كانوا قد أشاروا إلىٰ هذه الميول النفسية ولكنْ في حدود معلوماتنا وبحوثنا لم تتمّ دراسة هذه الميول الذاتية والأمور الغريزية للنفس بنحو كامل في أيّة مدرسة لعلم النفس، ولم تطرح نظرية متكاملة وشاملة بشأنها. قال بعضهم ـ مثلاً ـ: للانسان غريزتان، وقال بعض آخر: ثلاث غرائز وعدّها بعضهم اثنتي عشرة وأربع عشرة وثماني عشرة وأكثر.

كان فرويد يعتقد بوجود قوتين رئيسيتين غير واعيتين يعتبران دافعين قويَّين في تحديد السلوك وهما (غريزة الحياة) وتتجلّىٰ في النشاط الجنسي و(غريزة الموت) وهي التي تمهّد للسلوك العنيف[٣].

وقد ذكر ماكدوغال الغرائز التالية في كتابه(علم النفس الاجتماعي (١٩٠٨م):

الإكتساب والبناء والإستطلاع والهروب والروح الاجتماعية والدفاع والتكاثر والنفور والإستدلال وإثبات الوجود. ثمّ وسّع قائمته لتصل إلىٰ ثماني عشرة غريزة، حيث كان بعضها يتعلّق بمتطلّبات الجسم الخاصّة، وسعى لتبيين السلوك الإنساني كلّه من خلال اصلاح وتركيب هذه الغرائز[٤].

ثمّ اتّضح انّ تبيين ظرافة السلوك الإنساني يستدعي افتراض عدد كبير آخر من الغرائز. من هنا اعتُبرت المنافسة وكتمان السرّ والتواضع والطهارة والتقليد

---

(١) الغريزة: قوة حيوية فطرية تهيّيء الموجود الحي للعمل بنحو خاصّ في ظروف مناسبة.
(٢) السائق: حالة الاندفاع التي تبرز تحت تأثير حاجة حيوية.

(٣) مبادىء علم النفس ـ ترجمة لجنة من المترجمين الايرانيين ـ ج ١ / ٥١١.
(٤) المصدر السابق ج ١ / ٥١٠ و ٥١١.

والظلم والنزاهة والحسد من الغرائز، وأخيراً آل الأمر إلىٰ اعتبار كلّ ما يتصور من ألوان السلوك في عداد الغرائز[١].

علىٰ أيّ حال،، لا يوجد رأي قاطع عن حقيقة الميول الأساسية في النفس، وما ذُكر لحدّ الآن يكون في مرحلة الفرضية والنظرية، ولم يصل بعدُ إلىٰ مرحلة القطع والقانون.

وعليه ليس بوسعنا أن نستمد من علم النفس المعاصر كمبدأ يقيني ما يحدّد الدوافع الرئيسية في الإنسان وقابلياته وثرواته الفطرية، ويمهّد للبحث في الأخلاق والأصول الموضوعة لعلم الأخلاق سوىٰ ما ذكرنا آنفا من قيامهم بطرح نظريات فحسب.

أطروحة مقترحة

في هذا المجال نقترح أُطروحة لمعرفة الغرائز والدوافع والمحتويات الأساسية للنفس تقوم علىٰ أساس مشاهدات داخلية وتجارب باطنية وتكون دليلا لتبويب البحوث فقط، وفيها يُعلم كيفية الدخول في هذا البحث وتبويب مسائله ومواضيعه. ولإثبات وجود مثل هذه الدوافع في الإنسان يمكن أيضاً استخراج شواهد قرآنية مع التأكيد علىٰ أنّه لا يمكن نسبة هذا الطرح إلىٰ القرآن.

علىٰ أيّ حال، يبدو في البدء أنّ من الأفضل أن نلاحظ هيكلية النفس ونقوم بدراسة بشأنها ليُعلم ماهية أبعاد النفس التي يمكن اعتبارها وجوهاً وشؤونا للنفس ذاتها، ثمّ نبحث عن الدوافع الناشئة من الأبعاد النفسية المذكورة وبمثابة الحصيلة للترابط بين هذه الأبعاد.

---

(١) المصدر السابق ج ١ / ٥١١.

النفس هرم ثلاثي الأبعاد

ولأجل الحصول علىٰ معرفة أوضح لخصائص النفس نسلك طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس، ونشبّه النفس بهرم ذي سطوح جانبية ثلاثة. و تثليث السطوح يتناسب مع تصوُّرنا عن النفس، والذي نريد تقديم أُطروحتنا المقترحة علىٰ أساسه، وإنْ أمكن بمزيد من الدقة اكتشاف المزيد من أبعاد النفس فتكون شبيهة بهرم ذي أبعاد أكثر.

إلىٰ هنا تكون صورة النفس لدينا والتي تمثّل الأساس لأُطروحتنا المقترحة هي نفس ذات ثلاثة أبعاد وتشبه هرماً ذي ثلاثة سطوح جانبية.

وإنْ سألتم: لماذا شُبّهت النفس بالهرم، وما هو وجه الشَبه بينهما؟ لقلنا في الإجابة:

وجه الشَبه هو أن رأس الهرم يفيد وحدة مقام النفس، وتتّحد السطوح التفصيلية والمتعدّدة عند وصولها إلىٰ تلك النقطة، وبالعكس تنشأ أو تظهر وتتجلّىٰ شؤونها المختلفة من نقطة الرأس الواحدة. نستنتج إذنْ انّ جميع هذه الصور تتّحد في مقام ذات النفس وأعماقها أو انّها شيء واحد بالحقيقة.

ولكي نجسّد وحدة النفس هذه ونبرزها بنحو محسوس وواضح قمنا بتشبيهها برأس الهرم وقلنا: هذا الهرم المشبّه به عندنا ذو ثلاثة سطوح جانبية لكي نبيّن شؤون النفس المختلفة وأبعادها المختلفة وهي:

١ ـ بُعد العلم والمعرفة، أي كلّ ما يكون من مقولة العلم والإدراك. انّ العلم من أبعاد النفس الواضحة، فإنّنا علىٰ علم بأنّ النفس رغم انّ ليس لها غير حقيقة واحدة لا أكثر فإنّ العلم كامن في ذاتها، يصحّ اعتباره عين وجود النفس.

٢ ـ بُعد القدرة وهو الوجه الثاني الذي نتصوره للنفس. كلّ فرد منا يدرك هذا

المعنىٰ في نفسه وهو انّنا نمتلك عدة قدرات، ونـعني بـالقدرة مـا يكـون مـبدءً لنشاطنا. ومقصودنا من النشاط لا يتلخّص في الأعمال والنشاطات الجسمية، بل حتّىٰ عندما لا يقوم الجسم بنشاط، وليس بالإمكان أن نؤثّر علىٰ شيء في الخارج فانّنا يمكن أن نستفيد من القدرة، فنقوم بنشاط داخلي وسرّي في باطن أنـفسنا وأرواحنا، كأن ندرك شيئاً ونتصوره ونصدّق به، أو نقرّر تجاه عمل ما. انّ الإرادة الناشئة من النفس ذات مبدأ، وذلك المبدأ هو المنشأ للأعمال والمصدر للنشاطات وحركة النفس، انّه الحقيقة الكامنة في ذات النفس وباطن الروح.

٣ ـ بُعد الحبّ، وهو الوجه الثالث والأخير الذي يمكن تصوّره للنفس ويمكن الإشارة إليه بتعابير مختلفة. انّ أقلّ ما نؤكد عليه في هذه المرتبة هو (حبّ النفس) ففي مرتبة ذات النفس هناك حبّ موجود لذات النفس قطعاً.

بيد أنّنا نعتقد انّ الحبّ الموجود في ذات النفس لا ينحصر في (حبّ الذات)، بل انّ حبّ الله وعبادته والتقرّب إليه هو أيضاً من جملة الميول الفطرية لدىٰ الإنسان والتي لها جذور في ذات النفس، كما انّنا نعتقد فيما يرتبط بالبعد الأول والوجـه الأول للنفس انّ علم الإنسان وإدراكه لا ينحصر في العلم بالنفس، بل انّ العـلم بالعلة والخالق ومعرفة الله ـ حسب الاصطلاح ـ هو الوجه الآخر للإدراك الفطري وغير الإكتسابي للانسان، وله وجود في ذات النفس وإنْ كان ضعيفا، وهو قابل للتقوية طبعاً حتّىٰ يبلغ درجة الإدراك الحضوري الواضح، كماانّ بُعد القدرة فـي النفس يكون منشأ للسير إلىٰ الله تعالىٰ، وعليه يمكن القول: انّ القدرة ـ كـالعلم والحبّ اللذَين لكلٍ منهما نسبة مع النفس ونسبة مع الله ـ ذات نسبة إلىٰ الله أيضاً، وتكون منشأً للسير إلىٰ الله. أي انّ الإنسان في ذاته يعرف الله بصورة فطرية ويحبّه وبإمكانه السير والتحرّك نحوه.

وعليه فإنّ العلم والقدرة والحبّ في عين كونها أبعاداً للنفس الإنسانية تشير من البداية بنحو فطري مهما كان ضعيفا إلىٰ جهة لانهائية ولها ارتباط بالله تعالىٰ، الاّ انّنا قمنا ـ رعاية لمستوىٰ القدرة والإدراك لدىٰ العموم ـ بالتأكيد والاهتمام بالعلم بالنفس وحبّ النفس لدىٰ عرض الأُطروحة.

انّ الأبعاد الثلاثة التي ذكرناها للنفس تكون عين النفس في مقام بساطة النفس ـ أي في نقطة رأس الهرم ـ بيدَ أنها حينما تصل إلىٰ مقام التفصيل تتجلّىٰ وتظهر بصور مختلفة ومستقلة عن بعضها نذكرها تحت عناوين ثلاثة: العلم، والحبّ والقدرة، إذ إنّ لكلّ منها مفهومه الخاصّ من تلك الصور الثلاثة.

ففي مقام التفصيل يباين مفهوم العلم مفهومَ الحبّ ويتميّز عنه ويتشخص، وهكذا الحبّ مع القدرة، والقدرة مع العلم. ويمكن إثبات هذه الصور الثلاث في كلّ موجود ذي احساس. وعلىٰ هذا الأساس يمكن القول: انّ الصفات الذاتية لكلّ موجود مجرّد هي العلم، والقدرة والحبّ.

في مقام وحدة النفس وبساطتها وهي بمثابة رأس الهرم يترابط العلم والقدرة والحبّ ويكون بعضها عين البعض الآخر، حيث لا توجد هناك غير حقيقة واحدة نعبّر عنها بـ(النفس) ولكنْ كلّما اقتربنا من قاعدة الهرم يميل هذا الإجمال إلىٰ تفصيل أكبر، اي انّ الزاوية تنفرج بصورة أكبر وتضمّ في داخلها الحقائق التي يكون أحد هذه الأبعاد الثلاثة هو الأشد وتتجلّىٰ بنحو أكثر تفصيلا، ولكنْ علىٰ أيّ حال، فإنّ هيئة النفس ذاتها بغضّ النظر عن الأمور التي تكتسبها فيما بعد أو تظهر فيها تتألف من هذه الأمور الثلاثة وتنتزع منها هذه المفاهيم الثلاثة.

أضف إلىٰ ما ذكرناه لحدّ الآن ـ من تشبيه النفس المعقولة بالهرم المحسوس ذي الأبعاد الثلاثة ـ عن النفس والشؤون المختلفة المرتبطة بها كالوحدة والكثرة

والعلم والقدرة والحبّ أنّ الذي يشكّل المحتوىٰ الداخليّ لهذا الهرم ذي الوجوه أمر واحد هو الاندفاع والحركة نحو الكمال، فالنفس تبغي التحرّك دائما ويكون لها سيرٌ حثيث بلا كلل. وبما انّ هذه الحركة لا تكون خارجة عن ذات النفس فمن الممكن القول من هذه الناحية: انّ النفس ذاتها هي عين هذه الحركة وعين هـذا الانبعاث. كلّ انسان يحس بميله الباطني نحو الرقيّ والتقدم ولا يرضىٰ بالتوقف والركود. ويمكن ملاحظة الآثار والعلامات الظاهرية لهـذا المـيل النـفسي فـي مراحل حياة الإنسان المختلفة منذ الطفولة حتّىٰ الشباب والكمال، وذلك في صور ومظاهر مختلفة.

ومن المناسب أن نشير هنا إلىٰ نكتة ذوقية وإنْ لم تكن استدلالية، ولكنّها ذات ظرافة جديرة بالالتفات وتكون بمثابة التأييد من روايات المـعصومين عليهم السلام لمـا ذكرناه آنفاً. حيث ورد في بعضها انّ الروح مشتقة من الريح، ونظراً إلىٰ انّ روح الإنسان هي النفس الإنسانية ذاتها ـ وإنْ كان الظاهر من هذه الروايات هو بيان العلاقة اللفظية واللغوية القائمة علىٰ انّالروح والريح لهما مادة مشتركة واحدة في الأصل ـ ولكنْ يمكن القول بأنّها تشير إلىٰ أنّالنفس أي الروح الإنسانية ذاتـها كالريح لها حالة تحرُّك وهبوب وصعود وهبوط، وأنّ حقيقة الروح أساساً ليست شيئاً غير حركة النفس وتغيّرها كحقيقة الريح التي ليست شيئاً غير حركة الهـواء وتغيّر الجو. وكما أن حيثية الريح وهويتها تستند إلىٰ حركتها وتغيّرها فإنّ هـذه الحيثية ملحوظة أيضاً في الروح، وتكون الحركة أمراً ذاتياً للنفس الإنسانية.

أجل يُستفاد من هذه الروايات انّ حقيقة النفس الإنسانية هي الحـركة، وأنّ ذاتها عين التحرّك والانبعاث، وليس هذا البيان عـلىٰ نـحو الإشـارة والإشـعار

فحسبُ، بل تصرّح رواية محمد بن مسلم بهذه الملاحظة وهي انّ الروح متحرّكة كالريح حيث يقول: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل **﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾** كيف هذا النفخ؟ فقال: انّ الروح متحرّك كالريح وإنّما سُمّي روحاً لأنّه اشتق اسمه من الريح، وإنّما اخرجه عن لفظة الريح لانّ الأرواح مجانسة للريح، وإنّما أضافه إلىٰ نفسه اصطفاء علىٰ سائر الأرواح[١].

ويكون معنىٰ الكلام المذكور في ضوء جوهر المعارف الإسلامية ومضمون الآيات القرآنية انّ روح الإنسان حركة نحو الله تبارك وتعالىٰ. نشير في هذا المجال إلىٰ آية قال تعالىٰ فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾[٢].

فمن هذه الآية يمكن استشعار أن حقيقة وجود النفس وروح الإنسان هي الكدح والسعي والحركة، فعلىٰ الإنسان توجيه هذه الحركة وهدايتها نحو مسيرتها الصحيحة. وبعبارة أوضح يمكن الإستنتاج من الآية المذكورة انّ أصل الحركة والسعي والسير نحو الرب أمر قطعي وجبري شئنا أم أبينا، والإنسان سوف يدرك القيامة شاء أم أبىٰ وسيلتقي بربه، الاّ انّ توجيه هذه الحركة الجبرية أمر اختياري، ولذا ذكرت الآية نوعين من الأهداف للحركة المذكورة: أحدهما الهدف من أصل الحركة التي تحصل شئنا أم أبينا، ويلتقي الإنسان بربه أخيراً، أي أصل اللقاء، ثانيهما هي كيفية اللقاء، فالإنسان لو انتخب في هذه الحركة الجبرية جهة صحيحة كان لقاؤه مع ربه مقارناً للرضا ويكون مسروراً وعزيزاً، وإنْ لم يتّبع جهة صحيحة في حركته كان اللقاء مرّاً، ولذا يقول عقيب الآية المذكورة:

---

(١) الكافي ج ١ /كتاب التوحيد / باب الروح / الحديث ٣.
(٢) الانشقاق / ٦.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً﴾[١]

حينما نقيس حركة النفس مع هدفنا سنجد انّها انجذاب إلىٰ الله من جهة، أي انّ الهدف هو الذي يجذبها نحوه، والله هو الذي يحرّك الإنسان نحوه، وهي من جهة أُخرىٰ حركة نفسية، وهي ـ تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ـ كالجاذبية الموجودة بين الحديد والمغناطيس، فعندما ننظر إلىٰ الحديد نجده يتحرّك نحو المغناطيس، وعندما ننظر إلىٰ المغناطيس نجده يجذب الحديد نحوه.

وبين النفس وبين مبدء الوجود يوجد مثل هذا الجذب والانجذاب والسير والحركة أيضاً ـ وإنْ لم يكن جذبا وانجذابا أعمىٰ ومظلما، بل مع فارق كبير معه ـ فالحركة موجودة في ذات النفس، وليست ـ طبعاً ـ واضحة تماماً وواعية في البداية، بل تصبح مع تكامل النفس تدريجيّاً بصورة واعية.

الترابط الدائم بين أبعاد النفس

بعد اجتياز مقام بساطة النفس والوصول إلىٰ مقام التفصيل والكثرة لشؤون النفس تكون الحقيقة الأُولىٰ التي تُطرح هي أبعاد النفس الثلاثة أي العلم والقدرة والحبّ، أو حبّ النفس التي قمنا ببيانها، والآن وبعد أن اتّضحت أبعاد النفس تصل النوبة إلىٰ معرفة هذه الحقيقة وهي انّ الأبعاد المذكورة للنفس ـ أي العلم والحبّ والقدرة ـ مترابطة ارتباطا دائماً لا ينفك، وتوجد بينها أواصر معقدة ومتشابكة هي غاية في التأثير والتأثّر.

---

(١) الانشقاق / ٧ ـ ١٢.

نشرع بالدوافع التي يمكن اعتبارها من زمرة فروع حبّ النفس الذي يمثّل بُعداً من الأبعاد الثلاثة للنفس، وإنْ أمكن القول بلحاظ آخر ـ كما انّ حبّ النفس لم يكن منفصلا عن البعدين الآخرين أعني العلم والقدرة ـ انّ دوافعه الفرعية وإنْ كانت مظاهر وفروعاً لحبّ النفس ولكنّها ذات ارتباط وثيق مع البُعدين الآخرين وهما العلم والقدرة، لانّ الدوافع الإنسانية عبارة عن جواذب ليست كالجاذبية المغناطيسية العمياء، بل جواذب مقرونة مع الإدراك والوعي نوعاً مّا، وتتعلّق دائما بأمور معروفة للانسان نحواً من المعرفة، سواء أكان بنحو الإدراك الفطري أو الإكتسابي، وسواء أكان بنحو الإدراك الاجمالي أو التفصيلي و...

علىٰ أيّ حال، فإنّ العلم والوعي والإدراك هو الذي يوجّه هذه الدوافع والميول الفطرية، ويعمل علىٰ إثارتها وإيقاظها ورشدها وبلوغها ونضجها.

ومن جهة أُخرىٰ تكون هذه الدوافع الأساسية والفرعية هي القنوات لحركات الإنسان ومساعيه وجهوده وستكون في ذاتها مظاهر وتجلّيات لبُعد القدرة للنفس.

وعليه يمكن القول انّ هذا الاتصال والإرتباط بين العلم والقدرة والحبّ في النفس الإنسانية قائم بنحو مّا حتّىٰ النهاية في جميع الفروع والشُعب، وإنْ كان لأحد هذه الأبعاد الثلاثة في بعض المجالات ظهور وتجلٍّ أكبر بالقياس إلىٰ البعدين الآخرين. فإنّ من الواضح جدّاً مدىٰ ما للبعدين النفسيّين (العلم والقدرة) بالقياس إلىٰ البُعد الثالث للنفس (حبّ النفس) من تأثير بالغ في تجلّيه وظهوره، في توجيهه وهدايته، في إثارته وإيقاظه، في رشده ونضجه، وفي تكثير فروعه وأغصانه. حتّىٰ انّ حبّ النفس لا يمكن أبداً أن يتّصف بهذا الرشد والنضج والإكتمال الكبير بدون العلم والقدرة، إذ يمكن القول بعبارة واحدة: انّ جميع

الجهود والنشاطات والتحرّك الإنساني طيلة العمر من أيّ نوع كان، مادي ومعنوي، ودنيوي واخروي، وفردي واجتماعي، هي آثار ومظاهر للميول الإنسانية المتنوّعة والمعقدة، وترجع أخيراً في أساسها وأصولها إلىٰ (حبّ النفس).

الاّ انّه يمكن القول أيضاً: انّ هذا التأثير والتأثّر موجود بالنسبة للبعدين الآخرين للنفس أعني العلم والقدرة، وسيكون كلّ منهما متأثّرا ببُعدي النفس الآخَرين في رشده ونضجه وتفصيله وتفرعاته.

انّ النفس في مقام الاجمال عين العلم بالنفس، ولكنْ عندما يجيء مجال التفصيل فانّالعلوم الحضورية والحصولية المختلفة تتحقّق، فالعلم بالقوىٰ، والعلم بالأفعال والانفعالات وأخيراً جميع العلوم التي نكتسبها عن الأشياء الخارجية تتحقّق في باطن النفس. انّ العلم في النفس ينشأ من نقطة الاجمال تلك ثمّ ينمو وينضج حتّىٰ يكون في النهاية علىٰ صورة شجرة راسخة ومحكمة كثيرة الأغصان والأوراق والفروع يوماً بعد آخر حتّىٰ تشغل فضاء واسعاً، وتلقي بظلالها علىٰ كلّ شيء وفي كلّ مكان. انّها حقيقة واضحة يمكن لمسها بأدنىٰ ملاحظة.

ما نريد قوله هنا هو ما قلناه في حبّ النفس، وهو أن للبعدين الآخرين تأثيراً بالغا في هذا الرشد والنضج، بمعنىٰ أنّ القدرة وحبّ النفس عاملان قويّان في العلم بالنفس تفصيلا، ويسبّبان رشدها ونضجها وتكثّر فروعها واغصانها وأوراقها، كما أنّ التأثّر بهما يزيد من قدرة الإنسان يوماً بعد آخر وتظهر في الإنسان ميول أكثر تعقيدا.

وما ذكرناه عن حبّ النفس والعلم يصدق في مورد القدرة أيضاً، إذ إنّ قدرة الإنسان تحقّق رشداً ونضجاً أكبر، يوماً بعد آخر. وفي كلّ يوم يمرّ عليه يكتسب

قدرة علىٰ أعمال كان يعجز عنها فى السابق. انّ قـدرته فـي الهـدم والإعـمار، والتحطيم والبناء، والخلق والابداع، والابتكار والاختراع والإكتشاف تـواصـل مسيرتها التقدمية، ولكنْ مَن القادر علىٰ نكران تأثير العلم وحبّ النفس في هذا التغيّر الكبير في قدرة الإنسان، وحـصول التـفصيل العـجيب مـن تـلك النـقطة الاجمالية؟

القسم الثالث

٢ـ١

الدوافع الأساسية للنفس

أـ حبّ البقاء وفروعه

ب ـ طلب الكمال في تجلّيات مختلفة

١ ـ حبّ الاقتدار

التنوّع في حبّ الاقتدار

٢ ـ البحث عن الحقيقة

ج ـ حبّ الالتذاذ والسعادة

أ ـ الغرائز

ب ـ حبّ الجمال

ج ـ العواطف

د ـ الأحاسيس والانفعالات

ملاحظات تكميلية

١ ـ ترابط الدوافع و تمازجها

٢ ـ تأثير الدوافع على القيم الأخلاقية

٣ ـ تزاحم الدوافع

٤ ـ الدوافع الخفية

الإجابة عن سؤالين

الدوافع الأساسية للنفس

في مقام التفصيل تنشأ فروع من هرم النفس ذي الأبعاد الثلاثة، ويكـون لهـا ارتباط داخلي مع الأبعاد النفسية الثلاثة: العلم والقدرة والحبّ (حبّ النفس) أي انّ هذه الأبعاد الثلاثة مترابطة في باطن النفس، وتكون في مقام التفصيل مـنشأً لظهور تفرعات ثمّ تكثيرها، وقد أشرنا في الفـصل المـاضي إلىٰ هـذا التـرابـط والإرتباط المتواصل وتكثير الفروع والأغصان.

والآن نتطرق إلىٰ تكثير الميول والدوافع وتبيين القـنوات الأسـاسية وبـعض أغصانها وأوراقها الفرعية. انّ فروعاً من الميول الغريزية والسوائق وإنْ وجدت إثر الترابط الداخلي بين الأبعاد الثلاثة للنفس، وبالتالي يكون للعلم والقدرة تأثير بالغ وظاهر لا يمكن التغاضي عنه في ايجادها، ولكنْ من جهة السنخية يـمكن القول: انّ جذورها في الأصل والأساس هو حبّ النفس، وتعتبر من فروع هـذا البُعد من الأبعاد النفسية، وتصبح هي بدورها مـبدءً لأفـعال الإنسـان المـختلفة وتدفعه للقيام بألوان سلوكية متنوّعة.

انّ النفس تتضمّن جواذب لنيل أمور تفقدها، يطلق عليها بعض علماء النفس: اسمَ (الغريزة) وبعض آخر اسمَ- (السائق) ويطلق آخرون اسماء أُخرىٰ عليها،

أي ليس لها مصطلح ثابت ومسلّم به، وسوف يحتاج استعمال كلّ منها وإطلاق كلّ من الأسماء المذكورة عليها إلىٰ توضيح مستقل. وما نروم طرحه هنا هو أنه يمكن القول: انّ هناك عدة ميول تتولد في النفس في البداية وهي تمثّل الفروع والقنوات الأساسية لأفعال الإنسان، ويمكن اعتبارها غرائز أساسية. ومن الجدير بالالتفات هو انّ المقصود من الغرائز هنا ليس ذلك المصطلح الذي يستعمل في الميول المشتركة بين الإنسان والحيوان والمتعلّقة بالجسم، بل تستعمل في المفهوم العامّ للميل والدافع. ثمّ تتفرع منها سائر الميول الإنسانيه الكثيرة كماً والمعقدة كيفاً، وتمثّل المنشأ لأعمال وممارسات انسانية متنوّعة ومعقدة: التذاذية، ومصلحية، وعاطفية؛ وفردية واجتماعية؛ ومادية ومعنوية. وتتفرع كلّها من هذه القنوات الأساسية ويرجع كلٌّ منها إلىٰ هذه الجذور بصورة ما، يتعلّق بها ويتغذىٰ منها.

ولنقلْ بنحو أوضح: انّ مقصودنا من الغرائز الأساسية هو ثلاثة أنواع من الميول تنشأ من النفس وبها تنجز جهود الإنسان كافة، وستكون هذه القنوات الأساسية الثلاث في ذاتها ـ كما قلنا ـ مظاهر متنوّعة للحبّ وحبّ النفس.

إحدىٰ هذه القنوات هو (حبّ البقاء) الذي يمثّل المنشأ لمجموعة من الجهود الإنسانية. انّ الأساس في رغبة الإنسان في أن يبقى ويكون ذا حياة دائمة هو حبّ الذات والحركة الذاتية للنفس والتي تتجلّىٰ في قناة خاصّة.

القناة أو الغريزة الأساسية الثانية هي (حبّ الكمال) أي انّ الإنسان مع غضّ النظر عن رغبته في البقاء وامتلاك عمر طويل يحبّ في إطار البقاء وانقضاء العمر أن يتكامل يوماً بعد آخر أيضاً، وتكون حركته ذات مسيرة تكاملية.

هذا الكمال الذي يودّه الإنسان ينقسم إلىٰ قسمين ويجري في قناتين مستقلتين، وهما في عين افتراقهما واستقلالهما فرعان من (حبّ الكمال) لانّ

كمالات الإنسان تتشكّل في فرعين أساسيّين هما: (تكامل العلم) و(تكامل القدرة) وعليه فإنّ (طلب الحقيقة) و(حبّ الاقتدار) ميلان يمثّلان فرعين أساسيّين للميل الرئيسي الأكبر وهو (حبّ الكمال).

القناة الأساسية الثالثة أو الغريزة الأساسية للانسان هي (طلب اللذة) و(حبّ السعادة) فانّه يحبّ اللذة إلىٰ جانب البقاء والكمال، ويودّ السرور الدائم والحياة الطيبة.

وكلّ غريزة من الغرائز الثلاث المذكورة في عين نشوئها من جذر واحد أعني (حبّ النفس) تصبح بدورها أصلا لأغصان وفروع متعدّدة ومتنوّعة، وتكون منشأ لنشاطات كثيرة بفعل عوامل مختلفة.

أ ـ حبّ البقاء وفروعه

يظهر (حبّ البقاء) وهو الغريزة الأُولىٰ من الغرائز الأساسية الثلاث في الإنسان بفعل عامل آخر في صورتين مختلفتين، وينتهي إلىٰ نوعين متمايزين تماماً من النشاطات الإنسانية. والعامل المذكور هو (العلم والمعرفة)، ويحظىٰ أفراد الإنسان بدرجات متفاوتة منه، ويوفّر للذهن الإنساني معلومات مختلفة، ويكون منشأً للاختلاف والتنويع في السلوك الظاهري للانسان، أيان الإنسان هذا الموجود الحساس الذي يسعى ويجدّ علىٰ أساس من علمه وإدراكه لو توصّل في مجال التعرّف علىٰ حقيقة النفس إلىٰ هذه النتيجة وهي انّ حقيقة النفس هي الحقيقة المادية لجسم الإنسان لا غير فإنّ حياته سوف تتلخص في هذه الحياة الدنيوية والحال أنّه لا يعرف حياة ولا وجوداً له بعد موته واندراس جسده. في هذه الحالة سيكون لـ(حبّ البقاء) تجلٍّ خاصّ وظهور متناسب مع هذه المعرفة،

أي تظهر علىٰ صورة آمال عريضة في الحياة الدنيا، وحبّ شديد للتمتع بعمر طويل في النشأة المادية هذه، والرغبة في البقاء الخالد في هذه الدنيا والحياة المادية، ومثل هذا الحبّ يكشف في ذاته عن تلك المعرفة.

قال تعالىٰ عن أمثال هذا الإنسان:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1].

من البديهي انّ العدد (ألف سنة) هو كناية عن أملهم الطويل وحبّهم الشديد للحياة المادية، ويفهم منه محض الكثرة دون التقيد بحدّه الخاصّ، والاّ فإنّ مثل هذا الإنسان ذي الرؤية المادية يودّ لو يعيش ألف سنة أُخرىٰ دون أن يزول هذا الحرص لديه أبداً.

انّ منشأ هذا الحبّ الشديد للعمر الطويل هو (حبّ البقاء) الذي اتخذ تجلّياً خاصّاً علىٰ أساس من الرؤية المادية والمعرفة الخاطئة عن الكون والإنسان ـ تلك الرؤية التي بحسبها يتلخص وجود الإنسان في الجسم المادي وحياته في الحياة الدنيوية ـ ويتجلّىٰ بصورة الحرص علىٰ الدنيا والأمل الطويل والحرص الشديد للتمتع بعمر طويل.

وعلىٰ العكس لو ارتقى الإنسان إلىٰ نقطة أعلىٰ في سلّم المعرفة، وتوصّل إلىٰ معرفة أعمق عن الإنسان والكون، وأدرك انّ هذه الحياة الدنيوية تمثّل مرحلة متصرّمة من حياة الإنسان، و هي مقدمة لحياته الحقيقية الأصيلة فانّه لا يتشبّث بها، بل سينصرف اهتمامه الأكبر إلىٰ مراحل أعلىٰ، ويباشر أعمالا أنفع لآخرته

---

(١) البقرة / ٩٦.

ومستقبله. ومن البديهي انّ دافع (حبّ البقاء) في هذه الحالة أيضاً هو الدافع لاداء هذه الأفعال والعبادات والجهاد والرياضة، ويكون السبب للإعراض عن الدنيا والتوجّه إلىٰ الآخرة في حالات التعارض بينهما.

ونرىٰ انّ نتيجتين متضادتين تستمدان من جذر واحد هو (حبّ البقاء)، وهذا الدافع الفطري يحثّ الإنسان علىٰ ممارسة نوعين من الأعمال بماهيتين مختلفتين، وأهداف ودوافع مختلفة. وإذا سُئلنا: كيف يمكن لدافع واحد أن يحثّ الإنسان إلىٰ نوعين متضادين من الأعمال؟ قلنا في الإجابة: هذا الدافع وإنْ كان ذا أساس فطري ولكنّ تشكُّله واتجاهه كما أشرنا سابقاً يستند إلىٰ عامل خارجي وغير فطري وهو العلم ومعرفة الإنسان، ودرجات المعرفة يمكن أن تكون سبباً لظهوره وازدهاره في أشكال مختلفة، ويجد اتجاهاتٍ متعدّدة، ويدفع الإنسان لممارسة افعال متنوّعة، ولكنّ هذين النوعين من العمل مشتركان في حقيقة واحدة إذ هناك اهتمام بالمستقبل في كليهما، ورؤية الإنسان للمستقبل تدفعه نحو العمل، أي بما انّ الإنسان توّاق لاستمرار حياته فانّه يفكّر في مستقبله ويسعى لإحرازه، غير انّ هذه الرؤية المستقبلية تدفع الإنسان علىٰ أساس معرفة معيّنة لممارسة عمل خاصّ، وتدفعه علىٰ أساس معرفة أُخرىٰ لممارسة عمل آخر، كالتاجر الذي يعقد صفقة تجارية بهدف الربح، فانّه حينما يلاحظ أوضاع السوق وحاجة الناس والأحوال الاقتصادية يرىٰ انّالربح الكثير يكون في تجارة القطن، ولأجله يدخل في صفقة بيع وشراء القطن، وقد يرىٰ في المرة الثانية انّ عليه الدخول في تجارة الحديد مثلاً للحصول علىٰ ربح أكبر لاحساسه باحتياج المجتمع للحديد، ووفق قاعدة (العَرض والطلب) يتوصّل إلىٰ انّ الربح الكبير

والمطلوب يكمن في تجارة الحديد. فنلاحظ انّ دافع كسب الربح وإنْ كان واحداً إلاّ أنّه في ظلّ تأثير عامل المعرفة من الخارج يدفع الإنسان لممارسة عملين مختلفين.

ب ـ طلب الكمال في تجلّيات مختلفة

انّ (الغريزة الأساسية) الثانية في الإنسان هي طلب الكمال، و(حبّ الكمال) توأم (حبّ البقاء) إذ إنّ أيّ تكامل لا يتحقّق دون بقاء، وفرض الكمال يكون في موقع يكون الإنسان فيه باقيا. والفارق بينهما هو انّالتكامل لا يتحقّق بدون البقاء في حين يكون البقاء أعمَّ من ذلك فقد لا يكون متقارنا مع التكامل، إذنْ يبحث الإنسان في طلب الكمال عن نوع من الزيادة الكمية أو الكيفية أو النضج، ويطلب أموراً ليزداد انتفاعاً من الوجود. وهذا أمر مستقل عن البقاء واستمرار أساس الحياة.

انّ طلب الكمال في الإنسان ذو فرعين رئيسيَّين ويظهر ويزدهر في مَيلين قويَّين هما:

حبّ الاقتدار، والبحث عن الحقيقة.

١ ـ حبّ الاقتدار:

انّ حبّ الاقتدار من الميول الفطرية والذاتية والجذرية في الإنسان، وقد قلنا سابقاً إنّ القدرة تمثّل أحد الوجوه الأساسية لهرم النفس وأحد أبعادها الأساسية، وتكون في مقام الاجمال هي النفس الإنسانية ذاتها وإنْ امكن في مقام التفصيل

إدراكها منفصلة ومتمايزة عن البعدين الآخرين. ومن الطبيعي أن يكون الإنسان المحبّ لذاته محبّاً لقدرته أيضاً.

انّ الميل لنيل القدرة وبتعبير آخر انّ تجذّر حبّ الاقتدار في فطرة الإنسان وذاته وجوهره حقيقة قطعية يجدها كلّ انسان في أعماق نفسه، كما انّ اجراء التجربة علىٰ أعمال وسلوك الآخرين يكشف بوضوح عن هذه الحقيقة. حتّىٰ سلوك الاطفال لو درسناه تيسّر لنا ملاحظة روح حبّ الاقتدار في أعماق نفوسهم، فالطفل منذ أن يعرف نفسه فانّه يحبّ القدرة ويسوؤه الضعف والعجز، ويغمره السرور حينما يحس بالاقتدار في نفسه. فمثلاً نلاحظ الاطفال في الشهور الأُولىٰ من أعمارهم وهم عاجزون عن الوقوف علىٰ اقدامهم كيف يحاولون الوقوف علىٰ كلّ حال، وحتّىٰ لو سقط الطفل مائة مرة فانّه لن يترك هذا الأمر حتّىٰ يُوفّق للوقوف متوازنا تماماً علىٰ قدميه، ويغمره الفرح لاكتسابه القدرة. ولو أمسك الوالدان بيديه ليستطيع الوقوف والمشي وجدناه يحاول بطرق مختلفة أن يفلت من أيدي الوالدين ويقف علىٰ قدميه بلا حاجة إليهما.

هذه المحاولات وهذا السرور والتمرين للاكتفاء الذاتي وعدم الاحتياج للوالدين في الطفل هي مظاهر مختلفة لحبّ الاقتدار والكمال في الإنسان. ونظراً لوجود جذور فطرية لهما وكونهما ذاتيّين للانسان فانّهما يدفعانه حتّىٰ في مرحلة الطفولة إلىٰ هذا النوع من السعي، ويدفعانه من خلال هذا الطريق للتحرّك في مسيرة الكمال وتحقيق الكمالات الإنسانية أخيراً.

ولكنْ نظراً لكون هذا الميل أمراً ذاتياً في الإنسان، ولوجوده في فطرته فانّه لا يتركه بحال، ويكون حاكما علىٰ سلوكه في مراحل عمره المختلفة بأنحاء مختلفة، حتّىٰ الذين يودّون تسنّم المناصب والمقامات الدنيوية، والذين يريدون بسط

هيمنتهم علىٰ ارجاء الأرض، أو أكثر من ذلك بأن يفكّروا في التسلط علىٰ السماء وتسخير الاجرام السماوية، فانّهم يفعلون ذلك تحت سلطة وتأثير (حبّ الاقتدار) و(حبّ الكمال) وكلّ هذه الأعمال والمساعي هي مظاهر لـ(حبّ الاقتدار) و(حبّ الكمال) عندهم.

التنوّع في حبّ الاقتدار

يجدر هنا طرح هذا السؤال والبحث بشأنه: كيف يمكن ظهور حبّ الاقتدار في الإنسان بأشكال مختلفة؟ أي من سعي الطفل للتحرر من أيدي الوالدين بغيةَ الوقوف علىٰ قدميه، إلىٰ سعي الشابّ لنيل بطولة المصارعة والجهاد السياسي لنيل مناصب سياسية ومقامات اجتماعية، حتّىٰ الجهود الدولية المتنوّعة للوصول إلىٰ اكتساب القوة العظمى والهيمنة علىٰ الكرة الأرضية، وفوق ذلك بالإستيلاء علىٰ السمٰوات وتسخير الكواكب ـ وهو ما أوضحناه آنفا ـ وهذه مراتب مختلفة لقدرة الإنسان المادية، وهناك من لا يحصر قدرة الإنسان الحقيقية في هذه الانواع المختلفة للقدرة المادية، بل انّها تشمل مظاهر القدرة الأُخرىٰ من قبيل قوة النفس أو قوه الإرادة والتسلط علىٰ الذات، أو القدرة علىٰ التحكم في آمال وأهواء النفس، أو القدرة الروحانية التي ينالها المرتاضون عن هذا الطريق ويمارسون من خلالها افعالاً تثير الاعجاب والإستحسان، ولا تكون في إطار القدرة المادية، حتّىٰ تصل أخيراً إلىٰ القدرة التي يبحث عنها أولياء الله، أي القدرة الخالدة والقدرة الالٰهية المطلقة التي يكرّس من أجلها أشخاص أنفسَهم لعبادة الله مدىٰ العمر ويحملون عبء الطاعة الثقيل للأوامر الالٰهية لكي يقتربوا إلىٰ الله وتكون قدرتهم شعاعا من القدرة الإلٰهية، وبعبارة أُخرىٰ تتجلّىٰ فيهم القدرة الإلٰهية. نكرّر السؤال

المذكور هنا ونبادر للإجابة عنه: كيف يظهر حبّ الاقتدار في الإنسان هذا الميل الفطري والطلب الذاتي بالأشكال والصور المتنوّعة المذكورة بعرضها العريض؟
الجواب: في تنوّع صور حبّ الاقتدار يمكن الإستناد إلىٰ عاملين، لأحدهما دور في اختلاف مراتب القدرة الطولية المختلفة، ولثانيهما دور في تنوّع الصور المختلفة للقوىٰ المتعدّدة التي هي في عرض واحد. أمّا فيما يتعلّق بالمراتب المختلفة لقدرة طولية فيمكن القول ان كلّ مرتبة من القدرة التي ترتبط بحبّ الاقتدار لدىٰ الإنسان تكون ـ بعد توفّرها وتحقّقها في الخارج ـ سبباً لانّ يهجر حبّ الاقتدار لديه في هذه المرتبة ليتعلّق بالمرحلة التالية لها.

وعليه فإنّ كلّ مرتبة من القدرة تصبح فعلية يكون لها دور إيجابيٌّ في طلب المرتبة التالية لها. فمثلاً من كان طالبا للاقتدار وبإمكانه فعلا أن يصرع بطلا فانّه يكون طالبا لدرجة اعلىٰ من القدرة لكي يصارع بطلا أكثر قوة.

انّ العامل الثاني الذي له دور في تنوّع حبّ الاقتدار هو المراتب المختلفة للعلم والمعرفة الإنسانية. انّ انشداد الإنسان إلىٰ مظاهر القدرة المختلفة يتوقف علىٰ درجات معرفته بالظواهر المختلفة للقدرة.

الإنسان ميّال إلىٰ القدرة، انّه ميل ذاتي في الإنسان وله جذور فطرية، وقلنا سابقاً إنّ القدرة أساساً إحدىٰ الوجوه الثلاثة لهرم النفس، ومن الطبيعي ان تحبّ النفس ـ التي تحبّ ذاتها ـ القدرة التي هي وجه من وجوه النفس، الاّ انّ السؤال الذي يطرح أمامها يكون عن العلم التفصيلي لماهية هذه القدرة التي له معرفة بها في مقام الاجمال ويبحث عنها حثيثاً. أجلْ إنّ الإنسان الذي يميل إجمالاً نحو القدرة يودّ لو يدرك ماهية هذه القدرة؟ وأنواع القدرة وصورها المختلفة. وأنّ أيّ أنواعها هو الأفضل وما السبيل إلىٰ نيله؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وأمثالها دور إيجابيٌّ في توجيه حبّ الاقتدار لدىٰ الإنسان وإرشادها، ومن جهة أُخرىٰ تعتبر الإجابة عنها عملاً علميا ويستند إلىٰ معرفة الإنسان، وبالتالي نجد أنّ عامل المعرفة، أي الوجه الآخَر للنفس، هو الذي يؤثّر في توجيه الميل إلىٰ القدرة وتنوُّع حبّ الاقتدار لدىٰ الإنسان، وترسم فروعا مختلفة لحبّ القدرة.

فكلُّ انسان يقوم بالبحث عن القدرة حسب معرفته بها، وعلىٰ أساس من ميله الفطري وطلبه الفطري للقدرة يقوم بالتمرين والرياضة لكي يصبح بطلا شهيراً في أحد أقسام الرياضة ككرة القدم، أو كرة الطائرة، أو المصارعة،... ويبادر شخص آخر لاجتياز مسيرة علمية تحقيقية ويمارس تجارب صعبة لكي يكون عَلماً في العلم، يكشف القوىٰ العظيمة الموجودة في الطبيعة ويقوم باختراع وسائل وادوات قوية في مختلف المجالات، أو يقوم برحلات فضائية نحو الكواكب ويصنع أقماراً صناعية وبها يراقب كلّ شيء، وأخيراً يسعى آخرون من خلال اكتساب القوة الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية وغيرها للهيمنة علىٰ المجتمعات كافة. وكلّ واحد من المذكورين يرىٰ القدرة الحقيقية في ما يبحث عنه نفسه. وهناك أشخاص لا يبالون بالقوىٰ المادية والجسمية والدنيوية بل يبحثون عن القوة الروحية فحسبُ، ويمارسون في سبيل هذا الهدف رياضات شاقّة، أي انّهم وقفوا على قدرة أُخرىٰ تتغلّب علىٰ القوىٰ المادية أيضاً، ومن خلالها يزاولون أعمالاً لا يمكن إنجازها بأيّة قدرة مادية. لقد أدرك هؤلاء بالمعرفة الحاصلة لديهم انّ القدرة الواقعية تكمن في قدرة النفس أو قدرة الروح أو قدرة الإرادة، ولذا فانّهم يستعدون للقيام برياضات شاقّة في سبيل اكتسابها.

وأخيراً فإنّ هناك أشخاصاً يرون قدرتهم شعاعاً من القدرة الإلٰهية وقد عرفوا

حقيقة الإنسان والكون بهذا النحو وهو أن كلّ شيء مسخر بيد القدرة الإلٰهية اللامحدودة، والإنسان لا يحظىٰ بالقدرة الحقيقية الاّ حينما تكون قدرته شعاعاً من القدرة الإلٰهية وتتجلّىٰ فيه القدرة الإلٰهية. مثل هذا الإنسان وبهذه المعرفة يسعى سعيا جادّاً لعبادة الله واقامة الصلاة وممارسة الصيام وأداء الفرائض الإلٰهية الأُخرىٰ لكي يقترب من الحضرة الإلٰهية وهي المَعين الأصيل للقدرة، لأنّه قد وجد القدرة الحقيقيه هناك. وعليه يمكن القول انّ سرّ ظهور التجلّيات المختلفة لحبّ الاقتدار لدىٰ الإنسان يكمن في الإشتداد الأكبر لطلب وفائدة أحد أقسام القدرة المذكورة لدىٰ كلّ فرد أو جماعة من البشر، ومن الطبيعي أن يكون لمعرفته الدقيقة بالقدرة التي يهواها دور مؤثّر في تحديد فائدة أكبر وظهور رغبة أشدّ فيها.

للعلم والمعرفة إذنْ تأثير جادٌّ في تنوّع حبّ الاقتدار لدىٰ الإنسان وقد أشرنا بوضوح إلىٰ نماذج من ذلك آنفاً، ويمكن القول إضافةً إليها: ان طلب الشخصية والإستقلال والميل إلىٰ العزّة أو الاحترام من فروع حبّ الاقتدار لدىٰ الإنسان. انّ عدم رغبة الإنسان في أن يكون طفيلياً وذليلاً يكمن في انّالعزة والاحترام والإستقلال من فروع القدرة التي يبتغيها الإنسان بالفطرة، وفي الواقع، حبّ الاقتدار لدىٰ الإنسان هو الذي يتجلّىٰ بهذه الصور والاشكال المختلفة. حتّىٰ انّ الرغبة في الحرية تنشأ من الميل إلىٰ القدرة. فالإنسان ميّال إلىٰ الحرية واتخاذ القرار بنفسه في مشكلاته وشؤون حياته، وإلىٰ أن يكون حاكما علىٰ مصيره، أمّا لو رأىٰ نفسه مغلوبة تحت ظل حكم وسلطة الآخرين وهم الذين يقرّرون له، فانّه سوف يتألم من هذه الحالة. انّ هذا مؤشر إلىٰ انّالحرية لدىٰ الإنسان نوع من القدرة التي يشعر بها في نفسه، وانّ سلب الحرية نوع من العجز الذي ينفر منه.

وحبّ الحرية يزدهر لدىٰ الشباب منذ البلوغ، وتزداد شدة وقوة يوماً بعد آخر،

وينمو لديه الميل تدريجيّاً في أن يتخذ القرار بنفسه، ويبدي ردود فعله حينما يأمره الآخرون لأنّه يحبّ قوته وقدرته بشدة، ويعتبر سلب الحرية لوناً من العجز في نفسه وقدرة للآخرين فينفر منه نفوراً.

٢ ـ البحث عن الحقيقة

تتجلّىٰ صورة حبّ الكمال الثانية لدى الإنسان في بحثه عن الحقيقة وحبّه للعلم والاطلاع، وكما ذُكر بشأن القدرة يمثّل العلم بُعداً آخر من أبعاد النفس وصورها،فإنّ الإنسان يحبّ هذا البُعد أعني العلم والاطلاع لأنّه يحبّ ذاته.

والبحث عن الحقيقة أمر ذاتي وذو جذور فطرية في الإنسان وينشأ ـ كما قلنا ـ من دافع أكثر أصالةً وعمقاً هو حبُّه للكمال.

ويمكن ملاحظة مؤشرات هذا الدافع وحيويته بوضوح في بعض الموارد، فإلىٰ جانب ما يشاهد كلّ واحد منّا بوضوح في قرارة نفسه، ويحس بشوقه لإدراك الحقائق والإحاطة بأسرار الوجود، يمكن ملاحظة آثار الغريزة، أعني دافع البحث عن الحقيقة، في الأسئلة الكثيرة والمتنوّعة التي تطرح نفسها أمام الاطفال منذ نعومة أظفارهم في كلّ المجالات والأشياء التي يشعرون بها بنحو مّا، ويطالبون الإجابة عنهامن والديهم أو رفاقهم بإلحاح.

انّ هذا الأمر يُفصح عن فطرية وذاتية البحث عن الحقيقة في النفس الإنسانية، ويعمل كقوة غامضة وظمأ روحي شديد يسلب سكونها منذ البداية، ويدفعها نحو السعي والبحث، حتّىٰ انّه يسلب راحة بعض الناس بنحو كامل في بعض الموارد، وهم الذين يقوىٰ لديهم هذا الدافع بنحو أكبر بحيث يشدّون الرحال لأسفار بعيدة المدىٰ وخطيرة بهدف إدراك الحقيقة، وقد يتعرضون إلىٰ خسائر وآلام في هذا

الطريق، ويتحمّلون ـ هـم وذووهـم ـ الحـرمان، أو يـقضون عـمراً فـي زوايـا المختبرات أو المطالعة والدراسة في علم خاصّ، أو إجـراء التـجارب والمـتابعة لظاهرة أو حياة موجود حيّ كالنمل والأرضة والنحل والفراشة و... ويضحّون في موارد بسلامتهم الجسمية والنفسية في هذا الطريق.

هذه نماذج للآثار الواضحة لدافع البحث عن الحـقيقة لدىٰ الإنسـان، و مـن الممكن العثور علىٰ المئات من هذه النماذج في تأريخ حياة رجال العلم والفكر، ومن خلالها يشعر الإنسان بتقديره المفعم بالاحترام لروّاد العلم هؤلاء.

ورغم ذلك يمكن القول: انّ ما ذُكر يمثّل أحد وجهَي العملة، وفيه لاحظنا ما بذله الكائن البشري ـ سيّما النخبة ـ في طريق البحث عن الحقيقة مـن ثـروات وذخائر، ومن خلال ذلك شاهدنا نشاط دافع البحث عن الحقيقة، وبـوسعنا فـي الوجه الآخر أن نلاحظ بنحو أوضح الآثار والنتائج الطـيبة لدافـع البـحث عـن الحقيقة، وهي آثار من قبيل الرشد والنضج والنمو العـلمي والتـخصص العـلمي الواسع والنضج الفقهي والفلسفي والعلمي الذي أصبح في متناول البشرية، وكـلّ هذه الآثار والنـتائج التـي عـمّت كـلّ مكـان، والاخـتراعـات والإكـتشافات والمنجزات الصناعية التي أصبحت في خدمة الفرد والمجتمع الإنساني وأعـانته علىٰ تيسير الأعمال والتعجيل بها، وساهمت إيجابيا فى تخفيف آلامه وجـهوده المضنية تمثّل نتائج مثمرة لتلك الجهود العلمية، وتمثّل في مستوىٰ أعمق نـتائج لروح حبّ العلم ودافع البحث عن الحقيقة لدىٰ الإنسان، وآثاراً وعلاماتٍ نفسية واقتصادية واجتماعية وثقافية لهـذا الدافـع الفـطري الذي هـو أحـد الفـرعين الرئيسيّين لحبّ الكمال لدىٰ الإنسان، وتشير إلىٰ انّ أحد الدوافع الأصـيلة فـي روح الإنسان هو حبّ اتّساع دائرة إطلاعه وتعميق وعيه.

وحول هذا الدافع يطرح هنا هذا السؤال أيضاً: كيف يظهر هذا الدافع الفطري (البحث عن الحقيقة) في الإنسان في صور مختلفة؟ فيدفع انساناً للتحقيق في الفلسفة والعلوم العقلية، وآخر في دراسة العلوم النقلية، وثالث للتحقيق والبحث في العلوم التجريبية، ولكلّ فرع من هذه الفروع الرئيسية للحقيقة شعب متعدّدة، وفي كلّ شعبة منها يقضي جمع من الناس أعمارهم أو قسطا من أعمارهم علىٰ الأقل.

نقول في الإجابة عن السؤال: انّ أصل البحث عن الحقيقة يمثّل دافعاً أساسيا ومتجذّراً، أمّا الاهتمام بالمصاديق وموارد الحقيقة المختلفة فيمكن القول انّ له عدة عوامل:

الأول: أن يدرك الإنسان ـ علىٰ الأقل ـ وجود حقيقة مجهولة في مجال خاصّ، ثمّ يدفعه حس البحث عن الحقيقة للكشف عنها ولا يكون جهله ـ حسب الاصطلاح ـ جهلاً مركبا، بل جهلا بسيطا ومعروفا لديه. ومن الطبيعي أن يكون لبعض العوامل القاهرة أو الاختيارية دور إيجابيّ في إطلاع الإنسان علىٰ جهله في مجالات مختلفة، ويرتبط ذلك بالمجال الذي ترد فيه عوامل الاطلاع هذه، وتُطلع الإنسان علىٰ جهله في ذلك المجال الخاصّ وتُوجّه حس البحث عن الحقيقة فيه نحوه، ومن البديهي في حالة وجود حقائق في أي مجال يجهلها الإنسان تماماً أي لا يعلم حتّىٰ بوجود حقيقة في مجال هو جاهل بها، فانّه لا يمكن أن يتقدّم خطوة باتجاه كشفها أبداً، وانّ حسّه الفطري في البحث عن الحقيقة سوف لا يدفعه للكشف عنها. لهذا العامل في ذاته دور ملفت في ظهور صور مختلفة للبحث عن الحقيقة. الاّ انّ هذه العلة ليست منحصرة، بل هناك عوامل أُخرىٰ لها تأثيرها في هذا التنويع أيضاً.

الثاني: لا يطلب الإنسان الحقيقة لذاتها دائماً، وقليلون هم الذين يتابعون اكتشاف الحقيقة بدافع من البحث عنها. انّ أكثر الأشخاص يطلبون الحقيقة لنيل

فوائد أُخرىٰ قد تترتّب عليها، وبعبارة أخرىٰ: انّ أكثر الأشخاص يبحثون عن الحقيقة التي شخّصوا انّ إدراكها ذو فوائد ولها تأثير بنحو مّا علىٰ حياتهم.

من الطبيعي انّ علّة مطلوبية الحقيقة ومرغوبيتها لا تنحصر في الرضا والسرور الحاصل من كشف الحقيقة، بل تتأكد بالدوافع الأخرىٰ، بمعنىٰ انّ رغبات أُخرىٰ غير حبّ الحقيقة تتركب معها وتُنشىء في الإنسان دافعاً قوياً للبحث عن حقيقة خاصّة.

أجل، انّ رغبات من قبيل حبّ الاقتدار واللذة والمنفعة وغيرها تجذب الإنسان نحو إدراك حقيقة خاصّة يعتقد بتأثيرها وفائدتها فيبعض هذه المجالات. فإذا عرف الإنسان انّ إدراك حقيقة ما، إضافةً إلىٰ كونه أمراً مطلوباً في ذاته، يمده باقتدار وقوة كبيرة ويُشبع شعوره بحبّ الاقتدار، يكون لمعرفته هذه دور إيجابيّ في انتخاب تلك الحقيقة الخاصّة للبحث عنها والاهتمام بها، ويعتقد أحياناً انّالتخصص في فرع علمي خاصّ يعود عليه بالفائدة او اللذة، وفي هذه الموارد يكون لحبّ الالتذاذ والمنفعة في الإنسان ـ إلىٰ جانب حس البحث عن الحقيقة ـ دور كبير في انتخاب الفروع التخصصية ،وبعبارة أُخرىٰ في تقيّد الحقيقة المطلقة المحبّبة لدىٰ الإنسان وفي توجيه الميل إلىٰ مطلق الحقيقة نحو حقايق خاصّة.

الثالث: كثيراً ما تحصل للانسان مجموعة من المعارف الأساسية، واستنادا إليها تنشأ لديه معايير للتقييم والترجيح وتعيين الأولويّات، فتحظىٰ بعض أنواع الحقيقة بأهمّية خاصّة لديه في إطار تلك المعايير وبما يتناسب مع المعرفة السابقة ويرىٰ الأولوية لمتابعتها.

انّ هذه المعارف وبتبعها المعايير تُوجّه روح البحث عن الحقيقة الفطريّة في

الإنسان نحو جهة خاصّة وتركّز نشاطاته في موارد وموضوعات معينة، كالمسلم الذي يتابع حقائق خاصّةً استناداً إلىٰ عـقيدته فـي التـوحيد ورؤيـته الكـونية الإسلامية، ويهتم بمعرفة تُقنع ما فيه من حس العبودية لله سُبحانه، إضـافةً إلىٰ البحث عن الحقيقة الفطرية، ويكون قادراً علىٰ الإستجابة لأفكاره وعقائده.

ومن الصحيح طبعاً أن يكون لغريزة العبودية جذور فـطرية ويـمكن ـ بـهذا اللحاظ ـ تصنيفه في الطبقة الثانية باعتبارها غريزة لها تأثيرها في إرشاد وتوجيه حبّ الحقيقة، لكن حيث إنّ للعقائد التفصيلية تأثيراً ظاهراً في إيقاظ وفعليّة حبّ العبادة وبالتالي في توجيه حبّ الحقيقة، لهذا نعتبر الاهـتمام بـالعقائد والرؤيـة الكونية كعامل ثالث إلىٰ جانب العاملين المذكورين.

وعليه يمكن القول باختصار: انّ عامل المعرفة في ذاته ذو تأثير فـي تـحقّق الحركة العلمية، أي انّ كلّ طالب يروم اكتساب العلم وينتخب فرعا تخصصيا من الدراسة العلمية فلابدّ من معرفته السابقة بشأنه، وذلك بأن يعلم أولاً بوجود هذا الفرع وهو فاقد للمعرفة بمضمونه العميق، ويشخّص ثانياً بأنّ هذا الفرع أكبر فائدة وضرورة وقيمة له.

ومن جهة أُخرىٰ انّ تقييم الحقائق والفروع العلمية المـختلفة وإنْ كـان قـيّما ومطلوبا في ذاته بلحاظ حس البحث عن مطلق الحقيقة، ولكنّه بلحاظ البحث عن هذه القيمة الاضافية وهي كون مجموعة من الحقائق أكبر فائدة وضرورة بهدف متابعتها وتحصيلها، يكسب مرغوبية بالغير طبعاً، ويتوقف ذلك علىٰ معرفة سائر أهداف الحياة، وبالتالي الهدف النهائي للحياة علىٰ أسـاس تشـخيص الإنسـان نفسه. فمن البديهي انّ أهداف الحياة لدىٰ الإنسان وبالتالي هدفها النهائي تترتّب علىٰ أفكاره وعقائده ورؤيته الكـونية ومـعرفته للـعالَم وللانسـان. أي إذا كـان

لشخص رؤية مادية عن الكون والإنسان فانّه يرىٰ الحقائق والعلوم المفيدة هي المؤثّرة إيجابياً في نيل الاقتدار المادي الاجتماعي مثلاً أو تمتّعه والتذاذه، بخلاف ما إذا كانت رؤيته إلٰهية وكان مؤمنا بالقيامة وعالم الآخرة فانّه يتابع أهدافاً أخرىٰ، ويرىٰ أنّ معارف أُخرىٰ هي الأكبر فائدة وضرورة. ونستنتج بصورة عامّة انّالمعرفة السابقة تحدّد مسيرتنا العلمية وبحثنا عن الحقيقة وتدفعنا لتحصيل الاختصاصات.

انّ غريزة البحث عن الحقيقة ـ وحس حبّ الاطلاع حسب تعبير بعض النفسانيين ـ أمر ذاتي في الإنسان، الاّ انّ توجيهها وانتخاب طريقها وترجيح علم من بين علوم و حقيقة من بين حقائق يستند إلىٰ معرفة سابقة، فبعضٌ يفضّلون العلوم المادية، وبعضٌ العلومَ العقلية، وبعضٌ آخر العلومَ الشهودية والعرفانية، وبعضٌ آخَرُ العلوم التجريبية، وأخيراً يعشق بعض علوما يفيضها الله سُبحانه علىٰ الإنسان إثر جهاده للنفس وممارسته للرياضات والعبادات ويجعل قلبه منبعاً للحكمة والمعرفة.

ج ـ حبّ الالتذاذ والسعادة

الغريزة الأساسية الثالثة في الإنسان هي غريزة اللذة والرفاه والسعادة بحيث يمكن القول انّ دائرتها واسعة ولها فروع وشعب متنوّعة جدّاً، ويمكن تقسيمها بصورة عامّة إلىٰ ثلاثة أقسام متمايزة: القسم الأول منها يرتبط بالجسم الإنساني. القسم الثاني يتوسط بين الروح والجسم وبعبارة أُخرىٰ يرتبط بالعلاقة بين الروح والجسم، والقسم الثالث يختص بالروح الإنسانية.

نشير هنا إلىٰ صور وتجلّيات متنوّعة لهذه الغريزة علىٰ التوالي:

أ ـ الغرائز

مقصودنا من الغرائز هنا هي الرغبات الخاصّة التي تتعلّق بـالجسم، وهـدفها تلبية المتطلّبات المادية والجسمية للانسان. حسب هذا الاصطلاح تكون الغرائز قسما من الرغبات الإنسانية في مقابل الاقسام الأُخرىٰ من الرغبات التي يتمتع كلّ منها بمزايا، يعرف قسم بعنوان العواطف، والقسم الآخر بالفطريات أو الرغبات المتعالية.

هذا الاصطلاح طبعاً سيختلف عما استعملنا فيه لفظ الغريزة لحدّ الآن وهـو المفهوم الشامل للغريزة أي مطلق الرغبة، والاخـتلاف بـينهما كـمّي، بـمعنىٰ انّ الغريزة في هذا الاصطلاح تطلق علىٰ قسم من الغريزة بمفهومها العامّ.

وسيختلف أيضاً عن الاصطلاح الآخر للغريزة في علم النفس الناشيء عـلىٰ أساس رؤية خاصّة لمنشأ السلوك الإنساني. فـعلىٰ مـدىٰ تأريـخ عـلم النـفس طرحت نظريات مختلفة حول منشأ السلوك الإنساني، وقدّمت كلّ نظرية تفسيرها بلون خاصّ تعرف باسم: ١ ـ التفسير العقلاني. ٢ ـ التفسير الآلي. ٣ ـ الغرائز. ٤ ـ المتطلّبات والسوائق في علم النفس.

في اصطلاح النفسانيين هذا تقوم (الغرائز) بـتفسير السـلوك الإنسـاني كـلّه، والمقصود منها هو القوىٰ الحيوية الفطرية التي تُعدّ الموجود الحي سلفاً للعمل بنحو خاصّ في ظروف مناسبة. ولا يحصل تبيان بـالتفسير الغـريزي للسـلوك عـدا الإشارة إلىٰ كونه أمراً موروثا. وحيال نظرية الغرائز طرحت نظرية (المتطلّبات) و(السوائق). فالسائق هو حالة الانبعاث التي تنشأ إثر حـاجة حـيوية، وتـدفع الموجود الحي للتفكير بتلبية متطلّباته[١].

(١) مقتبس من كتاب «أرضية علم النفس» وقد ترجمه إلىٰ اللغة الفارسية مجموعة من

علىٰ أيّ حال، فانّ الغريزة حسب هذا الاصطلاح تمثّل أولاً إشارة إلىٰ تفسير خاصّ لمنشأ السلوك الإنساني وتبيينه علىٰ كيفية خاصّة، ونحن لا نلتفت إلىٰ هذا التفسير الخاصّ وتلك الكيفية عند استعمال لفظ الغريزة هنا، وثانياً تقوم الغريزة بهذا الاصطلاح بتفسير وتبيان السلوك الإنساني برمّته، وهو يشمل جميع الرغبات النفسية والإنسانية، في حين انّ مقصودنا من الغريزة هنا ينحصر في القسم المادي والجسمي لغرائز الإنسان في مقابل الاقسام الأخرىٰ. وأهمُّ الغرائز في الإنسان التي ترتبط بالجسم هما غريزتا الأكل والجنس، ولكلّ غريزة منهما أعضاؤها وجهازها الخاصّ في الجسم وتتفرعان إلىٰ شعب متنوّعة كالشهوات والميول المتنوّعة تجاه المذوقات المتنوّعة وطعم الحلاوة والملوحة والحموضة وغيرها وطعم المأكولات المحبّبة التي تدرك ولا توصف ولا يمكن إطلاق اسم خاصّ من المذوقات عليها. وقد تكون مركبة من طعوم معروفة باسمائها أو حبّ الروائح وألوان الأغذية المحبّبة.

وهكذا غريزة العطش وغريزة الدفاع عن النفس تجاه المهاجمين، وسائر الغرائز التي تشكّل إلىٰ جانب الغريزتين المذكورتين مجموعة الغرائز والميول الخاصّة المرتبطة بالجسم وتلبّي المتطلّبات المادية والجسمية للانسان.

ب ـ حبّ الجمال

ان حبّ الجمال من فروع وشعب حبّ الالتذاذ وهو بدوره يتفرع إلىٰ شعب مختلفة:

الأول: هو الجمال الطبيعي للجمادات حيث يلتذ الإنسان لدىٰ مشاهدة الجبال والبحار والعيون والسماء والنجوم والقمر والشمس.

المترجمين الايرانيين، ص ٢٥.

الثاني: جمال النباتات حيث يشعر الإنسان بالابتهاج والإرتياح حينما ينظر إلىٰ منظر جميل للحدائق والبساتين الخضراء العامرة بالفواكه المتنوّعة والغابات النضرة والأشجار الرائقة.

الثالث: هو جمال الحيوانات وبني الإنسان، وتبدو آثاره العميقة في الإنسان والمجتمعات البشرية في صور مختلفة ويعمل في بعض الموارد علىٰ التغيير الشامل لمصير الإنسان وطريقة حياته ويعبّىء أحياناً القوىٰ الإنسانية كافة نحو جهة خاصّة نافعة أو ضارة.

وكلُّ ما ذكرناه يُعدّ من الجمال المحسوس أعني الأمور الواقعية التي يرتبط بها الإنسان عبر إدراكه الحسي بعينه ويتحقّق لديه إدراك التذاذي متلائم مع الطبع. لكنْ لا ينحصر الجمال في الجمال الحسي هذا، بل له تجلّيات خيالية أيضاً يرتبط بها الشعر أو سائر طبقات أهل الذوق والفن. فالشعراء والفنانون والرسامون والمصوّرون والنّحاتون و... ترتبط أعمالهم بادراك وابتكار وإبداع الجمال الخيالي ويسعَون ـ حسب ما تسمح به قدرتهم الفنية ـ للإعلان عنه ونقله للآخرين عبر الألفاظ والمعاني والنقوش والتصاوير ونحوها. كما يوجد جمال عقلي تدركه القوة العقلية من خلال انتظام الموجودات وكمالها، وهناك جمال عرفاني ووجودي مبنيّ علىٰ هذه الرؤية وهي انّ الوجود بأسره جميل ويحظىٰ الموجود الأكمل ذوالحظ الوجودي الأكبر بجمال أكبر، ويدرك الإنسان من خلاله بالتذاذ أشدّ، وينتهي الأمر إلىٰ الجمال الأكمل الذي يسند إلىٰ الذات الإلٰهية. والذين لهم مشاهدات توحيدية يختصّ أحد أبواب مشاهداتهم بالأسماء والصفات الجمالية لله سُبحانه.

ج ـ العواطف

يعرف القسم الآخر من الرغبات وحبّ الالتذاذ والسعادة في الإنسان باسم العواطف، وهي المشاعر التي تنشأ في النفس الإنسانية تجاه موجود حي وذي شعور، وتدفعه للوقوف إلىٰ جانبه أو مواساته علىٰ الأقل والشعور بالشفقة عليه والاتحاد معه.

النموذج البسيط للعواطف هو أنس الإنسان مع اصدقائه وأرحامه، بل قد يشعر بحاجة إلىٰ الأُنس مع انسان غريب تماماً كالضالّ في الصحراء ولم يرَ انساناً لفترة ثمّ يرىٰ انساناً فانّه يبتهج برؤيته ويلتذ بالأُنس معه رغم افتراقه عنه في القومية والمذهب وكلّ شيء لكونه انساناً لا أكثر.

انّ شعور الأم تجاه ولدها والذي يدفعها لرعايته وإرضاعه وتعليمه، وشعور الأب الذي يدفعه لبذل جهوده ومساعيه من أجل تنظيم شؤون ابنائه بكدّه وتوفير لوازم الحياة لهم، وشعور الزوج تجاه زوجته والذي يستمر حتّىٰ نهاية العمر ـ حتّىٰ بعد أفول الرغبات والشهوة الجنسية وزوال نضارة الشباب ـ وتعاطف الإنسان مع المرضىٰ والفقراء والضعفاء فيندفع لاعانتهم ومواساتهم وإبداء الشفقة والمحبّة معهم ونظائرها هي شُعب مختلفة للعواطف، أو السوائق التي تدفع الإنسان لخدمة الآخرين، ويشعر الإنسان باللذة من خلال ذلك.

د ـ الأحاسيس والانفعالات

تشكّل الأحاسيس والانفعالات أظهر وأبرز مراتب النفس، أي إذا اعتبرنا أعمق نقطة للروح والنفس الإنسانية كرمز لوحدة النفس وبساطتها وارتقينا من

نقطة الوحدة تلك نحو الكثرة، ومن أعماق النفس المعقدة نحو ظواهرها السطحية فانّنا سوف نمر بمراتب مختلفة للنفس، وسنصل أخيراً إلىٰ مرتبة الأحاسيس والانفعالات السطحية والظاهرة.

إذا أحبّ الإنسان شيئاً ثمّ سعى للوصول إليه ولكنّه لم يبلغ مراده فانّه سيشعر بحالة انفعالية في سطح نفسه يطلق عليها (الحزن والهم)، وفي المقابل إذا بلغ مراده فانّه سيشعر بشعور آخر وحالة أُخرىٰ اسمها (الفرح والسرور) ولكنّه إذا لم يكن له مراد أصلاً ليسعى للوصول إليه في هذه الحالة فإنّ نفس هذا الإنسان وروحه يفقدان حالتي الغمّ والفرح.

وهكذا إذا أحس شخص بخطر يهدّد رغباته، أو انتبه إلىٰ احتمال مفارقة محبوبه ومراده وفقدان ما ناله بكدّه وأتعابه فانّه سيشعر بحالة انفعالية أُخرىٰ اسمها (الخوف)، وفي المقابل إذا لم يهدّده الخطر أو لم يواجه ما يهدّد أو يكون خطراً علىٰ مسيرة حياته فانّه يشعر بـ(الأمان).

كما انّ من يعتقد انّ جهوده ذات تأثير في الوصول إلىٰ هدفه ومراده فإنّ نفسه ستشعر بحالة (الرجاء) أو التعلّق بالعمل، وإذا اعتقد انّها غير ذات جدوىٰ وفائدة فانّه سيشعر بحالة (اليأس) أو اللامبالاة بالعمل.

يطلق علىٰ الحالات المذكورة الأحاسيس والانفعالات، وتمثّل أعلىٰ السطوح في مراتب النفس حيث تتأثّر بسائر شؤون النفس ورغباتها.

هذه شاكلة النفس حسب ما تصورنا من أجل ان تكون لدينا أُطروحة لدراسة مسائل النفس وتتّضح نقطة البداية في دراسة هذه المسائل التي نواصلها علىٰ التوالي، حتّىٰ تنتهي إلىٰ نقطة النهاية.

ملاحظات تكميلية

بعد توضيح الأُطروحة المذكورة وطريقة الدخول والخروج من هذا البـحث، لابدّ من توضيح عدة ملاحظات تكميلية ترتبط بها:

١ ـ ترابط الدوافع وتمازجها

انّ القنوات والدوافع المختلفة التي تصوّرناها للنفس لا تبقى منفصلة ومعزولة عن بعضها كما ذكرنا، وليست كأغصان الشجرة ليتّجه كلّ منها نحو اتجاه وتنمو فيه بعد افتراقها في نقطة معينة ولا ترتبط فيما بينها أبداً، بأن يواصـل غـصن العـلم والوعي طريقه مثلاً منفصلا عن غصن القدرة، والثاني منفصلا عن غصن اللذة.

فإنّ من خصائص النفس أن تشتبك قنواتها المختلفة وتمتزج وتترابـط فـيما بينها. فقد تدفع عدة دوافع مختلفة الإنسانَ للمباشرة بـعمل مـعيّن وحبّ شـيء خاصّ.

فمثلاً تكون الغريزة الجنسية من دوافع الإنسان، ولكنّها تتقارن غالباً مع حبّه للجمال، وبالتعاضد بينهما يحرّك ان الإنسان في طريق خاصّ، فمن ينتخب زوجة لا يتلخص هدفه في إشباع الغريزة الجنسية، إذ إنّ ذلك ممكن بدون إدراك لجمال الزوجة كإشباع الغريزة الجـنسية لدىٰ الضـرير الذي يـعجز عـن إدراك جـمال زوجته، يشتاق بمثل تلك الدرجة ذاتها أو بدرجة أعلىٰ إلىٰ التمتّع بجمالها. علىٰ أيّ حال، فإنّ هذين الدافعين معاً يدفعان الإنسان لانتخاب الزوجة.

وهكذا البحث عن الحقيقة حيث قلنا انّه إحدىٰ الرغبات الأصـيلة والدوافـع الأساسية في الإنسان التي تدفعه نحو البحث والسعي. ولكنْ في أغلب الموارد ـ

خاصّةً الموارد التي يكون العلم فيها آلة لنيل الاقتدار أو جمع المال والثروة أو يكون عاملاً لالتذاذ الإنسان أو الظفر بالاحترام والشخصية والعزة والمكانة ـ يتقارن مع دوافع وميول أخرىٰ، وحينئذ تدفع الإنسان بقوة أكبر لبذل جهوده. ومن هنا فإنّ حبّ الحقيقة وإنْ أوجد درجة متساوية من الانجذاب نحو العلوم كافة ولكنّ الإنسان يتابع العلوم الخاصّة التي تقدّم له بعض الامتيازات والقيم المذكورة. أي انّالرغبات الأُخرىٰ بتقارنها مع الميل للبحث عن الحقيقة تكون ذات دور كبير في توجيه فاعليته.

والحاصل انّ دوافع الإنسان المتنوّعة والمعقدة التي تقوم باثارة العشق والنفور تجاه متعلّقاتها يكون لها دور مؤثّر في فعالية أو ترك وتعزيز وتضعيف بعضها تجاه البعض الآخر، وهذا الترابط يزيد الإنسان قدرةً علىٰ إنجاز الأعمال المتعلّقة لعدة دوافع، وتضعّفها عند التعارض بينها الاّ أن يقوم الإنسان برفع هذا التعارض بفضل العلم والمعرفة بنحو معقول ونافع للانسان بصورة عامّة، ويكون سبباً لانتخاب الدافع الذي يدفع الإنسان نحو عمل أكبرَ فائدةً وذي آثار ونتائج أفضل وأطول بقاءاً، ويزيد قدرته علىٰ إنجاز ذلك مرة أُخرىٰ وذلك برفع هذا التعارض.

وفي ضوء هذا البيان ندرك جيّداً الترابط الوثيق بين أبعاد الإنسان المتنوّعة ودوافعه المختلفة والتأثير المتبادل بينها.

٢ ـ تأثير الدوافع علىٰ القيم الأخلاقية

للدوافع الموجودة في النفس الإنسانية الدور الكبير في إضفاء القيمة علىٰ الأفعال المنجزة بفعل تلك الدوافع، سواء أكانت القيمة إيجابية أو سلبيّة، وهذه من

خصائص السلوك الإنساني التي ينبغي الالتفات إليها سيّما في الأخلاق. من هنا فإنّ الاختلاف في قيمة الأفعال والسلوك الإنساني يستند ـ إلىٰ حدّ كبير ـ إلىٰ الاختلاف في الدوافع في إنجازها، فعند التقييم الأخلاقي لفعل مّا لابدّ من معرفة دافعه الأساسي ومنشئه وجذوره في نفس الإنسان.

ويكون دور الدافع أكبر وأوضح في إضفاء القيمة الأخلاقية للأفعال العبادية، فانّها سوف تفقد قيمتها وتأثيرها الأخلاقي فيما لو أُنجزت بدافع نيل المكانة والمحبّة والاحترام بين الناس. فمن يمارس العبادة لله سُبحانه رئاء في مجتمع يسوده الجوُّ العبادي لا يكون عمله عبادة وعبودية لله واقعا، بل هي عمل له صورة العبادة لله، ولا توجب تقرب الإنسان إلىٰ الله، ليس هذا فحسبُ بل توجب ابتعاده منه ومن رحمته.

انّالعبادة والعبودية لله التي تقرب الإنسان إلىٰ الله هي ذلك العمل الخالص تماماً فقط، أي ينجز ـ حسب الاصطلاح ـ بقصد القربة، وسيترتّب أثره المتوقَّع في هذه الحالة فقط ويكون ذا قيمة أخلاقية.

أمّا من يؤدي العبادة بدافع التمتع بمعيشة رغيدة ونيل احترام الناس وحبّهم والظهور بمظهر المقدسين والمتقين ويتوقع تقبيل يديه فإنّه قد اتخذ العبادة وسيلة للوصول إلىٰ رغباته، ويكون عمله لوناً من عبادة الذات بدلاً عن عبادة الله، ولن تترتّب عليه آثار العبادة أبداً ولا يحظىٰ بقيمة أخلاقية إيجابية.

من هذا البيان نستنتج انّالبحث عن أساس الدوافع يحظىٰ بأهمّية بالغة في تقييم الأفعال الأخلاقية وقد تأكدت هذه العلاقة بشدة في الروايات والآيات أيضاً، حتّىٰ عُرّفت الأعمال كثمار للنيات، والنيات كأُسس وجذور للأعمال،

ونظراً لما قدّمناه من بحث في هذا المجال سابقاً فانّا سنكتفي هنا بهذه الإشارة ونُرجع القارىء إلىٰ بحوثنا السابقة حول النية.

ومن الضروري طبعاً ـ تكميلا للبحث حول الترابط بين الدافع والقيمة الأخلاقية ـ أن نشير هنا إلىٰ ملاحظة أُخرىٰ وهي انّ مجرّد وجود هذه الرغبات والدوافع الكامنة في ذات النفس الإنسانية لا يمكن اعتباره ملاكاً ومعياراً وموضوعا للقيمة الأخلاقية، ولا يمكن ذمّ أحد لامتلاكه الغريزة الجنسية أو دافع القدرة وحبّ الاقتدار في نفسه و... كما لا يمكن إبداء الثناء لأحد علىٰ ما له من رغبات ودوافع. انّالدوافع والرغبات الموجودة في النفس الإنسانية من الأمور الفطرية والعطاء الإلٰهي، وبما انّنا أوضحنا سابقاً انّ متعلّق القيمة الأخلاقية هو فعل الإنسان الاختياري فإنّ هذه الدوافع الفطرية المودعة في ذات الإنسان قهراً وتكوينا وهي خارجة عن اختياره لا يمكن أن تكون متعلّقاً للقيمة الأخلاقية الإيجابيّة أو السلبيّة.

وسوف تطرح القيمة الأخلاقية الإيجابية أو السلبيّة طبعاً في مرحلة ترتيب الآثار علىٰ هذه الرغبات والدوافع وعند توجيهها وإرشادها ورعاية درجتها وتعديلها، أو عند الإفراط والتفريط في اشباعها، لانّ هذه أمور اختيارية وترتبط بمرحلة ظهور هذه الدوافع والميول في تحرّك الإنسان وسعيه وأعماله.

وعلىٰ هذا فإنّ هذه الدوافع والرغبات فاقدة للقيمة الأخلاقية، وإنْ كانت نافعة في وصول الإنسان إلىٰ كماله اللائق به، وحسنة وخيراً حسب النظر الفلسفي حيث انّ كلّ شيء خير في هذا المنظار وقد قال تعالىٰ: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾ وأمّا فقدها للقيمة الأخلاقية فلانّها فطرية وخارجة عن حدود الاختيار. وهذا

الحكم صادق في جميع الموارد الشاملة للغرائز وحبّ الجمال والعواطف والمشاعر والانفعالات، لانّ وجودها في النفس الإنسانية أمر قهري تكويني وليس لاختيار الإنسان أيّ دور فيها كي تشملها القيمة الأخلاقية الإيجابية أو السلبيّة المقصورة علىٰ الأفعال الاختيارية للانسان، وعليه لا تكون موضوعا للثناء والذمّ، ولا يمكن القول أنها حسنة أو سيئة من الوجهة الأخلاقية.

أجل، بما انّ الإنسان قادر علىٰ تقويتها أو تضعيفها وتوجيهها، والعمل وفق مقتضاها أو ترك العمل، والتخفيف من الإفراط والتفريط والقيام بتعديلها ـ وإنْ لم تمتلك القدرة علىٰ ايجاد او إفناء أصل وجودها الفطري في النفس ـ فانّها تدخل في حدود اختياره بلحاظ ما هو مقدور له، وتدخل بالتالىٰ في حدود الأخلاق والقيم الأخلاقية ويغدو الشخص مورداً للثناء والذمّ، وإذا كان هناك أمر أو نهي فانّه سيكون طبعاً في نطاق اختيار الإنسان هذا.

٣ ـ تزاحم الدوافع

انّ رغبات الإنسان المختلفة لا تحصل له دفعة واحدة، ونظراً للتحديد الخاصّ الذي هو من خصائص الحياة المادية فإنّ الإنسان يضطر لانتخاب بعض الأمور المحدودة هذه والتي لا يمكن الجمع بينها.

يطرح هنا هذا السؤال: علىٰ أيّ أساس ينتخب الإنسان إحدىٰ الرغبات المختلفة والمتعارضة؟ في الإجابة يمكن القول: قد ينتخب الإنسان بصورة طبيعية شيئاً من بين أشياء مختلفة محبّبة لديه وذلك لقوة دافعه الفعّال، ومن الطبيعي عندما تتزاحم عدة دوافع وعوامل محرّكة فانّ الدافع الأقوىٰ سيكون هو المؤثّر، تماماً مثل القوىٰ الطبيعية أو الفيزيائية المتعارضة. فمثلاً إذا وجّهت قوة إلىٰ جسم

من جهة اليمين لتحريكه نحو الشمال، ووجّهت قوة أُخرىٰ علىٰ الجسم ذاته من جهة الشمال لتحريكه نحو اليمين، فإذا كانت القوتان متساويتين فإنّ كلّ قوة تبطل بفعل القوة الأخرىٰ، والنتيجة هي بقاء الجسم في مكانه وعدم تحرّكه إلىٰ أية جهة، ولكنْ إذا كانت إحدىٰ القوتين أقوىٰ من الأُخرىٰ فانّ القوة المعارضة ستزيح القوة المعارضة لها في هذا النزاع، وتؤثّر علىٰ الجسم المذكور وتحرّكه نحو الجهة المقابلة.

نظير هذا النزاع يوجد في أفعال الإنسان التي هي آثار للرغبات والدوافع الروحية والنفسية للانسان، فعندما تتقابل الرغبات المختلفة والمتزاحمة سيكون الدافع الأقوىٰ من غيره هو المؤثّر. فالإنسان يقف في شؤون الحياة دائما علىٰ مفترق طريقين أو أكثر ويضطر لانتخاب طريق للتحرّك والسعي. هذا الانتخاب كما قلنا آنفا يتمّ أحياناً بسبب عامل طبيعي ويتقدم الدافع الأقوىٰ تلقائياً ليؤثّر. الاّ انّ عامل انتخاب الإنسان لا يتلخص في القوة الطبيعية، بل هناك عامل أكثر انسانية يفتح للانسان طريق الانتخاب بين الدوافع المتعارضة ويكون عاملاً لتحرّكه وسعيه، وهو عامل المعرفة وتقييم الدوافع وتشخيص الأكبر قيمة والأفضل والأدوم من بينها. هذه المعرفة والتقييم يمنحان الإنسان القدرة علىٰ انتخاب الفعل الأفضل والأنفع، وفي هذا المجال يأتي دور القيم الأخلاقية.

ينبغي الالتفات إلىٰ هذه الملاحظة لدىٰ تبيان عامل المعرفة لانتخاب الحدود والكمية والكيفية للدوافع ورعاية الاعتدال، وهي انّ مسيرة الإنسان لابدّ أن تكون نحو هدف معين وقيّم، ولا محالة يقتضي ذلك رعاية الحدود والكمية والكيفية الخاصّة في إشباع الدوافع بنحو يقرّبه إلىٰ ذلك الهدف القيّم.

وهنا يأتي أولاً دور المعرفة، فمن الضروري أن نعرف الهدف القيّم ومقتضياته، ونشخص الحدود والجهات النافعة والمطلوبة لكي نتمكن من الانتخاب الواعي.

وسيأتي ثانياً دور القيم الأخلاقية لانّ رعاية هذه الحدود والمقادير من حيث الكمية أو الصفات والخصوصيات من حيث الكيفية يكون تحت تصرّفنا، وبرعايتها سيكون للعمل قيمة إيجابية وبعدم رعايتها سيفقد قيمته أو يصير ذا قيمة سلبيّة. وعليه يمكن القول انّ هناك نوعا من التزاحم والتعارض بين الهدف النهائي القيّم وبين الدوافع والغايات الأدنى، وإرادة الوصول إلىٰ ذلك الهدف النهائي القيّم هو الذي يعيّن كميّة وكيفية وجهة إشباع سائر الرغبات والميول.

٤ ـ الدوافع الخفية

انّ معرفة الدوافع والعوامل النفسية وتأثيراتها علىٰ مساعي الإنسان وجهوده بحاجة إلىٰ دقة بالغة. فقد يقوم الإنسان بعمل ما ظاناً بتأثير دافع خاصّ في ذلك في حين لو أمعن قليلا لوجد في بعض الموارد انّ دافعاً آخر هو الذي دفعه للقيام بذلك العمل. تفسير هذه الاثنينية ـ بين ما نعرفه كدافع للعمل المذكور وبين الدافع الواقعي ذي التأثير الأساسي ـ هو وقوع تفاعلات خفية في مراتب أعمق في النفس الإنسانية وقليلاً ما يُلتفت إليه ويُعلم به، فهناك أفعال وانفعالات وعوامل ودوافع خفية لا نلتفت إليها تدفعنا نحو العمل بنحو يوقعنا في الخطأ بحيث نفسر دافع عملنا تفسيراً خاطئاً. انّ أعلام علم الأخلاق والتربية ينبئون في بعض الموارد عن حيل النفس ويحذّرون الإنسان، وهذه الحيل ليست سوىٰ هذه التفاعلات الخفية التي تحدث في أعماق النفس وهي خافية عن وعي الإنسان.

الإجابة عن سؤالين

الآن وبعد تقديم أُطروحتنا المقترحة مع ملاحظاتها التكميلية حول النفس الإنسانية قد تثار عدة أسئلة، ونحن نبادر هنا إلىٰ طرح سؤالين منها ثمّ نجيب عليهما:

١ ـ انّ حبّ الله لم يُحدّد موضعه في هذه الأُطروحة، فما طرحناه هنا هو حبّ الذات وجعلناه نقطة البداية، ثمّ حبّ البقاء والكمال والعلم والقدرة واللذة كأغصان وفروع له، فالسؤال هو: لماذا لم يُحدّد موضع حبّ الله في هذه الأُطروحة رغم كونه أمراً فطريا جُبلت عليه ذات الإنسان وهو مستقرّ في أعماق النفس الإنسانية حسب الآيات والروايات؟ وفي أيّ موضع من الأُطروحة يصلح طرحه؟

يمكن القول في الإجابة عن هذا السؤال: لحبّ الله صور مختلفة في قلوب بني الإنسان، ومن الممكن البحث بشأنه في ثلاث صور: الأُولىٰ أن يعمل كقوة محرّكة غير واعية ويكون موضعه في عمق الفطرة الإنسانية وباطن النفس وإنْ كان الإنسان غافلاً عنه وغير ملتفت إليه. الثانية: الحبّ الواعي الذي يحصل للأشخاص المتعارفين ويحظىٰ به عموم المؤمنين. الثالثة: المرتبة الكاملة لحبّ الله وتحصل لأولياء الله الذين تكاملت رتبة معرفتهم بالله وقد بلغوا مقام التوحيد حسب الاصطلاح العرفاني.

انّ حبّ الله في الصورة الأُولىٰ كما أشير إليها يشبه المعرفة الفطرية بالله فهي حقيقة ينجذب إليها الإنسان ويرتّب آثاراً عليها، ولكنّه يفقد معرفة واضحة عن وجودها في ضميره.

لقد قلنا سابقاً إنّ الإنسان ـ حسب الآيات والروايات سيّما آية الميثاق ـ ذو

معرفة فطرية وغير واعية بالله سُبحانه، وهناك إدراك شهودي ضعيف بالربوبية الإلٰهية في المرتبة الباطنية والخافية للنفس الإنسانية ونقول هنا: انّ حبّ الله كعامل غير واعٍ وإنْ كان له وجود في النفس ولكنْ في خفائه له حكم المعرفة الفطرية المذكورة، والإنسان في ذاته لا يمتلك معرفة كاملة عن وجوده، ولهذه الخصوصية لم يفسح له المجال في هذه الأُطروحة حيث انّها وضعت للخصوصيات النفسية ومراتب النفس الظاهرة وذات الحيثية الواعية التي يطّلع عليها بوضوح كلّ من يراجع نفسه.

ما قدّمناه هنا يدور حول النفس في إطار (علم النفس) في حين انّ ما ذكرناه آنفاً من الحبّ أو معرفة النفس الفطرية بالله كان ملاحظة عرفانية أسمىٰ من نطاق (علم النفس) المتعارف، ويمكن القول: انّ هذا الحبّ والمعرفة أو الحبّ الإلٰهي ومعرفة الله الفطرية هو الذي يجذبه نحو مقصد نهائي متعالٍ، ويسوقه إلىٰ جوار الرحمة الإلٰهية وإنْ كان غافلا عن هذا العامل الروحي والنفسي القوي ولا يدرك كنهه وإلىٰ أيّ مقصد يحرّكه؟وبعبارة أخرىٰ: انّ ما يعلمه ويلتفت إليه الإنسان هو (حبّ الذات) ويستقر هذا الحبّ الفطري في أعماقه. انّ حبّ الذات ظاهرة نفسانية وروحية تستبطن الحبّ الإلٰهي حيث يمارس دوره عبر حبّ الذات بنحو خفيّ وغير واعٍ ويسوقه نحو المقاصد السامية.

انّ الحبّ الإلٰهي بالمعنىٰ الثاني الذي ـ كما ذكرنا ـ يحظىٰ به جميع المؤمنين تقريبا بما يتناسب مع مراتب معرفتهم هو ذلك الحبّ لله تعالىٰ بسبب النِعم التي أنعمها عليهم وأوصلهم إلىٰ مرادهم، أو بسبب ما دفعه عنهم من نِقم وأخطار. وعليه فإنّ حبّاً كهذا يتعلّق أساساً بنِعم الله وبنظرة أدق برغباتهم ويُسند إلىٰ الله تعالىٰ بالواسطة. انّنا نحبّ استمرار حياتنا وطول أعمارنا فنحبّ الله سُبحانه لأنّه الواهب

للحياة والقادر علىٰ استمرارها. نحبّ كمالنا فنحبّ الله تعالىٰ لأنّه المفيض لهذا الكمال أو الموفّر لوسيلة التكامل، وكذا فنحن نحبّ التذاذنا واستمتاعنا بالأصالة، ولكنْ حينما نتدبر ونلتفت إلىٰ انّ الله هو الذي سخّر لنا نِعماً مختلفة لا تحصىٰ ووفّر لنا أسباب الإستمتاع والالتذاذ من كلّ باب فانّنا سوف نحبّه.

ويصدق ما ذُكر علىٰ النِعم واللذائذ الأُخروية، أي انّ الكثير من المؤمنين يهمّهم التمتع بنِعم الجنة والحور والغلمان والقصور، ولكنْ بما انّهم يرون أن جميع هذه النِعم من الله سُبحانه فانّهم يحبّونه أيضاً.

انّ الأشخاص المتعارفين لهم دافع أخروي للقيام بالأعمال الأخلاقية والعبادية القيمية، فما يؤدونه من أعمال الخير وما يبذلونه من جهود لنيل الفضائل وطرد الرذائل الأخلاقية هو من أجل نيل السعادة في الآخرة، والتمتع بنِعم الجنة والابتعاد عن عذاب الله. إذنْ الدافع الأساسي والمحبوب الأول لديهم هو كسب هذه النِعم ودفع النقم المذكورة، وفي المرحلة الثانية يتوجّهون إلىٰ الله سُبحانه ويحبّونه لانّ هذا الثواب والعقاب يتمّان علىٰ يديه، فمحبّتهم لله تعالىٰ ثانوية وليست أولية ذاتية.

من البديهي انّنا في هذه الأُطروحة قمنا بتبويب وتنظيم الأمور الذاتية والنفسية وتصنيف جذور الأفعال والسلوك الإنساني المتأصّل في ذات النفس الإنسانية، وعليه فانّ الحبّ الإلٰهي بمعناه الثاني لا يحتل مكانا رئيسيا ومستقلا في هذه الأُطروحة.

هذا اللون من حبّ الله يشابه حبّنا للبستاني، لانّنا نحبّ بالذات البستان وأشجاره الخضراء المثقلة بالثمار وأزهاره الجميلة، ونحبّ البستاني الذي يجعل البستان تحت تصرفنا من أجل ما ذُكر وتبعاً له. انّ حبّ الله هذا معرض للاهتزاز لعدم أصالته وقد يتبدل في بعض الموارد إلىٰ معاندته ومعاداته.

انّالذين يشتد حبّهم للأمور المادية والنِعم الدنيوية، ويحبّون الله تـعالىٰ مـن أجلها فحسبُ يشعرون بعدم الرضا إذا التفتوا إلىٰ انّ الله قد أخذ منهم ما يحبّونه، خاصّةً ساعة الاحتضار، حيث يرون انّ الله هو الذي يقبض أرواحهم ويـفصلهم عما يحبّونه فيشعرون ببغضه في قلوبهم ويفقدون إيمانهم ويرحلون عن الدنيا بهذه الحالة ـ أعاذنا الله تعالىٰ ـ.

وهكذا يبتني الكثير من الصداقات بين الرفاق علىٰ هذا الأساس، أي انّ أساس هذه الصداقات سيكون نوعا من الانتفاع والإستثمار المادي والمعنوي، فإذا انقطع هذا الانتفاع يوماً ما ولم تنجز رغباتهم عـن طـريق أصـدقائهم فـانّالعـلاقات المتبادلة سوف تضعف وينتابها الشحوب وفي العاقبة تزول. ولذا يذكر الله سُبحانه أصدقاء يؤول أمرهم إلىٰ العداء يوم القيامة بقوله:

﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[١]، ويقول في موضع آخر:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾[٢].

هناك يرىٰ الإنسان انّ ما يريده لا يتحقّق عن طـريق الأصـدقاء والزوجـة والأبناء والوالدين، بل قد تكون الأرحام سبباً لابتلائه أيضاً، فانّه سوف يفقد حبّهم ويفرّ منهم.

وأمّا النوع الثالث من الحبّ لله فيختصّ بأوليائه، لانّ هذا الحبّ العميق الشديد لله سُبحانه يحصل في نفس الإنسان حينما يصل إلىٰ المعرفة الكاملة والعميقة بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وكماله وجماله وجلاله، ففي هذه المرحلة يدرك ببصيرته وعمق معرفته انّ غير الذات الإلٰهية المقدّسة لا يحظىٰ بوجود مستقل، فبدءً مـن نفسه حتّىٰ الموجودات الأُخرىٰ والأشياء التي تعد أسباب تكامله، أو التي لها دور

(١) الزخرف ٦٧.

(٢) عبس ٣٤.

ما في رفاهه وسعادته والتذاذه لا يمتلك أيٌّ منها الوجودَ من ذاته، بل كلّ ما لديها مستمد من رب الوجود المفيض للوجود.

في هذه المرحلة من معرفة الله لاسيّما إذا توصّل الإنسان إلىٰ المعرفة الشهودية والإدراك الحضوري وبلغ ـ حسب الاصطلاح ـ مقام التوحيد الذاتي فانّه سوف يشعر بحبّ شديد عميق لله الواحد، حبّ هو علىٰ عكس النوع الثاني من الحبّ تماماً، أي في هذه المرحلة ينشأ حبّ واحد أصيل في أعماق نفسه متعلّق بذات الله تعالىٰ، وتكون محبّته للآخرين عرضية وفرعية وبمثابة الفروع والأغصان والثمار لذلك الحبّ الأصيل والمتجذّر المتعلّق بالله سُبحانه، حتّىٰ انّ حبّ الإنسان لذاته يفقد أصالته السابقة، لانّ ذات الإنسان في هذه المرحلة من المعرفة تكون طفيلية أيضاً وظلاً لذلك الوجود الأصيل وتجلّياً من تجلّياته، ومع هذه المعرفة من الطبيعي أن يتعلّق حبّه وينجذب قلبه أصالةً إلىٰ ذلك الموجود الأصيل، وتكون الموجودات الأُخرىٰ عرضة لاشعاع الحبّ المشتق من ذلك الحبّ الإلٰهي الأصيل.

أجل، انّه خالق الإنسان الذي يجتذب أوليٰاءه وعباده الصالحين ويحتلّ موضعه في قلوبهم ويجعلهم خاصّته تدريجيّاً، ويملأ قلوبهم حتّىٰ لا يبقى فيها مجال لغيره، كما ورد في دعاء عَرَفة لسيد الشهداء عليه السلام «**انت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبّائك حتّىٰ لم يحبّوا سواك**». انّ التلفظ بهذا الكلام يسير ولذيذ، ولكنّ تحقّقه ليس يسيراً كما ربّما يُتصور، الاّ إذا توفّرت لدينا معرفة واسعة وعميقة بالله سُبحانه، وبذلك سوف نحبّه حبّاً لا يضاهيه حبّ آخر، فتكون سائر ألوان حبّنا من قبيل حبّنا لذواتنا أو بقائنا وكمالنا، أو الحبّ الذي نكنّه تجاه علومنا وسعادتنا وقدرتنا أموراً طفيلية ثانوية بالقياس إلىٰ الحبّ الذاتي الأصيل المتعلّق

بالذات والصفات الإلٰهية، فحبّ الإنسان يتعلّق بالأشياء الأُخرىٰ لكونها تجلّيات ومظاهر للصفات والأسماء الإلٰهية.

هذا اللون من الحبّ وإنْ كان أصيلا لم يجد موضعه في هذا المشروع لأنّه غير عامّ ويندر تحقّقه في النفوس. انّ تحصيل هذا الحبّ صعب ولا يمكن أن يتصف بالعمومية. انّالخواص من أولياء الله والأوحدي من الناس كالانبياء العظام عليهم السلام والائمة المعصومين عليهم السلام هم الذين يبلغون هذا المستوىٰ من الحبّ.

والنتيجة العامّة التي نستخلصها من هذه الإجابة هي أنّ مشروعنا المقترح يستوعب الأبعاد والرغبات النفسية التي هي أولاً: واضحة ويقظة، ثانياً: أصيلة وذاتية وثالثاً: عامّة، ولا يجمع أيُّ قسم من الاقسام الثلاثة لحبّ الله هذه الخصوصيات الثلاث، لانّ الحبّ الفطري ليس واضحاً ولا يقظاً، وحبّ الناس والمؤمنين المتعارفين لله ليس أصيلا وذاتياً بل متفرع عن حبّهم لسائر الأمور المحبوبة، ويختصّ الحبّ الأصيل والذاتي لله تعالىٰ الناشيء من المعرفة الكاملة بأولياء الله، ولا يمكن اعتباره أمراً عامّاً، ولذا لم يحدّد لحبّ الله سُبحانه موضع في هذا المشروع.

السؤال الثاني: لقد عرضنا حبّ الذات في هذا المشروع تحت عنوان: الحبّ الأصيل، وقلنا انّ أول جاذبية ينبع من عمق الوجود الإنساني هو حبّ الذات، وتمثّل الميول وتعلّقات الإنسان الأُخرىٰ اغصاناً وشعباً له. فلا يصحّ إضفاء صفة سلبية عليه، بل سيكون أكثر الأبعاد الوجودية والميول والتعلّقات إيجابية لدىٰ الإنسان، وهذا التقييم ينافي ما يطرح في علم الأخلاق لانّ في الكثير من البحوث الأخلاقية الإسلامية وغير الإسلامية اعتُبرت الأنانية وحبّ الذات ملاكاً للقيمة السلبيّة، وجاء في كتب الأخلاق وكلمات العظام انّ أساس الفساد كلّه هو الـ(أنا)

ولمكافحة الشرور وألوان الفساد ينبغي أن يضعّف الإنسان ويزيل حبّ الـ(أنا) في ذاته، ففي هذه الحالة يمكن أن يصل إلىٰ القيم الأخلاقية السامية، كما يمكن الإستنتاج من بعض الروايات انّ محور الفضيلة هو معارضة الرغبات وأهواء النفس.

فبالنظر إلىٰ ما ذكر يطرح هذا السؤال: مع وجود هذا الموقف تجاه النفس وحبّ النفس وأهواء النفس في الروايات ولدىٰ علماء الأخلاق لماذا اعتُبر (حبّ الذات) في هذا المشروع أساساً لكلّ النشاطات الإنسانية وقلنا: انّ حبّ الذات في نفسه لا قيمة له بالأصالة وليس حَسنا أو سيئا في المنظار الأخلاقي؟

من المناسب هنا أن نشير إلىٰ رواية عن النبي ﷺ وإنْ لم تكن قوية سنداً ولكنّ مضمونها ملفت وجدير بالتأييد بالاعتبارات العقلية.

جاء في الرواية: دخل علىٰ رسول الله ﷺ رجل اسمه مجاشع فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلىٰ معرفة الحقّ؟ فقال رسول الله ﷺ: معرفة النفس، فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ موافقة الحقّ؟ قال: مخالفة النفس، فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ رضا الحقّ؟ قال: سخط النفس، فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ وصْل الحقّ؟ قال: هجْر النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ طاعة الحقّ؟ قال: عصيان النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ ذكر الحقّ؟ قال: نسيان النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ قرب الحقّ؟ قال: التباعد من النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ أُنس الحقّ؟ قال: الوحشة من النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ ذلك؟ قال: الإستعانة بالحقّ علىٰ النفس(١).

---

(١) بحار الانوار ٧٠ ص ٧٢ عن غوالي اللئالي.

العبارة الأُولىٰ في الرواية وإنْ تحدّثت عن الحقيقة التي أشرنا إليها وهي انّ معرفة النفس تكون مبدء لمعرفة الله عزّوجلّ ولكنّ المستفاد من سائر العبارات والأسئلة والإجابات في الرواية هو أنّ (النفس) تقع في النقطة المقابلة لـ (الله) وهي مبدء للشرور والانحرافات كافة.

في الإجابة عن السؤال الثاني يجب أن نقول: توجد مغالطة في هذا البيان، والسبب هو الإشتراك اللفظي في مصطلحَي (حبّ الذات وحبّ النفس) اللذين يستعملان في موردين باصطلاحين مختلفين.

انّ حبّ الذات الذي اعتبرناه من الأبعاد الأساسية للنفس يختلف كثيراً عن اتّباع الهوىٰ والأنانية المذمومتين في الروايات وعلم الأخلاق والمدارس الأخلاقية. وقد استعمل لفظ (النفس) في كلمات علماء الأخلاق والمدارس الأخلاقية والروايات سيّما الرواية المذكورة سابقاً بمفهومه واصطلاحه الخاصّ، وفي هذا المشروع استعمل حبّ الذات وحبّ النفس في معنىٰ ومفهوم آخر يباين مفهومه الأخلاقي. ولإيضاح هذا الأمر يجب القول: انّ لفظ النفس يستعمل في العرف والاصطلاحات العلمية في مفاهيم وصور مختلفة. ففي الاصطلاح الفلسفي يكون معنىٰ النفس مرادفاً لروح الإنسان التي هي منشأ حياته وشعوره وإدراكه.

انّ كتاب النفس وسفر النفس في كتاب (الأسْفار) تأليف الفيلسوف والمفكّر البارع المغفور له صدر المتألهين (ره) مثلاً يقوم بدراسة روح الإنسان.

الاّ انّ لفظ النفس يستعمل في علم الأخلاق مقابل (الله) تارةً ومقابل (العقل) تارةً أخرىٰ. وفي الرواية آنفة الذكر جعلت النفس في مقابل (الله) في عدة مواضع. وفي كتب الأخلاق كثيرا ما يقال: علىٰ أساس تقابل النفس مع العقل: انّ عقل الإنسان ونفسه في صراع مستمر، فإنْ تغلّبت النفس علىٰ العقل كان من أهل الشقاء، وإنْ تغلّب العقل علىٰ النفس كان من أهل السعادة.

وعليه فانّ النفس بمعناها المستعمل في علم الأخلاق تختلف مع النفس بمعنىٰ روح الإنسان المستعملة في الاصطلاح الفلسفي، ويمكن القول: انّ النفس بمعناها الأخلاقي هي إحدىٰ اعتبارات الروح، وتعتبر مبدء للرغبات الذميمة التي تسوق الإنسان نحو الانحطاط.

في المنظار الفلسفي تتصف حقيقة النفس بالوحدة والبساطة ولا وجود للكثرة والتركيب فيها، وما ينسب إليها من كثرة فهو امّا بلحاظ مراتب النفس أو قواها أو ما لوحظ لها من اعتبارات ولحاظات مختلفة.

في هذا المشروع الذي قمنا فيه بتعريف حبّ الذات بوصفه أساساً ومنشأ لكلّ النشاطات الممدوحة والمذمومة في الإنسان، نحن نقصد في الواقع من الذات معنىٰ النفس بالاصطلاح الفلسفي الخاصّ الذي يعني حقيقة الروح الإنسانية التي هي الأساس لحياة الإنسان والمنشأ لجهوده الحسنة والسيئة كافة.

انّ حبّ النفس والذات بمعناهما الأخلاقي سيكونان محدودين جدّاً وفرعيَّين بالقياس إلىٰ ما قصدناه من مفهوم للنفس في هذا المشروع، أي انّ النفس بمعناها الفلسفي والمفهوم المقصود لنا ذات شؤون مختلفة، وقد اعتُبرت جهتان لكلّ شأن من شؤون النفس: الأُولىٰ هي انّها تجذب الإنسان نحو الكمال، الثانية هي انّها السبب لانحطاطه. لقد أطلقوا علىٰ تلك الجهة التي هي منشأ كمال الإنسان وتعاليه اسم (العقل) طبق الاصطلاح الأخلاقي، وعلىٰ الجهة التي تسوقه إلىٰ السقوط والانحطاط اسم (النفس).

يجب القول: ان أساس (حبّ النفس) في اصطلاحه الفلسفي كما هو مقصودنا هو عين وجوهرة الوجود الإنساني، فلا يمكن وجود موجود ذي شعور خالٍ من حبّ النفس أو الذات. وعليه فإنّ افتراض عدم حبّ الذات ينتهي بنفي الذات

والنفس، كما انّ‌العلم بالنفس ليس شيئاً غير النفس ذاتها، فلا يمكن أن تكون نفس الإنسان موجودة ولا تكون عالمة بذاتها، أي انّ‌النفس في ذاتها حقيقة ليست أمراً مغايراً للعلم بالنفس.

بديهي انّ (حبّ النفس) كـ(العلم بالنفس) بوصفه حقيقة خارجية لا يمكن أن يكون أمراً قيّماً، وليس حبّ النفس فقط بل كلّ جهة من الجهات الفطرية التي لها جذور في ذات الإنسان وفطرته وتكون خارجة عن دائرة الاختيار لا يمكن أن تدخل في زمرة الأمور القيمية والأخلاقية لتكون (حسنة) أو (سيئة) في المنظار الأخلاقي.

علىٰ عكس حبّ النفس المذموم في الأخلاق فانّه أمر اختياري ويدخل في زمرة الأمور القيمية، ويرجع في الحقيقة إلىٰ تقديم الشهوات الحيوانية ـ وهو أمر اختياري وذو قيمة سلبيّة ـ علىٰ الرغبات الإنسانية والإلٰهية السامية.

وكقاعدة عامّة يمكن القول انّ‌القرآن الكريم أينما ذمّ الأمور النفسية كان ذلك بلحاظ الغرائز الحيوانية والشيطانية التي هي مبدء الأفعال الذميمة والمسقطة للانسان، وليس بلحاظ أصل وجود الروح وجذورها الفطرية، وقد قمنا في محله بالبحث عن موارد استعمال لفظ النفس في القرآن الكريم.

وعليه فإنّ حبّ الذات الذي طرحناه في هذا المشروع يباين حبّ النفس المذموم في كتب الأخلاق تبايناً تاماً.

ومن اللازم أن نشير هنا إلىٰ انّ بعض المدارس التي تميل إلىٰ أصالة المجتمع تؤكّد هذه المقولة في كتبها الأخلاقية وهي انّ الأساس لكلّ الفضائل هو (حبّ الغير) والأساس لكلّ الرذائل هو (الأنانية) أي (النفعية) بتعبيرهم.

وبغضّ النظر عن مناقشة (أصالة المجتمع) التي تناولناها بالبحث في كتاب (المجتمع والتأريخ في الرؤية القرآنية) نشير هنا إلىٰ بعض الإشكالات الواردة علىٰ هذه النظرية، ونحيل تفاصيل البحث إلىٰ كتاب (فلسفة الأخلاق).

انّ الادّعاء بأنّ ملاك الفضائل الأخلاقية هو (حبّ الغير) وملاك الرذائل الأخلاقية هو (حبّ الأنا) فاقد أساساً للدليل العقلي والاعتبار المنطقي، مضافا إلىٰ انّه إذا كان المراد من (حبّ الأنا) هو الغريزة الفطرية (حبّ الذات) نفسه فلابدّ أن نعتبرها أساساً لكلّ النشاطات الحيوية، إذ لولا وجود هذه الغريزة في الإنسان لم يقم بأيّ نشاط فردي واجتماعي، فحتّىٰ النشاطات التي تنجز ظاهراً بدافع حبّ الغير تنشأ في الحقيقة من حبّ الكمال وهو أحد فروع حبّ الذات. وإنْ كان المراد من (حبّ الأنا) الرغبات المتطرفة والمنحرفة للزهو والغرور والتكبر وحبّ التسلط وأمثالها فلابدّ حينئذ من تعيين حدود هذه الرذائل وإثبات علة كونها رذيلة.

ومن جهة أُخرىٰ لا يمكن حصر دائرة الأخلاق والفضائل والقيم الأخلاقية الإيجابية في العلاقات الاجتماعية، أي انّ العمل الصالح لا ينحصر في العمل المؤدىٰ لصالح الغير وبدافع خدمة الناس. وهذا التحديد غير صحيح ولا حقيقة له في المدرسة الأخلاقية للاسلام. لانّ العديد من الصفات لا يمتّ بصلة للمجتمع ورغم ذلك يمتلك قيمة أخلاقية إيجابية في الرؤية الإسلامية، كما هو المطروح علىٰ أساس التصنيف في هذا المقال في باب علاقة الإنسان بنفسه ويمثّل محور بحثنا الحاضر، ونظير ما يمكن طرحه في باب علاقة الإنسان بالله سُبحانه وقد تناولناه في الفصل السابق.

فالخشوع في الصلاة ـ مثلاً ـ والاخلاص وحضور القلب و... ليس لها أيّة

علاقة مع مصلحة الغير ورغم ذلك هي أمور محبّذة وذات قيمة أخلاقية إيجابيّة في الأخلاق الإسلامية.

وبهذا ينشأ نموذج لدراسة المسائل الأخلاقية الشخصية، ونحن لا ندّعي خلوّ النموذج المقصود لنا من أيّ نقص وذلك لانّ روح الإنسان أمر معقد وسيبقى من الممكن تقديم مشروع أكمل في أبعاده المختلفة، ولكنْ لا يبدو حاليّاً وجود إشكال في البدء بدراسة النفس والأمور النفسية ومواصلتها، ثمَّ دراسة هذا القسم من المسائل الأخلاقية في إطار هذا المشروع، وإنْ كان فيه نقص فانّه لا يضر بأساس منهج بحثنا ولن يحدث التقديم والتأخير خللا مهمّا في البحوث.

المهم هو أن في إطار هذا المشروع نركّز علىٰ قضايا تنسجم مع الآيات والروايات والبراهين العقلية.

وليس المقصود طبعاً انّ جميع تلك القضايا قد وردت في ظواهر ألفاظ الآيات القرآنية أو الروايات، لانّ الكثير منها لا يستفاد مباشرة من ظاهر الآيات ولكنْ من خلال القرائن والشواهد الكثيرة يمكن استنباط موقف الآيات القرآنية والروايات منها.

فمثلاً لا يوجد في القرآن الكريم بحث عن الأصيل والمقدّم من بين غرائز الإنسان وميوله وتحديد الفرعي والمؤخر منها بحيث يعلم من ظاهر اللفظ، ولكنْ من خلال التدقيق في الآيات وتعليلها لموضوع بموضوع آخر أو استنادها إلىٰ أمور في ترغيب الناس لممارسة فعل ما أو منعهم من فعل آخر، ومن كيفية دعوة الناس وقرائن أُخرىٰ مماثلة يمكن التوصل إلىٰ بعض الملاحظات.

فمثلاً يبشر القرآن الكريم المؤمنين في موارد كثيرة بِنِعم الجنة، وعندما يريد دعوة الناس للايمان أو ممارسة العمل الصالح يبشرهم بأنّ الله يدخلهم جنات

خالدة إذا فعلوا ذلك **﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾**[١].

نلاحظ انّ الله سُبحانه في هذه الموارد يذكّر الناس بالنِعم المذكورة ويرغّبهم لممارسة هذه الأعمال لكي ينالوا ذلك الثواب وتلك النِعم الكبيرة في الجنة.

من مثل هذا الكلام يمكن أن ندرك انّ مرغوبية هذه النِعم أمر فطري للانسان وبهذا اللحاظ يمكن أن يكون التبشير بها مؤثّرا، ولو لم يكن توقان في فطرته إلىٰ مثل هذه الأمور لما كانت هذه الترغيبات مؤثّرة فيه ولا تدفعه لفعل شيء.

من هذا الموقف القرآني يمكن أولاً: استنتاج تأييد القرآن لوجود هذا الحبّ في الإنسان وكأنه يخبر عن وجوده فيه.

وثانياً: انّ إشباع هذا الحبّ ليس أمراً ذميما ومضاداً للقيمة من وجهة نظر القرآن، فلو كان أكل الطعام اللذيذ ذا قيمة سلبيّة وذا تأثير سلبي علىٰ مصير الانسان، لم يبق مجال ليقول تعالىٰ: **﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾**[٢] و**﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾**[٣] ويخبر عن وجود فواكه متنوّعة ولحوم طيور كالدرّاج والحمام والحجل، ومن خلال ذلك يثير الإنسان نحو التحرّك والسعي في طريق الحياة الصحيح.

من هذا التعامل يعلم انّ حبّ الأطعمة موجود ليس في هذا العالم فحسبُ بل في الجنة أيضاً وينبغي اشباعه، وقد وعد الله سُبحانه باشباع هذا الحبّ لدىٰ أهل الجنة والذين يرتضي الله أعمالهم وسلوكهم بأفضل الصور وكما يشتهون.

ولهذه البشائر يمارس المؤمنون أعمال الخير ويجاهدون ويسعون ويُقدِمون علىٰ التضحية والشهادة.

---

(١) المجادلة ٢٢. (٢) المرسلات ٤٢.
(٣) الواقعة ٢١.

وقد أمضىٰ الله هذه المعاملة وأنفذها حيث يقول:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ﴾[١] أو يقول:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢].

مثل هذه الآيات والقرائن والشواهد تكشف عن هذه الحقيقة وهي أولاً: انّ الإنسان مشتاق بفطرته إلىٰ الالتذاذ الدائم، وثانياً: انّ إشباع هذا الحبّ ليس أمراً مرفوضا، وإذا دُعي الإنسان لترك بعض اللذّات في الدنيا فانّه من أجل أن لا تضر باللذائذ الأشد والأوسع والنِعم الخالدة في عالم الآخرة. وعليه فلا بأس في الالتذاذ والتمتع بالنِعم الإلٰهية في الدنيا ما لم تزاحم وتعارض النِعم الخالدة في الآخرة والسعادة الأبدية للانسان.

---

(١) التوبة ١١١. (٢) الصف ١٠.

القسم الثالث



خلود الإنسان و بحثه عن الكمال

القسم الثالث

١ـ٢

اليقظة بعد الغفلة والالتفات للحقيقة

العلم بالنفس والالتفات إليها

الالتفات القهري والالتفات الاختياري

الالتفات هو من الأمور القيمية والأخلاقية

آثار الالتفات إلى النفس

اليقظة بعد الغفلة والالتفات للحقيقة

الموضوع الأول الذي يطرح في قسم الأخلاق الفردية، أي قسم الأخلاق الذي ينظم علاقة الانسان بنفسه هو موضوع الالتفات واليقظة في مقابل حالة الغفلة وعدم الالتفات. من هنا فإنّ علماء الأخلاق الذين قاموا بدراسة مراحل المسيرة الإنسانية نظير أرباب السير والسلوك والعرفاء اعتبروا (اليقظة) المحطة الأُولىٰ من محطات سير الإنسان وسلوكه نحو التعالي والتكامل، وتستعمل بمعنىٰ الانتباه في مقابل الغفلة.

وفي القرآن الكريم تدل آيات كثيرة ـ لعلّها أكثر من ٢٠ آية ـ علىٰ انّ أساس شقاء الإنسان وفساده وأصل الرذائل الأخلاقية هو الغفلة، ونشير هنا إلىٰ بعضها:

جاء في إحدىٰ الآيات:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١).

ويبدو واضحا تماماً من سياق الآية انّ أساس الشقاء بالنسبة للذين يتعرضون

---

(١) الأعراف ١٧٩.

للعقاب والشقاء الأبدي هو الغفلة والجهل بالحقائق التي تقتضي انسانيةُ الإنسان العلمَ والالتفات إليها، وبهذا اللحاظ فإنّ هؤلاء الأشخاص أحطّ قيمةً من الحيوانات التي تقتضي طبيعتها الغفلة والجهل.

وفي آية أُخرىٰ وبعد الإشارة إلىٰ الذين كفروا بعد إيمانهم وفضّلوا الدنيا علىٰ الآخرة أضافت:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُـمْ الْغَافِلُونَ﴾[1].

وواضح في الآية أيضاً انّ ما يستدعي طبع الله علىٰ قلوبهم لكي تنحرف قواهم المدركة عن المسيرة الصحيحة وتفقد دورها الإيجابيّ هو غفلتهم وعدم التفاتهم.

والتفتت مجموعة أُخرىٰ من الآيات إلىٰ ألوان معيّنة من الغفلة، ونشير إلىٰ بعضها ونركّز علىٰ الملاحظات الخاصّة الموجودة في بعض هذه الآيات. فقد جاء في إحدىٰ الآيات هكذا:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ...﴾[2].

في كلّ من الآيات الثلاث المذكورة ذُكر لفظ يتعلّق ببحثنا: ففي الآية الأُولىٰ استُعمل لفظ (**الغفلة**) وفي الثانية عبارة (**وهم يلعبون**) وفي الثالثة عبارة (**لاهية قلوبهم**).

انّ الآيات المذكورة نماذج من الآيات التي قلنا إنّها اعتَبرت الغفلة منشأً لفساد الإنسان. ومن هذه الآيات يمكن أيضاً استنتاج انّ ما يقع في مقابل الغفلة أعني الالتفات واليقظة يكون أساساً لسعادة الإنسان.

---

(١) النحل ١٠٨.
(٢) الانبياء ١ ـ ٣.

ومن الصعب تحديد اللفظ الذي يتضمّن المفهوم الذي نرومه في مقابل مفهوم الغفلة تماماً، ولكنْ يمكن القول: انّاللفظ الأكثر شمولية من بين الألفاظ التي لها هذا المضمون هو لفظ (الذكر) الذي يستعمل بمعنىٰ اليقظة والانتباه.

انّ لفظ (الذكر) يقع تارةً في مقابل النسيان فيكون بمعنىٰ عدم النسيان ودوام الالتفات، وتارةً بمعنىٰ التذكر أعني الالتفات الذي يحصل للانسان بعد نسيانه. كما انّ الغفلة في ذاتها تكون أعمَّ، فتشمل نوعي الغفلة، سواء أكانت غفلة أصلية وابتدائية أم غفلة تعرض مرة أُخرىٰ علىٰ الإنسان بعد الذكر واليقظة والالتفات وطرد الغفلة.

العلم بالنفس والالتفات إليها

للمزيد من الإيضاح لموضوع البحث وتحديد علاقته بمشروعنا المعني بدراسة الشاكلة النفسية للانسان لابدّ من القول: انّ النفس في أساس وجودها وذاتها عين العلم والوعي، ومن أوائل الأفعال التي تصدر من النفس مباشرة هو الوعي والالتفات.

انّ الالتفات وإنْ كان ذا علاقة وثيقة مع العلم الاّ انّه ليس عين العلم، بل يفترق عنه، فكثيراً ما نعلم بشيء ولكنْ لا نلتفت إلىٰ معلوماتنا. فمن الممكن أن يمثّل العلم حالة انفعالية للنفس في حين يكون الالتفات المستمر في النفس فعلا صادراً منها، فهي حالة فعّالة.

الالتفات القهري والالتفات الاختياري

قد يتعلّق التفات الإنسان بشيء ما بفعل عوامل خارجة عن النفس، خاصّةً في

مرحلة الطفولة والرضاعة، حيث ينجذب بفعل عوامل طبيعية ويكون بعض مراتبها ـ تقريبا أو تماماً ـ غير اختياري.

فمثلاً حينما تفرغ معدته يلتفت إلىٰ الجوع والطعام، أو إذا أصيب في جسمه كأنْ تتألّم رجله أو تلسعه حشرة انجذب التفات الطفل إلىٰ ذلك الموضع الخاصّ ويبدأ بالبكاء.

ثمّ يصل الإنسان تدريجيّاً في مسيرته التكاملية إلىٰ مرحلة يمكن أن يكون له الدور الرئيسي في الالتفات إلىٰ الأشياء المختلفة أو عدمه، أي سيدخل في مرحلة الالتفات الاختياري وسيكون لها في ذاتها مراتب مختلفة، الاّ انّها تشترك في هذه الحقيقة وهي انّ زمام التفاته بيده.

من الضروري هنا أن نذكر: انّ ما يطرح من هذين النوعين من الالتفات أعني الالتفات القهري والالتفات الاختياري في علم الأخلاق ويكون موضوعا للبحوث والدراسات الأخلاقية هو النوع الاختياري من الالتفات، أمّا النوع القهري منه والذي لا يتحكم فيه الإنسان ولا سلطة له عليه فانّه لا يمكن أن يتصف بالحُسن والقبح الأخلاقيّين أبداً، ولا يمكن أن يكون موضوعاً للمدح والذمّ.

حينما يذمّ القرآن الكريم الإنسان بسبب غفلته فإنّما يكون في بعض الموارد التي يكون لاختيار الإنسان دور في طروء الغفلة أو استمرارها علىٰ الأقل.

كما انّنا حينما نقول انّ الالتفات أمر جيد ومحبّذ فانّا نقول ذلك في حالة حصوله بنحو اختياري، ولا يصحّ أن يتصف ذلك النوع من الالتفات الجبري بأيّة قيمة أخلاقية.

هنا يطرح هذا السؤال: في أيّة مرحلة من مراحل النضج وفي أيّة نقطة من مسيرة التكامل يظفر الإنسان بالالتفات الاختياري ويكون قادرا علىٰ انتخاب متعلّق التفاته؟

انّ هذا السؤال لا يرتبط طبعاً بهذا البحث الأخلاقي، بل هو موضوع نفساني تنبغي دراسته والبحث بشأنه في فرع من علم النفس. انّ ما سيكون موضوعا للبحث الأخلاقي نظير ما نحن فيه هو الفاعل المكلَّف الذي يشعر بوجود هذه القدرة في نفسه علىٰ أن يكون التفاته ومتعلّق التفاته تحت سلطته ويحصل باختياره. وليس من المهم معرفة المرحلة التي يتيسّر له فيها ذلك وفي أيّة مرحلة من مراحل رشده يكتسب هذه القدرة، فمن الممكن أن يكتسب أشخاص هذه القدرة من خلال التمرين الكثير وبمرور فترة زمنية، كما انّ هناك اشخاصاً يتمتعون بهذه القدرة منذ ولادتهم بل وقبلها وفي عالم الرحم كما هو الاعتقاد بأنّ الائمة المعصومين عليهم السلام والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أو بعض الانبياء يحظَون بالعلم والاختيار والالتفات في رحم الأم وقبل الولادة. علىٰ أيّ حال، فهذه القضية ليست بالمسألة التي تكون الإجابة عنها ضرورية ومهمة لمواصلة هذا البحث الأخلاقي.

و علىٰ أيّ حال فإنّ تركيز الحواس والالتفات الاختياري ذو مراتب ودرجات مختلفة وله شدة وضعف، ففي هذا الشأن يبلغ أشخاص من القوة والاقتدار ما يمكنهم في كلّ آنٍ التركيزُ علىٰ أيّ شيء يختارونه ويصرفون التفاتهم عن الأشياء الأخرىٰ، وفي المقابل هناك أشخاص لا يحظَون ـ حتّىٰ نهاية أعمارهم ـ بذلك الإستقلال الكافي والوافي، في حين يحظىٰ كلّ انسان بالغ ومكلّف بهذه القدرة إلىٰ حدّ ما بحيث يستطيع توجيه التفاته باختياره إلىٰ شيء وصرفه عن شيء آخر.

ينبغي هنا أن نلتفت إلىٰ هذه الحقيقة وهي انّ تركيز الحواس فعل اختياري للنفس ويصدر عنها بصورة التجلّي، أي انّ الفعل الاختياري للنفس لا ينحصر في

نوع خاصّ، بل له أقسام وأنواع مختلفة، أحدها ما يصدر عن النفس علىٰ صورة التجلّي.

لتوضيح هذا القول نشير إلىٰ التقسيم الحاصل في الفاعلية في بـاب الفـلسفة حيث يقال: انّ الفاعلية لها أقسام أحدها (الفاعلية بالقصد) والمقصود منه هو انّ الفاعل يقوم بالتصور أولاً، ثمّ يصدّق بكونه مفيدا، وبعد المقارنة يعزم علىٰ القيام بالعمل، وفي النهاية يُعمل إرادته وينجز ذلك العمل.

يظنّ البعض أنّ الفعل الاختياري للانسان يتلخص في هذا الفـعل القـصدي، ويكون متعلّقه هو الأشياء الخارجية كالأكل والنوم والتكلّم والمشي و... ولكـنْ ينبغي الالتفات إلىٰ انّ هذا ظنّ باطل وكلام غير صحيح لانّ هناك أقساماً أُخرىٰ من الفاعلية تدخل في زمرة الأفعال الاختيارية وإنْ لم تكن قصدية، ومن أوضح مصاديقها هو فاعلية الإنسان بالنسبة للارادة نفسها. فالإرادة ـ علىٰ عكس الرأي المشهور بأنّها من مقولة الكيف النفساني ـ فعل للنفس، أي انّ النفس لها فـاعلية بالنسبة للارادة، وهي توجدها وليس تعاملها معها تعاملاً انفعاليّاً. وفاعلية النفس بالنسبة للارادة نفسها ليست ـ طبعاً ـ فاعلية بالقصد لكي تكون مسـبوقة بـإرادة سابقة وتقع في التسلسل الباطل والمحال، بل من نوع الفاعلية بالتجلّي، فنظراً إلىٰ انّ أيّ عامل لا يقهر الإنسان في إرادته ولا يحدث ذلك قهراً إذنْ تكون من أفعال الإنسان الاختيارية.

مما ذُكر يمكن التوَصل إلىٰ هذه النتيجة وهي: بما انّنا قلنا انّ الفعل الاختياري لا ينحصر في الأفعال القصدية. ولا في الأفعال الخارجية، فإنّ الأفعال التي يمكن أن تتصف بالحُسن والقبح وتدخل في دائرة علم الأخلاق لا تكون محصورة في الأفعال الخارجية والأعمال القصدية، بل يمكن أن تكون أفـعالا بـاطنية تـماما

كالتفكير والالتفات، وتشمل جميع الأفعال الاختيارية للانسان أعمَّ من أن تكون إرادية وقصدية أو لا تكون كالفعل بالتجلّي المذكور والأقسام الأُخرىٰ للفعل الاختياري التي يتم بحثها في فلسفتنا.

الالتفات هو من الأمور القيمية والأخلاقية

بملاحظة ما ذكرناه بشأن سعة دائرة الفعل الاختياري وكونه أعمَّ من الفعل القصدي يمكن أن نصل إلىٰ هذه النتيجة: انّ البحث عن ماهية الفكر الجيد والسيء بحث يرتبط بعلم الأخلاق، لانّ التفكير كما ذكرنا يدخل في زمرة الأفعال الاختيارية بمفهومها الواسع فيكون من الأفعال القيمية والأخلاقية، كما انّ استخدام الإرادة هو أيضاً كالتفكير يكون من الأفعال الباطنية، وبالتالي يكون قيمياً وأخلاقياً، ويمكن أن يصبح موضوعا للمدح والذمّ أعمّ من أن يكون من وجهة النظر الفقهية منشأ للثواب والعقاب المترتّبين علىٰ الطاعة والعصيان تجاه الواجبات والمحرمات الفقهية أو لا يكون. علىٰ أيّ حال، من المسلّم به أن تكون إرادة الإنسان من الناحية الأخلاقية ـ وإنْ لم تكن سبباً لفعل ما لوجود الموانع ولا تظهر علىٰ أعضاء الإنسان وجوارحه ـ موضوعا للحُسن والقبح والتقييم الأخلاقي تلقائيا، وتكون ذات آثار معنوية وأخروية وإنْ اختلفت تلك الآثار مع الثواب والعقاب المترتّبين علىٰ الواجبات والمحرمات الفقهية.

من البديهي أن يبحث في باب الفقه عادة عن الأفعال الخارجية الواجبة أو المحرمة أو التي يتعلّق بها الأمر والنهي، وتكون منشأ لآثار خاصّة في الآخرة الاّ انّ ذلك لا يعني أن لا يكون هناك أيّ أثر للارادة الحسنة والسيئة وهما من الأفعال الباطنية للانسان، بل قد تترتّب عليها آثار هي أهمُّ من آثار الأفعال الواجبة أو

المحرمة الخارجية. ومن جهة أُخرىٰ فإنّ الثواب والعقاب في الآخرة لا ينحصران في نِعم الجنة وعذاب جهنم، فأكبر الثواب هو رضا الله عزّوجلّ وعنايته للانسان، وأشدّ العذاب لدىٰ الذين يدركون ذلك هو عدم العناية الإلٰهية. يقول تعالىٰ في آية قرآنية: **﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾**[1]، أجل قد يكون لبعض الأعمال مثل هذه الآثار رغم عدكونها واجبة أو محرمة حسب النظر الفقهيّ.

علىٰ أيّ حال، فكلّ عمل اختياري يتحقّق في باطن الإنسان وفكره وروحه لا يكون خالياً من التأثير علىٰ سعادته وشقائه قطعاً، أعمَّ من كون ذلك الفعل واجبا أو حراماً من الناحية الفقهية أم لا، وتبعاً لذلك سواء أترتّب ثواب وعقاب عينيّان علىٰ الطاعة أو المخالفة للواجب او الحرام أم لم يترتّب، لانّ النيات والإرادة الحسنة والسيئة لها آثار حسنة وسيئة وثواب وعقاب أيضاً يناسبها في الآخرة لمن ينويها أو يريدها وإنْ لم تكن هذه الآثار والثواب والعقاب من سنخ نِعم الجنة أو عذاب جهنم.

في البحوث السابقة قلنا لدىٰ ذكر الأبعاد والخصوصيات الذاتية للنفس: انّالنفس متحرّكة في ذاتها حتّىٰ يمكن القول: انّ النفس في ذاتها حركة وانبعاث. ولعل إطلاق الروح علىٰ النفس يكمن في هذه الحركة الذاتية، ونقول هنا: انّ التجلّي الأول للحركة النفسية هو نشوء الالتفات إلىٰ هذا المعنىٰ في أعماق النفس بمعنىٰ انّ الالتفات في نفسه مؤشر وعلامة للتغيير الحاصل في باطن النفس، فمن يغفل عن شيء حينما يلتفت إليه يتغيّر حاله، ويحصل في روحه ونفسه ما لم يكن موجوداً، وهذا في نفسه حركة، وبما انّ أيّة حركة لا تكون بدون جهة فإنّ نفس الإنسان تتّبع جهة ما في هذه الحركة أيضاً.

---

(١) آل عمران ٧٧.

ومن الطبيعي لو كان التفات الإنسان قهرياً فانّه لن يكون للانسان نفسه اختيار في توجيه ذلك الالتفات، ولكنّه إذا كان الالتفات اختيارياً فإنّ الإنسان سوف ينشط بشكل فعال واختياري أيضاً في توجيه ذلك الالتفات، وبما انّنا نقوم بدراسة وتقييم الأفعال والسلوك الاختياري في نطاق علم الأخلاق فإنّ ما يتمّ البحث والدراسة والتقييم بشأنه من الالتفات هو النوع الذي تكون النفس مختارة في القيام به وتوجيهه وذات دور فعال بالنسبة إليه، ولا يحصل بصورة انفعالية أو لا يُفرض عليه بنحو قهري. مثل هذا الالتفات يحصل للمكلّف في حال اليقظة والانتباه، وحتّىٰ لو حصل التفات للنائم أو الطفل فحيث انّه غير اختياري لا يتعلّق به تكليف، ولا يدخل دائرة علم الأخلاق.

انّ محور حديثنا طبعاً هم الأشخاص المتعارفون ونوع الإنسان، ومن البديهي وجود أشخاص استثنائيين هنا أيضاً كأيّ مجال آخر تكون نفوسهم فعالة وملتفتة حتّىٰ في حالة النوم. ففي رواية انّ النبي ﷺ قال: «**تنام عيني ولا ينام قلبي**»[1]. فقلب النبي ﷺ يقظ وملتفت حتّىٰ حال نومه كحال اليقظة.

والحاصل فإنّ الالتفات غير الاختياري كالالتفات حال النوم، أو التفات الطفل الذي يحصل بتأثير عوامل خارجية طبيعية قهرية يكون خارجا عن البحث. نعم، عندما يبلغ الإنسان مستوىٰ يستطيع فيه السيطرة علىٰ التفاته ويتعامل بنحو فعال في تحديد جهة التفاته، وبعبارة أُخرىٰ في توجيه التفاته يصبح مثل هذا الالتفات المستطاع موضوعا للبحث الأخلاقي. هنيئاً للذين بلغوا هذا المستوىٰ من السيطرة علىٰ أنفسهم وقاموا مختارين بالتوجيه الصحيح لالتفاتهم، وتعساً للقادرين علىٰ الالتفات ولكنْ لا يلتفتون، وبإمكانهم توجيه التفاتهم إلىٰ الجهة الصحيحة ولكنّهم

---

(١) بحار الانوار ٧٦ / ١٨٩ الرواية ١٨.

يوجّهونه نحو جهة خاطئة. والثواب والعقاب في هذا المجال هو من نصيب ذوي القدرة علىٰ جذب التفاتهم نحو شيء وصرفه عن شيء آخر.

بملاحظة ما مضىٰ يمكن القول: انّ المقصود من الغفلة المذمومة في الآيات القرآنية ليس الغفلة المطلقة، لانّ الإنسان لا يكون حال اليقظة والانتباه غافلا مطلقاً، بل لابدّ أن يكون ملتفتا إلىٰ شيء.

وبصورة عامّة يمكن القول: انّ غفلتنا المألوفة عن شيء في ذاتها هي حصيلة التفاتنا لشيء آخر، أي ينجذب التفاتنا لشيء عادة ونغفل عن أشياء أخرىٰ، فعندما يتركّز التفات الإنسان علىٰ أمر مادي أو معنوي فمن الطبيعي أن يغفل عن الكثير من الحقائق الجارية في العالم.

ومن الممكن طبعاً توزيع الالتفات علىٰ عدة أشياء، ولكنّ التفات الإنسان محدود علىٰ ايّ حال، والأشخاص المتعارفون ليس بإمكانهم الالتفات إلىٰ كلّ شيء في آن واحد، وإنْ قلنا بوجود أشخاص استثنائيين ويمكن أن يصل البعض إلىٰ مستويات من الكمال في هذا المجال، ويحصلون علىٰ مقام جمع الجمع حسب تعبير العرفاء، وبإمكانهم الالتفات إلىٰ دائرة واسعة من الأشياء، الاّ انّ مثل هؤلاء الأشخاص خارجون عن بحثنا الفعلي، والأشخاص المتعارفون ـ وهم محور البحث والدراسة الأخلاقية في هذا المقال ـ ينجذب التفاتهم عادة إلىٰ شيء واحد أو عدة أشياء محدودة وبوسعهم التركيز الكامل علىٰ شيء واحد فقط.

الآن وقد عُلم انّ الغفلة المطلقة غير مذموم في القرآن، ولا مصداق لها حال اليقظة والانتباه يطرح هذا السؤال: أية غفلة، والغفلة عن أيّ شيء تؤدي إلىٰ شقاء الإنسان؟ ومن هم الغافلون المذمومون في القرآن الكريم؟

نقول في الإجابة: ورد متعلّق الغفلة في الكثير من الآيات القرآنية وقد جاء

(ذكر الله) في بعضها متعلّقاً للغفلة كقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[١].

وعُدّت (آيات الله) في آيات أُخرىٰ متعلّقاً للغفلة كقوله تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾[٢].

وذكرت (الآخرة) متعلّقاً للغفلة في مجموعة ثالثة من الآيات نظير:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٣].

بملاحظة الآيات القرآنية التي ذكرنا نماذج منها وعلىٰ أساس الرؤية الإسلامية نعلم انّ من الضروري الالتفات إلىٰ الله عزّوجلّ والقيامة وآيات الله وأمور أخرىٰ، ولكنْ بغضّ النظر عن الأدلة العقلية والنقلية والآيات والروايات يمكن السؤال أيضاً: ما هو مقتضىٰ الفطرة الإنسانية في هذا المجال؟

توضيح ذلك: لقد قلنا سابقاً انّ حبّ الذات هو من الأبعاد الأساسية في الإنسان، ومن الأمور الفطرية المتجذّرة في ذاته. ومقتضىٰ حبّ الذات في الإنسان هو أن يكون ملتفتا إلىٰ نفسه، حيث يمكن القول انّ الالتفات الاختياري سيكون في الغالب حصيلة الرغبة والانجذاب والحبّ أو العداء الشديد. وهذا هو من خصائص النفس الإنسانية ومن النِعم الإلٰهية، فالنفس رغم كونها موجوداً بسيطا تكون قادرة علىٰ الالتفات إلىٰ ذاتها، في نفس الوقت الذي تلتفت فيه إلىٰ أشياء أخرىٰ، والعامل الذي يستدعي التفات النفس إلىٰ ذاتها هو حبّ الذات المتجذّر في الفطرة الإنسانية.

كما قلنا: انّ حبّ الذات ـ نظراً لكونه عين النفس أي يستحيل أن تكون النفس

---

(١) الكهف ٢٨. (٢) يونس ٧ و ٨.

(٣) الروم ٧.

موجودة ثمّ لا تحبّ ذاتها ـ ليس اختياريا، وعليه لا يتصف بـالقيمة الإيـجابية والسلبيّة ولا يمكن مدح شخص أو ذمّه علىٰ حبّه لذاته.

والحاصل فإنّ أكثر مصاديق الحبّ أصالةً في نفس الإنسان هـو حبّ الذات هذا، وبما انّ الحبّ يجذب التفات الإنسان إلىٰ محبوبه ومتعلّق حبّه فإنّ هذا النوع من حبّ الذات يجذب التفات الإنسان إلىٰ نفسه أيضاً. ومن المؤسف أن يُمسخ الإنسان ـ لاشتغاله والتفاته المتطرف إلىٰ الماديات ـ إلىٰ الحدّ الذي ينسىٰ فـيه نفسه ويصبح غريباً عن ذاته، وأحياناً يبلغ حدّ السُكر والجنون.

وفي القرآن الكريم اشارات إلىٰ حالة السُكـر وغـربة الإنسـان الغـارق فـي الماديات عن نفسه، نظير قوله عن المرابي:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ﴾(١).

فبعض المرابين يحدّثون أنفسهم عند الخلوة بـها ويـغرقون فـي الحسـابات وتشغل بالصكوك والكمبيالات أذهانهم عند السير فـي الشـوارع ولا يـلتفتون إلىٰ شيء أبداً ويبتلون بحالة جنونية، مثل هذا الشخص الغريب عن نفسه يغرق في طلب الثروة إلىٰ حدّ الغفلة عن كلّ شيء ولا يدرك ما يفعله أبداً.

ويحدث مثل هذه الحالة أيضاً إثر الانجذاب إلىٰ الشهوات والغريزة الجنسية، فقد قال تعالىٰ عن قوم لوط:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٢).

وقد أطلق القرآن في بعض الآيات لفظ (اللهو) علىٰ حالة الغفلة والغربة عـن الذات بسبب الانجذاب الشديد للاشياء الأُخرىٰ حيث يقول في آيتين كريمتين:

---

(١) البقرة ٢٧٥. (٢) الحجر ٧٢.

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[١].

ويقول في آية أخرىٰ:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

كما جاء أيضاً في آيات أُخرىٰ لا حاجة لذكرها.

يمكن القول: انّ العلة في تحريم الكثير من الأعمال تحت عنوان (اللهو) هو أنّها تجعل الإنسان غافلا وغريبا عن نفسه، لانّ منشأ صدور كلّ عمل صحيح في الانسان هو التفاته إلىٰ نفسه، الالتفات إلىٰ انّه من هو؟ وأين هو؟ وأيّ عمل يتّفق مع مصلحته و أيّ عمل لا يتفق مع مصلحته؟ أيّ عمل لابدّ أن يقوم به وأيّ عمل لا ينبغي له القيام به؟

انّ الإنسان لا يتيسّر له انتخاب الطريق الصحيح الاّ في حالة التفاته. ولكنْ إذا تسلطت عليه العوامل الخارجية وقهرته وجعلته غافلا غير ملتفت إلىٰ نفسه فانّه يُسلب منه قدرة الانتخاب، ويكون حسب الاصطلاح القرآني مبتلىً بحالة اللهو، وهي الحالة المحرمة في بعض مراتبها والمذمومة أخلاقيا في مراتب أخرىٰ.

انّ الآيات المذكورة تؤيد هذه الحقيقة وهي انّ الالتفات إلىٰ الذات بلحاظ حبّ الانسان لذاته ذو جذور فطرية، ويستفاد هذا المضمون أيضاً من الآية القائلة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٣].

تقول الآية بأنّ علىٰ الانسان أن يهتم بنفسه ويتدبر في مصالحه الواقعية، الاّ انّ ذلك يتيسّر فقط حينما يلتفت إلىٰ نفسه، ومع الغفلة يصعب عليه تشخيص العمل

(١) التكاثر ١ و ٢. (٢) الحجر ٣.

(٣) المائدة ١٠٥.

النافع ليقوم به والعمل الضار ليتجنّبه، بل لا تخطر هذه الأمور بباله.

وعليه يمكن القول: انّ الالتفات إلىٰ النفس هو الأساس لكلّ أعمال الخير والأعمال النافعة، كما انّ الغفلة وعدم الالتفات إليها والغربة عن النفس يدمّر مستقبل الإنسان تماماً. قال تعالىٰ في إحدىٰ الآيات:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[1].

هذه الآية تدلّ بوضوح علىٰ انّ نسيان النفس والغربة عنها عقوبة للغفلة عن الله. انّ الغفلة عن الله معصية يعاقب الله الإنسان عليها بأن يجعله غافلا عن نفسه فلا يذكرها.

آثار الالتفات إلىٰ النفس

للالتفات إلىٰ النفس مراتب عديدة ويترتّب علىٰ كلّ مرتبة آثار خاصّة تتنوّع بتنوّع قابليات بني الإنسان ومستويات معرفتهم وإيمانهم.

ويكون الالتفات إلىٰ النفس منشأ لتقوية العلم الحضوري في نفس الإنسان. وكلّ انسان طبعاً يتمتّع بعلم حضوري بنفسه، ولكنْ بما انّ العلم الحضوري بالنفس هو عين النفس وهناك اتحاد بين العلم والعالم والمعلوم فإنّ نفس الإنسان كلّما كانت أكمل وكان تجرّدها أكثر فإنّ علمه الحضوري بنفسه يكون أكمل وأوضح وأعمق.

لقد أُودع العلم الحضوري في المرحلة الأُولىٰ علىٰ صورة إدراك فطري مبهم وغير واعٍ في نفس الإنسان حتّىٰ انّه يخطأ أحياناً في التمييز بين حقيقته الإنسانية وبين جسمه، وذلك نتيجةً لضعف علمه وخفائه ويظنّ انّ الـ(أنا) في الإنسان هو

---

(١) الحشر ١٩.

الجسم المادي وينكر وجود حقيقة الروح وراء الجسم المادي أو يتردّد في ذلك. انّ منشأ هذا الانكار أو التردّد وهذا الخطأ الكبير ليس سوىٰ ضعف ذلك العلم الحضوري للنفس بذاتها، وهذا ما يفسح المجال لعدم التمييز بينها وبين جسمه.

في المراحل التالية لا يقع مثل هذا الخطأ، لانّ العلم الحضوري للنفس يكون أوضح وأقوىٰ إثر نضج وتفتُّح جوهر النفس، أي انّ نفس الإنسان المجرّدة تدرك حقيقة ذاتها بوضوح وتلتفت إلىٰ انّها موجود آخر غير الجسم، والجسم بمثابة اللباس او الراحلة للنفس أو مرتبة ضعيفة من وجود النفس.

ثمّ يصل العلم الحضوري ـ في طريق تقويته وكمال ذاته ـ إلىٰ مستوىٰ ينفتح فيه أمام الإنسان باب المعارف القيّمة الأُخرىٰ ومنها المعرفة التوحيدية.

عندما يسمو إدراك الإنسان الحضوري ويدرك حقيقة وجوده يرىٰ انّه موجود رابط وطفيلي ومرتبط بالله تعالىٰ تماماً، وكلّما تعمق إدراك ارتباطه بالله سُبحانه تعمقت معرفته به. ويمكن القول: انّ ما ذكرناه هنا هو من معاني عبارة «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**» الواردة في الروايات.

وعليه يكون الالتفات إلىٰ النفس منشأ لتقوية العلم الحضوري بالنفس، ويمثّل حركة تكاملية تنبعث من أعماق النفس وتكون منشأ للمعرفة الحضورية بالله والإدراك الشهودي للتوحيد.

انّ معرفة الله الحضورية والتوحيد الشهودي هما من أهمّ النتائج للالتفات إلىٰ النفس، لأنّها تحظىٰ بأهمّية قصوىٰ من الناحية الأخلاقية والمعنوية والتكامل الإنساني، وقلّما يُوفّق الإنسان للوصول إليها.

انّ التلازم بين معرفة النفس ومعرفة الله عزّوجلّ المستفاد من الرواية المذكورة تؤكّده آية قرآنية بطريق آخر حيث تقول:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١]
فهذه الآية تبيّن هذه الحقيقة وهي انّ الغفلة عن الله تعالىٰ تسبّب الغفلة عن النفس ودمار مستقبل الإنسان، لاسيّما وقد جاءت هذه العبارة في الآية السابقة ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[٢].

ويلاحظ انّ الرواية المذكورة تعتبر معرفة الله من لوازم معرفة النفس، في حين تعتبر الآية السابقة نسيان النفس من لوازم الغفلة عن الله، ونتيجة البيانين هي وجود علاقة واقعية وتكوينية خاصّة بين نفس الإنسان المخلوقة والمعلولة والمرتبطة وبين الله الخالق والعلة والمستقل وغير المرتبط، وهذه العلاقة التكوينية بين هٰذين الموجودين ـ الله عزّوجلّ والإنسان ـ هي المنشأ للعلاقة الخاصّة بين معرفة هٰذين الموجودين، لانّ الإرتباط الشديد والعميق لوجود الإنسان بالله لن يتحقّق بدون معرفة الله المفيض لوجوده.

(١) الحشر ١٩.
(٢) الحشر ١٨.

القسم الثالث

٢-٢

نشوء البحث عن الحقيقة في الإنسان

الفطرة وإدراك الحقيقة

القرآن وغريزة البحث عن الحقيقة

آفات وموانع البحث عن الحقيقة

الحدود الأخلاقية للتجسس والبحث

نشوء البحث عن الحقيقة في الإنسان

من جهة أُخرىٰ فإنّ الأثر الآخر للالتفات إلىٰ النفس هو البحث وتحصيل مجموعة من العلوم الحصولية والمعارف الذهنية الخاصّة، وهي علوم ذات تأثير إيجابيّ في حركة الإنسان التكاملية وتساميها.

انّ الالتفات إلىٰ النفس يستدعي تفكير الإنسان بنفسه وبالتالي معرفة النفس الإنسانية وماهيتها كموجود، من أين أتت؟ وما هو موقعها في الدنيا؟ وما هو اتجاه حركتها؟ (من أين؟ في أين؟ إلىٰ أين؟) ومن جهة أُخرىٰ فإنّ إدراك أعماق النفس وزواياها وتعقيداتها يدفع الإنسان لمعرفتها بعنوان كونها آية من آيات الله ومظهراً للكثير من الصفات الإلٰهية، وبهذه الرؤية للنفس ينفتح أمامه ميدان جديد للفكر، وينتهي بالتالي بالعلم والمعرفة الحصولية بشأن الله وأسمائه وصفاته.

أي انّ العلم بالنفس بملاحظة خصوصية وجودها الإرتباطي سيكون منطَلقاً للارتقاء نحو قِمم المعرفة الإلٰهية ومعرفة أسمائه وصفاته. وعلىٰ هذا الأساس سوف تنكشف له العلاقة الوثيقة بين الإنسان المخلوق والمرتبط بالله الخالق الرب والمعتمد له، ومن خلال هذه المعرفة الحصولية سينال نوعا آخر من المعرفة الإلٰهية أي المعرفة الإلٰهية الحصولية، ويمكن القول انّه يحتمل أن تكون الآيات القرآنية من قبيل:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[١].

أو: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٢] وآيات مشابهة أُخرىٰ ناظرة إلىٰ هذه المعرفة والمعرفة الإلٰهية الحصولية.

انّ بحث الإنسان عن نفسه بوصفها آية إلٰهية ذو تأثير في تحصيل المعارف القيّمة الأخرىٰ.

التأثير والفائدة الثالثة للالتفات إلىٰ النفس هو سوق الإنسان نحو التفكير في منافعه ومصالحه.

الإنسان ـ كما قلنا ـ يلتفت إلىٰ نفسه بدافع من حبّ النفس والذات، وبما انّ حبّ الذات هو الأساس لحدوث وبقاء مصاديق الحبّ الأُخرىٰ كحبّ البقاء وحبّ الكمال وحبّ العلم وحبّ الاقتدار و... كما أشرنا سابقاً، فإنّ الالتفات إلىٰ النفس يكون منشأً للالتفات إلىٰ هذه الأبعاد النفسية أيضاً، والمبادرة لمعرفة هذه الأبعاد الوجودية المحبوبة لديه وتشخيص طريق الوصول إليها ومن ثمّ السعي لتحصيلها.

وباختصار: انّ الالتفات إلىٰ النفس سيكون نافعا من جهات ثلاث أو يترتّب عليه ثلاثة آثار نافعة:

الأولىٰ: تحصيل المعرفة الحضورية الواعية بالنفس، ومن ثَمّ المعرفة الشهودية والحضورية الواعية بالله تعالىٰ.

الثانية: يكون الالتفات منشأً للمعرفة الحصولية بالنفس ومبدئها ومنتهاها، ومن خلال ذلك يتوصل إلىٰ المعرفة الإلٰهية الحصولية وسائر المعارف الضرورية.

الثالثة: يستوجب الالتفات اهتمام الإنسان بمعرفة كمالاته ومصالحه وطريقة تحصيلها والسعي نحوها، والتعرّف من جهة أُخرىٰ علىٰ عيوبه ونقائصه ومفاسده

---

(١) الذاريات ٢٠ و ٢١.
(٢) فصلت ٥٣.

والحيلولة دون تلوّثُ نفسه وإنحطاطها. وبديهي أنّ القيمة السامية لكلّ أثر من هذه الآثار في ذاتها تثبت أهمّية الالتفات إلىٰ النفس.

توضيح ذلك: بالتفات الإنسان لنفسه وشؤونها المختلفة يدرك وجود الكثير من الرغبات والميول في النفس والتي تستدعي تلبية المتطلّبات الباطنية نظير الرغبة في اقامة العلاقات مع الآخرين وتحصيل الكمال والعلم والقدرة وغيرها، وسيدرك انّ وجود كلّ واحد من هذه الميول الباطنية سيدفع الإنسان لبذل جهود خاصّة للوصول إلىٰ متعلّقه.

وعلىٰ هذا يدرك الإنسان من جهةٍ أنّه بحاجة إلىٰ أشياءَ وراء نفسه ولكي يلبّي حاجته لابدّ من تحصيلها، ويدرك من جهة أُخرىٰ انّ مجرّد وجود الميول والرغبات في النفس لا يكفي بل لابدّ من العمل والسعي لتحصيل ما يريد ويحتاج. إنّه يدرك جيّداً أنّ نجاحه في رفع هذه الحوائج وإشباع ميوله ورغباته رهن عمله بمعونة بعض الأشياء الخارجية.

انّ الإنسان وإنْ كان علىٰ علم بالحقيقتين المذكورتين الاّ انّه يجهل شيئين آخرين، خاصّةً في المراحل الأوّلية: انّه لا يعرف ما هي هذه الأشياء الخارجية التي بها يرفع حوائجه. وهكذا يجهل كيفية استخدامها علىٰ فرض معرفتها. فمن اللازم أن يعرف ما هو المؤثّر في رفع حوائجه، وهكذا طريقة استخدامه لها لكي يكون بالتالي قادرا علىٰ رفع حوائجه.

من هنا نقول: انّ حبّ العلم والبحث عن الحقيقة يقوم بدور كبير في رفع الحوائج وإشباع سائر الرغبات. حينما يلتفت الإنسان إلىٰ هذه الحقيقة وهي انّ قضاء حوائجه يتوقف علىٰ أشياء يلزمه معرفتها من قبلُ، فسوف يجد البحث عن الحقيقة وحبُّه الفطري للعلم اتجاهَه المحدّد، ويدرك الإنسان الأشياء التي تجب

معرفتها والعلم بها. وسوف يدرك انّ عليه معرفةَ أشياءَ يستعين بها علىٰ رفع حوائجه وتأمين مصالحه الحيوية، وأنّ عليه استخدام القوىٰ العقلية لمعرفة الأشياء التي يحتاجها الإنسان ويمكن أن تكون مؤثّرة في تكامله.

انّ المعارف الضرورية تُكتسب عن طريق القوىٰ الموجودة في باطن الإنسان، ففيه حبٌّ للمعرفة ووسائلها، سواء أكانت مرتبطة بالنفس أم بالجسم والأعضاء المادية، فإنّ يد الخالق قد سخّرتْها كلَّها للانسان. والنفس وإنْ أدركتْ أصل وجودها بالعلم الحضوري، الاّ انّ العلم بكيفية استخدامها والنتائج التي تترتّب عليها يكون من قبيل العلم الاكتسابي. انّنا ندرك وجود العقل الذي نفكّر به من خلال التأمل في ذواتنا، الاّ انّ المعلومات والإدراكات التي تحصل منه والنتائج التي نتوصل إليها باستخدام العقل والفكر ليست عين ذواتنا لكي تجدها النفس في ذاتها بالمشاهدة الحضورية لها، بل هي جزء من العلوم الإكتسابية التي تحصل للانسان من خارج ذاته.

انّ دافع تحصيل العلم ليس له جهة محدّدة في ذاته ولا يشير إلىٰ متعلّق خاصّ، بل له نسبة متساوية إزاء المعلومات كافة، ويجعل الإنسان توّاقا لتحصيل العلم بشأنها كلّها. ولكنْ بملاحظة الجهات الأُخرىٰ الموجودة في النفس يجعل الأولوية ـ في المرحلة الأُولىٰ علىٰ الأقل ـ لأشياء مؤثّرة في طريق تكامل النفس.

من الجدير هنا الإشارة إلىٰ هذه الملاحظة وهي انّ الالتفات إلىٰ النفس نظراً لتضمّنها أبعاداً مختلفة يقتضي الالتفات إلىٰ جميع تلك الأبعاد، فإذا تركّز التفاتنا علىٰ أحد الأبعاد النفسية فإنّ ذلك سيكون انحرافا عن مسيرة الفطرة لانّ فطرتها لا تقتضي التركيز علىٰ أحد الأبعاد والغفلة عن سائرها.

بل تقتضي أن تكون جميع أبعادها وشؤونها المختلفة موضوعا لحبّها والتفاتها.

أمّا الالتفات الناقص وأُحاديُّ البعد سيكون منشأً للانحراف وآثار سيئة، وملاحظة بُعد واحد تصبح بدورها عاملاً لاتصاف أعمال الإنسان بالسوء ومنشأً لقيمتها السلبيّة. وكلّما أمعنت النفس الإنسانية في هذا الاتجاه فانّها تزداد انحرافاً عن المنهج الأساسي للفطرة، فمثلاً لو التفتنا إلىٰ البعد المادي فقط لدىٰ الالتفات إلىٰ النفس وغفلنا عن بُعدها المعنوي فمن الطبيعي أن تتركّز النشاطات العضوية والظاهرية علىٰ ذلك البعد المادي أيضاً، وتحل اللذائذ والعلوم والمعارف المادية والبقاء والكمال المادي محلَّ الأهداف النهائية المنشودة لنا، وسوف نوجّه مساعينا ونشاطاتنا وننفق أعمارنا فيها. وعلىٰ هذا فلكي نسير بنحو صحيح في أعمالنا وسلوكنا لابدّ أن نلاحظ جميع الأبعاد في مقام الالتفات إلىٰ النفس، ونلاحظ جميع الجهات وكافة الشؤون في أعماق أرواحنا ونفوسنا.

انّ غريزة البحث عن الحقيقة تدفعنا بنحو فطري في الخطوة الأُولىٰ لمعرفة النفس، وسيتّضح لنا بالتالي ما هو موقعها في الوجود؟ وهل انّها مستقلة أم مرتبطة؟ فإنْ كانت مرتبطة فبأيّ شيء يكون ارتباطها؟

وعندما تتضح لنا الإجابة عن الأسئلة المذكورة وندرك هذه الحقيقة وهي انّ وجودنا غير مستقل وغير قائم بذاته، بل هو مرتبط ومحتاج فسنصل إلىٰ هذه النتيجة عن طريق العقل والفكر، وهي انّ الله سُبحانه هو الذي أوجده ويفيض عليه في كلّ آنٍ نعمة الوجود العظيمة، وهذا في ذاته يمثّل أهمَّ وأوثق علاقة نكتشفها بين النفس وبين موجود آخر، لانّ هذه العلاقة هي تلك العلاقة الإشراقية التي تمثّل أساس الوجود وهويته بكلّ معناها وأبعادها وحيثياتها وشؤونها. أجل، في هذا السياق نكتشف انّ وجود النفس الإنسانية قائم بالله تعالىٰ، ثمّ نعرف سائر موارد ارتباط النفس كارتباطها بالمجتمع لاستمرار الحياة الدنيوية وارتباطها

بالموجودات المادية في تأمين مصالحها، ونعرفها بعنوان كونها واقعة في هامش ذلك الإرتباط الأصيل أعني ارتباط وجود الإنسان بالله عزّوجلّ. وعليه فإنّ حبّ العلم والبحث عن الحقيقة في الإنسان ينتهي أخيراً إلىٰ معرفة الله سُبحانه الذي هو المصدر لوجود الإنسان.

الفطرة وإدراك الحقيقة

من زاوية أُخرىٰ انّ غريزة البحث عن الحقيقة نظراً لاهتمامها بادراك الواقع فانّها في مقام تحصيل العلم تقتضي اكتساب علم يرشد الإنسان إلىٰ الواقع الحقيقي بوضوح. انّ مقتضىٰ البحث عن الحقيقة في الإنسان ليس مجرّد حصول الاعتقاد، بل ما يُشبع فطرته الإنسانية وحبَّه للبحث عن الحقيقة هو تحصيل العلم المطابق للواقع والوصول إلىٰ مرحلة اليقين والابتعاد عن الجهل والشك والظنّ. وعليه فإنّ الإكتفاء بالظنّ والوهم سيكون انحرافا عن مسيرة غريزة البحث عن الحقيقة. وعلىٰ هذا فإذا عجز عن مشاهدة الحقائق بالعلم الحضوري فانّه يجب عليه ـ علىٰ الأقل ـ أن يدرك الحقائق بالعلم الحصولي القطعي. فمن الضروري أخلاقيا السعي لتحصيل العلم اليقيني والكشف الصحيح عن الواقع، ويكون الإكتفاء بأقلّ من ذلك مع إمكان المعرفة اليقينية ذا قيمة سلبيّة، وإذا كان للغفلة وعدم الالتفات للذات في المرحلة السابقة قيمة سلبيّة فسيكون البقاء علىٰ الشك والترديد في هذه المرحلة والإكتفاء بالظنّ والوهم والتمسك بالعقائد الخاطئة والجهل المركّب من الأمور المذمومة، وتتّصف بالقيمة الأخلاقية السلبيّة.

القرآن وغريزة البحث عن الحقيقة

في هذا المجال تدل الآيات القرآنية بوضوح وتؤكّد في موارد كثيرة علىٰ اليقين والقيمة الايجابية لأهل اليقين، وهم الذين يبحثون عن اليقين ولا يكتفون بالظنّ.

قال تعالىٰ في الآيات الأُولىٰ من سورة البقرة: ﴿**الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ...... وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١].

تؤكّد هذه الآيات علىٰ صفة اليقين بالآخرة كصفة بارزة تشير إلىٰ الهداية إلىٰ الطريق الصحيح، وأنّها المنشأ لفلاح الإنسان.

قال سُبحانه في آية أخرىٰ:

﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[٢].

هاتان الآيتان تفصحان عن هذه الحقيقة وهي أنّ الطريق مفتوح أمام الطالب، ومجال المعرفة الإلهية متوفّر لمن يبحث عن اليقين. إذنْ كلّ مَن لم يصل إلىٰ الحقيقة فإنّ التقصير منه، لانّه كما قال الأدباء: (انّ كلّ ورقة من أوراق الشجرة الخضراء في منظر النبيه دفتر لمعرفة الخالق).

أجل، انّ طرق معرفة الله والآيات الإلٰهية خارجَ النفس وداخلَها كثيرة لاتحصىٰ. جاء في آية أخرىٰ:

﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾[٣].

---

(١) البقرة ١ ـ ٥. (٢) الذاريات ٢٠ و ٢١.

(٣) الرعد ٢.

فالآية الشريفة تعتبر البحث عن اليقين هدفاً ساميا لتدبير النظام الكوني وبسط الآيات الإلٰهية، وتطرحه بلحن الرجاء والأمل في تحقّقه كأمر مطلوب ومراد في إطار هذا النظام.

وهكذا في آيات مختلفة كقوله تعالىٰ: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[١]. ذكر أهل اليقين بتعابير مختلفة وبذلك يذكّر بمقامهم السامي وقربهم.

وهناك آيات كثيرة أُخرىٰ ترغّب الإنسان بتعابير مختلفة من قبيل: التعقل والتدبر والتفكّر للكشف عن الحقيقة والإدراك الواقعي للموجودات، وقد ذكرناها سابقاً في بعض المناسبات ولا نعيدها هنا.

وفي بعض الآيات ذمّ الله عزّوجلّ الذين لم يستخدموا قواهم المدركة التي أنعم الله بها عليهم بصورة صحيحة لكي يكتشفوا الواقعيات كما هي عليه، وأخبر عن العقاب الأليم الذي ينتظر هؤلاء، نشير هنا إلىٰ إحداها حيث قال تعالىٰ:

﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[٢]. هذه الآية وإنْ أشرنا إليها في الماضي الاّ انّ مصبّ اهتمامنا هناك أنّ الآية تعتبر الغفلة أساساً للشقاء، في حين نستشهد بها هنا لبيان هذه النكتة، وهي أنّ سبب سقوط هؤلاء يكمن في عدم استخدامهم العقل كما ينبغي، فلم يكتشفوا به واقع الأشياء. فمن الواضح أنّ كلّ انسان يدرك ببصره وسمعه وقلبه بعض الأشياء، وله رؤية وتفسير للكون والإنسان سواء أصاب في ادراكه وتفسيره أم أخطأ، وليس مقصود الآية قطعاً أنّهم لا يدركون به شيئاً وليس لهم أيّ إدراك عن العالم، فإنّ هناك أشياء كثيرة تشغل فكر الإنسان وقواه المدركة،

---

(١) البقرة ١١٨.

(٢) الأعراف ١٧٩.

وحتىٰ الحيوانات تدرك بسمعها وبصرها وحواسها بعض الأشياء. وقد كان للكفار والمشركين المذمومين أيضاً أفكار وعقائد يلتزمون بها وإنْ لم يذعنوا لأقوال أنبياء الله الحقّة والآيات الإلٰهية، وعليه ليست الآية بصدد انكار أساس الإدراك والفهم والبصر والسمع لديهم، بل انّهم بلحاظ اعتقادهم بمجموعة من الأوهام والخرافات والعقائد المشوبة بالشرك، ولكونهم يعيشون الجهل المركّب أو الظنّ الباطل أو الشك والترديد فإنّ الآية آنفة الذكر تهدّدهم بسبب فقدانهم الإدراكَ الصحيح والمطابق للواقع والتفسير المعقول، وعدمِ استخدام قواهم المدركة بصورة صحيحة ودقيقة، وتعتبر هذه الخصلة مصداقاً ولوناً من الغفلة.

انّ غير الغافلين يسعون لنيل المعرفة الصحيحة عن طريق العقل والفكر وبمعونة أبصارهم وأسماعهم، لانّ الرؤية الصحيحة والتفسير الصحيح للكون والإنسان سيكون الأساس للحياة السعيدة والسلوك الناجح، وتتوقف عليه دنيا الإنسان وآخرته ومستقبله ومصيره. ومن يغفل عن هذه الأمور الحساسة والأساسية فهو غافل في الواقع عن مستقبله ومصيره والوجهة الصحيحة للحياة.

وتحذّرنا مجموعة من الآيات القرآنية وبتعابير مختلفة من الاتّباع والإستناد إلىٰ غير العلم، كالآية القائلة:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1].

أو القائلة:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾[2].

أو القائلة:

---

(١) الإسراء ٣٦.
(٢) الحج ٧١.

﴿افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١].

أو القائلة:

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[٢].

أو:

﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٣].

وآيات اُخرىٰ كثيرة تؤكّد علىٰ نفس الموضوع.

فليس من الصحيح أن يكتفي الانسان بعقائد ظنّية في مقام معرفة الحقائق. انّ الإكتفاء بالظنّ وعدم اتّباع العلم واليقين طريق خطير، وصحّته غير مضمونة. إذا حصلنا علىٰ عقيدة ورؤية غير مطابقة للواقع فانّنا لا نتكامل من خلالها، وليس هذا فحسبُ بل انّها سوف تضلّنا.

انّ من يبني أساس منهجه وسلوكه في الحياة علىٰ الظنّ هو كمن يبني بيته علىٰ حافة هي علىٰ وشك الانهيار وبتعبير القرآن: (علىٰ شفا جرف هار) فبناؤه في هذه الحالة فاقد للقاعدة والأساس، وسرعان ما ينهار ويسقط في جهنم ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[٤].

وعليه فإنّ المرحلة الثانية من مراحل تكامل الإنسان بعد مرحلة اليقظة أو الانتباه من الغفلة هو أن يستخدم الإنسان عقله بنحو صحيح ويكتشف الواقع بدقة كما هو عليه ويصل إلىٰ الحقائق.

في هذه المرحلة تكون الفضيلة الأخلاقية عبارة عن الاهتمام بتحصيل العلم اليقيني، وسيكون ما يقابله وهو البقاء علىٰ حالة الشك والترديد أو الإكتفاء بالظنّ

---

(١) الأنعام ١٤٤.
(٢) النجم ٢٨.
(٣) الحج ٨.
(٤) التوبة ١٠٩.

عملاً غير صالح، وكما ذكرنا آنفا انّه مذموم في القرآن جدّاً.

ومن الواضح أنّ الجهل في البداية أمر طبيعي لكلّ انسان فإنّه في ما عدا العلوم الفطرية المحدودة التي يعلمها في البداية بشكل نصف واعٍ وغير كامل يكون جاهلاً بالقضايا الأخرىٰ، الاّ انّ الله تعالىٰ قد منحه القابلية والقدرة علىٰ إنقاذ نفسه من هذا الجهل والظلام والدخول في ساحة النور.

وحيث إنّ الجهل الابتدائي أمر غير اختياري فلا يمكن أن يكون منشأ للمدح والذمّ، ولا ينبغي ملامة الإنسان ومؤاخذته علىٰ أنّه وُلد من البداية جاهلا؟ وهنا قد يثار هذا السؤال: إذنْ لماذا يذمّ القرآن الإنسان علىٰ جهله؟

ونقول في الإجابة: انّ أساس الجهل الابتدائي وإنْ كان غير اختياري الاّ انّه مع توفّر القابلية علىٰ تحصيل العلم في الإنسان فإنّ البقاء أو الخروج من الجهل سيكون في اختيار الإنسان. وذمّ الإنسان في القرآن ليس لجهله الابتدائي القهري، بل بلحاظ بقائه في الجهل إذ انّه ـ مع توفّر القدرة والقابلية علىٰ الخروج منه ـ أمر مذموم، ويصحّ توبيخه علىٰ إهماله وتهاونه، وترك تفكيره وسعيه للخروج من الظلام الفكري. وعلىٰ الإنسان بحكم فطرته أن يسعىٰ سعيه ويستغلّ قدراته واستعداداته ولا يستقر حتّىٰ يكتشف الحقيقة، خاصّةً في القضايا المصيرية. لقد أعلن القرآن ذمّ الذين يتهربون من أداء واجباتهم بذريعة عدم العلم واليقين بالآخرة، ولا يتابعون إدراك الحقائق ولا يهتمّون بالقيام بواجباتهم. كانوا عندما يقال لهم: لماذا لا تؤمنون بالمعاد؟ يقولون: لسنا علىٰ يقين من المعاد، إذنْ لا نؤمن به. والقرآن يذمّهم علىٰ قولهم هذا.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ

إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[١].

صحيح انّ علىٰ الانسان أن يعمل بكلّ ما يتيقّن به، الاّ انّ ذلك لا يعني أن يبقىٰ علىٰ حالة الشك والترديد إزاء ما لا يتيقّن به أو يكتفي بالظنّ، بل من واجبات الانسان أن يبادر لتحصيل اليقين ويخرج من حالة الشك والريب.

انّ الله سُبحانه قد زوّد الإنسان من جهة بقوة الإدراك والعقل والفكر، ومن جهة أُخرىٰ أنزل إليه آياته البيّنات وقدّم له دلائل واضحة يكون بها قادراً علىٰ الوصول إلىٰ اليقين.

بناء علىٰ ذلك حينما يستنكر القرآن العمل بالظنّ فإنّ مفهومه هو: اطلبوا العلم اليقيني، وليس معناه اكتفوا عمليّاً بما تعلمونه بالفعل، وليس عليكم مسؤولية غير ذلك.

آفات وموانع البحث عن الحقيقة

كما قلنا سابقاً انّ أهمَّ الآفات والموانع في طريق طلب العلم اليقيني هي الآفات النفسية التي تصدّ الإنسان عن البحث عن الحقيقة والوصول إلىٰ العلم اليقيني. فمن كان متّبعا لهواه لا يودّ كشف الواقع ويستنكف عن السعي نحو الحقيقة وتحصيل العلم اليقيني، لأنّه يحتمل وقوع مشكلة تصدّه عن الوصول إلىٰ رغباته.

لدىٰ التحليل لهذه الحالة نصل إلىٰ انّ مثل هذا الإنسان لم يعرف ـ في الواقع ـ نفسه بنحو كامل، لظنّه بأنّ تمام حقيقته ووجوده يكمن في جسمه، فيلخّص حياته في هذه الحياة الدنيوية وغايتها في الوصول إلىٰ رغباته النفسية. ويركّز جلّ اهتمامه علىٰ الأمور المادية وينسىٰ سائر أبعاده الوجودية. انّه يطلب علما يكون

---

(١) الجاثية ٣٢.

في خدمة أهواء نفسه ويشبع ميوله المادية فقط، ولا يتحمّل أتعاب طلب العلم الذي لا يخدم هواه، ليس هذا فحسب، بل ينكر كلّ علم يعارض مقتضيات أهواء نفسه. يقول تعالىٰ في آية قرآنية:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[1].

انّ دافع حبّ التسلط والعدوان علىٰ الآخرين يسبّب عدم طلب العلم اليقيني وانكاره حتّىٰ لو توفّرت أسبابه. وعليه فإنّ أهواء النفس من الآفات التي تصدّ الإنسان عن البحث عن الحقيقة وطلب العلم اليقيني.

الآفة الأُخرىٰ لطلب العلم اليقيني هو (التقليد). انّ فطرة الإنسان تقتضي اختيار العلم الذي يوصله إلىٰ الواقع، فإذا اكتفىٰ بتقليد الآخرين في الفكر والسلوك وأذعن بصورة عمياء لعقائد أسلافه وآبائه وأجداده دون ملاحظة انطباقها علىٰ الواقع وعدمه فانّه يكون قد سلك ضد فطرته. ولقد ذمّ القرآن بشدة التقليدَ الأعمىٰ، كما يرىٰ انّ من الخطأ اتّباع الهوىٰ والإعراض عن إدراك الحقائق. وبما انّنا قد تحدّثنا بالتفصيل في هذا المجال سابقاً نكتفي هنا بهذه الخلاصة، ومن يروم التفصيل فليراجع البحوث السابقة.

الآفة أو الرذيلة الأُخرىٰ هي أن يترك الإنسان المعلومات التي تنفع دنياه أو آخرته ويطلب ما لا ينفعه لدنياه وآخرته. في هذه الحالة يكون فعله لغواً، والآيات التي تذمّ اللغو تشمل هذا الفعل أيضاً فانّه مصداق للأفعال اللغوية.

الحدود الأخلاقية للتجسس والبحث

استند القرآن الكريم فيما يرتبط بطلب العلم إلىٰ ملاحظة لطيفة ودقيقة وينفعنا الالتفات إليها.

---

(١) النمل ١٤.

انّ العلم وإنْ كان في ذاته ذا قيمة سامية ولكنْ في تقييم العلم ينبغي أن لا نكتفي بقيمته الذاتية ونغفل عن العوامل والقيم الأخرىٰ. فمن العوامل التي يمكن أن تؤثّر علىٰ قيمة العلم أو لها التأثير البالغ علىٰ رفعة شأنه أو الحطّ منه هو متعلّقه أعني (المعلوم). انّ بعض الأمور لا تترتّب عليها فائدة، ليس هذا فحسبُ بل يكون العلم بها ضارا، أي تكون القيمة السلبيّة للأمر المعلوم بمستوىٰ لا يكون قابلا للقياس إلىٰ القيمة الذاتية للعلم، ولا يسلب العلم كلّ قيمته الإيجابية فحسبُ، بل انّ مثل هذه العلوم يكون شراً وسيئا وضاراً في حياة الإنسان، وأقلّ أضراره هو أن يعقّد الأمر علىٰ الإنسان.

صحيح انّ الإنسان يهوىٰ إدراك كلّ شيء بدافع من حس البحث عن الحقيقة والتجسس ولكنْ عليه أن ينتبه انّ معرفة كلّ شيء لا تكون في صالحه، بل انّ إدراك بعض القضايا يضره ويستتبع ندمه.

انّ الرغبة في المعرفة كأيّ رغبة أُخرىٰ لا حدّ لها في ذاتها وتشمل دائرة واسعة، والإنسان يودّ إدراك كلّ شيء الاّ انّ الطريق الفطري لكلّ رغبة ومنها الرغبة في المعرفة هو أن تجد وجهتها الصحيحة مع الالتفات إلىٰ سائر الأبعاد الوجودية للانسان والميول والرغبات التي أودعها الله سُبحانه في ذاته، وينبغي القول انّ رغبات الإنسان تتوازن فيما بينها في المنهج الفطري. والسبب في هذا التوازن الذي يجعل كلّ الرغبات في طريق الكمال الإنساني وفي الصراط المستقيم ـ حسب الاصطلاح القرآني ـ هو حبّ الكمال الإنساني، فنظراً لحبّ الإنسان الفطري لكماله الشامل فلابدّ أن تقع جهوده العلمية وكلّ مساعيه الأُخرىٰ في هذا الطريق.

انّ البحث عن الحقيقة رغبة فطرية وهكذا طلب الالتذاذ، ولكنْ كما انّ اللذائذ

يجب أن تكون بنحو لا يضر بأبعاد النفس الأخرىٰ، فإذا استتبعت آلاماً أكبر وحرمت الإنسان من بلوغ بعض الكمالات النفسية والإنسانية فانّها لا تكون مرغوبة، فكذلك تحصيل العلم فيما لو زاحم الكمالات الإنسانية الأُخرىٰ، كالعلوم المحرمة شرعا فإنّ قيمة مثل هذا العلم تكون سلبيّة.

يوجد في الإنسان ـ مثلاً ـ روح الإستطلاع والتجسس وفق طبيعته الأوّلية ويرغب في الاطلاع علىٰ حياة الآخرين الخاصّة، الاّ انّ هذا الاطّلاع ليس غير نافع له فحسبُ بل يستتبع بعض الأضرار، وإذا شاع ذلك بين الناس فسوف تحدث مشكلات في الحياة الاجتماعية. وعليه لا تكون العلوم التي تحصل عن طريق التجسس علىٰ أسرار حياة الآخرين نافعة لنا، فلابدّ أن نحدّد رغبة البحث عن الحقيقة في ذواتنا تجاه هذه الأسرار.

والقرآن الكريم يصدّنا عن هذا النوع من البحث والتجسس علىٰ أسرار الآخرين ويعدّه من الرذائل الأخلاقية ويقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾[1].

أجل، عدّت الآية المذكورة هذا النوع من التجسس علىٰ خصوصيات حياة الآخرين ـ إلىٰ جانب الغيبة وسوء الظنّ ـ من الرذائل الأخلاقية، انّ الفحص والبحث عن الحقيقة وإنْ كان قيّما في ذاته الاّ انّه في هذه الموارد لا يفقد قيمته فحسبُ، بل بسبب ما يترتّب عليه من فساد سيكون ذا قيمة سلبيّة أيضاً ويكون منهيّاً عنه ومحرّماً إلهيّاً.

النموذج الثاني الذي استند إليه القرآن الكريم ويُعدّ من روائع التعليمات

---

(١) الحجرات ١٢.

القرآنية ويعتبر نوعاً آخر من التحديد لحس الاطلاع هو ما جاء في هذه الآيـة القائلة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾[١].

أجل لو سألتم الرسول ﷺ حينما ينزل القرآن فانّه سيجيبكم ولكـنّ ذلك لا يكون في صالحكم. فمن أنزل اليكم القرآن هو الأعرف بما ينبغي أن يعلّمكم، فلا تسألوا لانّ جوابه سيكون ضاراً بكم.

السؤال طريق لتحصيل العلم وتلقّي المعلومات، ونظراً إلىٰ انّه ليس كلّ عـلم نافعا فلا يكون كلّ سؤال صحيحا وفي محله أيضاً، والقيمة الإيجابية أو السلبيّة لكلّ علم تسري إلىٰ الأسئلة التابعة له أيضاً. ومن هنا فإنّ القرآن يأمر بالسؤال عما لا نعلم **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**[٢] ويمنعنا من السـؤال فـي بعض الموارد، كالسؤال عما يكون العلم به مـحرّما أو يـخلق مشكـلة للانسـان ويجعل تكليفه شاقّا ولا يطاق، ويمكن أن يكون سبباً لكفره وإلحاده. من هنا يأمر المؤمنين في عـدد مـن الآيـات بـقوله: **﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾**[٣]. أو **﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾** وهو ما أشرنا إليه آنفاً.

يحكي القرآن قصة بنيإسرائيل الذين عقّدوا الأمور عـلىٰ أنـفسهم بـاسئلتهم التافهة من موسىٰ ﷺ وهذا هو أقلّ ضرر يترتّب علىٰ اسئلة بني اسرائيل، وعـلىٰ هذا ينبغي أن نراعي حدود السؤال والإستطلاع لكي لا نواجه العواقب السيئة.

---

(١) المائدة ١٠١ و ١٠٢. (٢) النحل ٤٣.
(٣) المائدة ١٠١.

القسم الثالث

٣-٢

حبّ الاقتدار

تجلّيات مختلفة لحبّ الاقتدار
الرغبات المتفرعة عن حبّ الاقتدار
الأخلاق وحبّ الاقتدار
تفعيل حبّ الاقتدار في الإنسان
القرآن وحبّ الاقتدار
قيمة القدرة في القرآن
مجالات توجيه القدرة

مراتب المعرفة الثالثة

الآثار السيئة للاقتدار
التربية القرآنية في مجال الاقتدار
خلاصة القول

حبّ الاقتدار

من الرغبات القوية في الإنسان هو (حبّ القدرة) أو حبّ الاقتدار، ويظهر منذ السنين الأُولىٰ في حياة الطفل، ويكون فعالا فيه بمقدار ما يتوفّر له المجال لابراز الاقتدار ويعمل علىٰ توجيه أفعاله وسلوكه.

تجلّيات مختلفة لحبّ الاقتدار

من خلال تجارب بسيطة يمكن معرفة انّ الطفل ينتابه نوع من الشعور بالسرور حينما يُوفّق لإنجاز عمل ما لأول مرة، ويودّ لو يتكرّر ذلك العمل ليكتسب اقتداراً أكبر.

فمثلاً، يشعر الطفل في المرة الأُولىٰ التي يستطيع فيها الوقوف علىٰ قدميه بالسرور الشديد من هذا الاظهار للاقتدار وينتابه نوع من الشعور بالزهو، يدفعه ذلك للعزم علىٰ إعادة ذلك العمل والسعي لاكتساب المزيد من القوة والاقتدار لإنجازه.

من الطبيعي أن تبدو للطفل في السنة الأُولىٰ قدرات كائنة في دائرة معلوماته، ونظراً لوجود قدرات كثيرة غير معروفة لديه فانّه لا ينتبه إليها أساساً ولا يعي انّ الإنسان قادر علىٰ اكتساب تلك القدرات.

وعليه يشتد حبّ الاقتدار في الطفل ويتوضح اتجاهه ويزداد تشخّصا بمقدار ما تتوسع لديه دائرة المعلومات، ويزداد معرفةً بأنواع القدرات وامكانية نيلها من قِبل الإنسان.

انّ حبّ الاقتدار في الإنسان رغبة فطرية وليست له جهة محددة ولا تعيّن خاصّ، ولكنْ باتساع المعلومات والمعارف لديه فانّه يجد جهته وتشخصه، ويتوقف ذلك علىٰ أن يعرف الإنسان أي عمل يمكن القيام به ويُوفّق لانجازه وأيّة قدرة يمكن اكتسابها ويُوفّق لتحصيلها.

وعليه فإنّ الشعور بحبّ الاقتدار في الإنسان لا يتمّ اشباعه تماماً ولن يتوقف ويركد في نقطة ما، بل انّ حبّ الاقتدار في كلّ آنٍ وفي كلّ موقع يكتشف فيه مجالاً جديداً للإبراز ويتعرّف علىٰ قدرة مفقودة وتتوفّر له امكانية نيلها، يدفعه لبذل جهود جديدة لنيلها.

من الطبيعي انّ القدرات الابتدائية التي تتراءىٰ للانسان هي القدرات الجسمانية المحسوسة والملموسة بنحو أكبر والتي تُنال بدون وسائط، أي القدرة علىٰ الأفعال التي تصدر من الجسم وتحتاج إلىٰ قوة جسمية خاصّة. فالإنسان يرغب في تعاظم القوة في جسمه لكي ينجز أعمالا اثقل وأصعب وأهمّ.

والإنسان يتعرّف تدريجيّاً علىٰ القدرات المستندة إلىٰ الوسائط والأدوات وعلىٰ قوة العتلة، واستخدام العتلة والمعدات لانجاز أعمال أعظم لا يمكن إنجازها بالقوىٰ الجسمية مباشرة وبدون استخدام العتلة والمعدات، في هذه الحالة يتدخل فيها العلم والتجربة تدريجيّاً لاستخدام المعدات ويتطور هذا التدخل يوماً بعد آخر، أي انّ الانسان ينال بفضل العلم والتجربة نوعاً آخر من القدرة، وحينما تصل قدرة جسم الإنسان ذروتها وحسب التعبير القرآني ﴿**بَلَغَ أَشُدَّهُ**﴾ سوف

يفكّر في استخدام قدرة هي فوق مستوىٰ الجسم الاعتيادي بصورة غير مباشرة وبواسطة المعدات والعتلة في الطبيعة والظواهر الطبيعية، الأمر الذي يتطلّب علوماً وتجارب خاصّةً ينبغي عليه تحصيلها كي يعرف الوسيلة التي توصله إلىٰ مقاصده.

في المرحلة الأُخرىٰ يستخدم قدرة أُخرىٰ تُكتسب بالمال والثروة، فحينما يلتفت الإنسان إلىٰ انّ المال يمنحه القوة والقدرة لإنجاز الكثير من الأعمال الاجتماعية فإنّ حبّ الاقتدار المودع في ذاته يدفعه للسعي الحثيث لتحصيل المال ـ المانح للقدرة ـ لكي ينجز به بعض الأعمال.

فاكتساب المال والثروة يمكن أن يتمّ بدوافع مختلفة. وقد ذكّرنا سابقاً بهذه الملاحظة وهي انّ العمل والسعي قد يتمّ بدوافع مختلفة، كأن يكون اكتساب المال وتوفير الثروة لتلبية متطلّبات الجسم كالمأكل والملبس وما شاكلهما، ولكنْ قد يتمّ هذا السعي كواسطة لاكتساب القدرة وبدافع من حبّ الاقتدار، وأحياناً يمكن أن يكون ذلك كواسطة للعبادة كمن يسعى وينشط ليكتسب المال ثمّ ينفقه في سبيل الله سُبحانه ويعين الضعفاء والفقراء، أو ينفقه حسب الأمر الإلٰهي في مشاريع ذات منفعة عامّة، وسيكون هذا دافعاً ثالثاً لتحصيل المال واكتساب الثروة. وأخيراً يمكن أن يكون الدافع لاكتساب المال ـ كما ورد في الروايات ـ «**الكادُّ علىٰ عياله كالمجاهد في سبيل الله**»[1] هو توفير المأكل للأهل والأبناء وتوفير متطلّبات المعيشة بحثٍّ من الدافع الإلٰهي نحو ذلك.

ويلتفت الإنسان تدريجيّاً إلىٰ انّ اكتساب نوع آخر من القدرة يتيح له التسلط علىٰ القوىٰ الطبيعية. إلىٰ هنا كان الكلام في قدرات يكتسبها الإنسان في إطار الطبيعة باستخدام الأسباب والآلات، وهنا يبدأ بالتفكير في اكتساب نوع آخر من

---

(١) بحار الانوار ج ١٠٣ الباب ١ الرواية ٥٩.

القدرة ليقهر القوىٰ الطبيعية. في المرحلة السابقة كان الإنسان عاجزا أمام قوىٰ الطبيعة، وكان يسعى قدر المستطاع لتسخيرها في سبيل أهدافه، ولكنْ هنا يسعى ليقهر قوىٰ الطبيعة ويكتسب قدرة لا تكون مقهورة للقوىٰ الطبيعية، ولهذا يجتهد في اكتساب قدرة روحية عن طريق الرياضة ليقهر قوىٰ الطبيعة ولا يكون محتاجا لاستخدامها.

وأخيراً يكون النوع الآخر من القدرة وهي القدرة الاجتماعية التي تستند إلىٰ النظام القيمي والثقافي السائد في المجتمع. فكلّ مجتمع يعتبر أموراً وسيلة للاقتدار والتسلط علىٰ الآخرين والتحكم في سلوكهم لكي يجعل إرادتهم تابعة لارادته بل يحظىٰ بالهيمنة علىٰ قلوبهم.

الرغبات المتفرعة من حبّ الاقتدار

الأنواع التي ذكرناها تعدّ من القدرة، وهنا نقول انّ لحبّ الإستقلال ـ وهو من الرغبات النفسية في الإنسان أيضاً ـ جذوراً في حبّ الاقتدار. فيمكن القول انّ رغبة الإنسان في أن يكون مستقلا وغير محتاج ومستند إلىٰ الآخرين لها جذور في حبّه للاقتدار أو انّ منشأها هو حبّ الاقتدار، وعليه فإنّ حبّ الإستقلال لدىٰ الإنسان من فروع حبّ الاقتدار وشعبه.

فما نلاحظه من رغبة الاطفال في الإستقلال لدىٰ التعامل وإنجاز الأعمال بأن يفلتوا من قبضة آبائهم ليسيروا معتمدين علىٰ أنفسهم، وهكذا الضعفاء والعاجزون حيث يسعون قدر المستطاع للاعتماد علىٰ أنفسهم ولا يرضون أن يمدّ لهم أحد يد العون سيّما إذا كانت بروح الشفقة. هذا السلوك وأمثاله يدل علىٰ رغبة الإنسان في أن يكون مستقلا وينجز أعماله بنفسه، أي يحبّ أن يكون قادراً علىٰ إنجاز أعماله بنفسه.

ومن الرغبات التي لها جذور في حبّ الاقتدار هو رغبة الإنسان في أن لا يكون طفيليّاً للآخرين ولا يعقد آماله عليهم، وبعبارة واضحة ومختصرة: أن يكون واثقا من نفسه. وهذا أيضاً له جذور في حبّ الاقتدار في الإنسان.

انّ الثقة بالنفس تتمّ حينما يؤمن الإنسان بقدرته. ولكنْ قد يرغب الإنسان رغم إيمانه بقدرته في أن يكون عالة علىٰ الآخرين ولا يريد استخدام قدرته، وهذه حالة يطلق عليها الكسل وحبّ الراحة، وعليه فلايعني كلّ استناد إلىٰ الآخرين فقدان الثقة بالنفس، وما نريد قوله هنا هو انّ الإنسان يكون واثقا من نفسه حينما يجد فيها قدرة يستند إليها، وبعبارة أُخرىٰ أن يؤمن بقدرته. فمن كان ضعيفا أو يرىٰ نفسه ضعيفا لا يمكن أن يتمتّع بالثقة بالنفس الّا بمقدار قدرته وحدودها التي يؤمن بها.

ومن الرغبات التي تتفرع وتتشعب من حبّ الاقتدار المتأصّل هو حبّ المقام والجاه، فهدف الذين يرومون المقام هو جعل الآخرين تحت سلطتهم وإمرتهم لاستثمار أعمالهم وسلوكهم خدمة لمصالحهم ومقاصدهم أو لتسخير قلوبهم. وأغلب علماء النفس يعدّون حبّ الجاه والرغبة في كسب المحبّة والاحترام من مقولات أخرىٰ، ولكنْ يمكن القول أنّ جميع هذه الرغبات التي ذكرناها فروع وأغصان للرغبة الأساسية والمتجذّرة وهي حبّ القدرة في الإنسان.

الأخلاق وحبّ الاقتدار

بما انّ حبّ الاقتدار رغبة فطرية فانّه لا يدخل في زمرة القيم الأخلاقية، كما انّ سائر الرغبات الطبيعية لكونها غير اختيارية فهي لا تتصف بالحُسن والقبح الأخلاقيَّين. أجل انّها خير من الناحية الوجودية والاصطلاح الفلسفي لكونها

كمالاً للانسان أو وسيلة لتكامله، وهذا لا يمتّ بصلة للاصطلاح الأخلاقي، لانّ الوجود الفطري والتكويني لهذه الرغبات خارج أساساً عن الاختيار وبالتالي عن دائرة الأخلاق ولا يتّصف بقيمة أخلاقية إيجابيّة أو سلبيّة.

انّ حبّ الاقتدار يرتبط بالأخلاق في موقع يكون فيه منشأ لصدور نوع من السلوك الاختياري، ويبدو علىٰ شكل استخدام القدرة أو اكتساب القدرة في أعمال الإنسان الاختيارية، وفي هذه الحالة يتصف بالحُسن والقبح.

تفعيل حبّ الاقتدار في الإنسان

يجدر هنا ذكر ملاحظة أُخرىٰ وهي انّ هذا الحبّ وإنْ كان موجوداً في باطن الإنسان ولعلّه يصاحبه منذ خلق الروح وعند تعلّقها بالجسم، ولكنْ يجب الالتفات إلىٰ انّ هذه الرغبة الفطرية لا تصبح فعّالة في الإنسان الاّ حينما يرافقها الشعور بالعجز والحاجة. بعبارة أُخرىٰ انّ حبّ اكتساب القدرة يدفع الإنسان للسعي والعمل حينما يشعر أنه فاقد لنوع من القدرة التي يحتاجها، وبعبارة أُخرىٰ أن يعرف وجود قدرة مطلوبة في الخارج ويدرك انّه فاقد لتلك القدرة المعروفة. إذنْ سيكون الالتفات إلىٰ العجز تجاه قوة قد علم بها وتعرّف عليها منشأ لتفعيل هذه الرغبة الطبيعية أعني حبّ الاقتدار في الإنسان ويدفعه نحو الجدّ والسعي وراء الحصول عليه.

وممّا قلنا يُعلم انّ حبّ الاقتدار ذو جذور طبيعية وفطرية في الإنسان وهو من رغباته الأصيلة الاّ انّ تفعيله واتجاهه ودفعه للانسان نحو الجدّ والنشاط بحاجة إلىٰ ثلاثة شروط أُخرىٰ من مقولة المعرفة والالتفات هي:

١ ـ معرفة وجود قوة خارجية.

٢ ـ معرفة عجزه الذاتي وفقدان تلك القوة.

٣ـ شعوره الذاتي بالحاجة إلىٰ تلك القوة.

وعليه فكما لا يكون حبّ الذات تلقائيا منشأ لايّ فعل في الإنسان، فكذلك حبّ الاقتدار وحده فانّه لا يكون مبدء لنشاطه بل لابدّ من اقترانه بالشروط المذكورة، وبعبارة أُخرىٰ أن يعلم انّه فاقد لنوع من القدرة التي هو بحاجة إليها ويجب اكتسابها. ومن هنا قال الكثير من علماء النفس: انّ العامل علىٰ نشاط الإنسان هو الحاجة، والحاجة هي التي تدفعه نحو العمل والسعي، وبعد اعتبار هذا الدور له بادروا للبحث والدراسة بشأن ماهيته وحقيقته.

الحقيقة هي انّ الحاجة ذاتها ـ لكونها حسب الاصطلاح الفلسفي أمراً عدميا ونوعا من الفقدان والعدم ـ لا يمكن أن تكون عاملا لنشاط الإنسان كما يعتقد علماء النفس. إذنْ الحاجة ليست شيئاً حتّىٰ يكون لها هذا الدور وإنّما هو ـ كما قلنا آنفا ـ الشعور بالحاجة، وهو الذي يكون عاملا لنشاط الإنسان، أي حينما يشعر الإنسان بالحاجة تنبعث فيه الرغبة لتحصيل ما يحتاج، ويكون في الواقع منشأ التأثير هو حبّ الإنسان للغنىٰ ورغبته في رفع حاجته، ولكنْ متىٰ وأين يؤثّر؟ ذلك إنّما يكون حينما يلتفت إلىٰ فقدانه. علىٰ أيّ حال، لا نريد القول كأغلب علماء النفس انّ الحاجة هي العامل للنشاط، ولكنْ يجب أن لا ننسىٰ انّ الشعور بالحاجة هو شرط لازم لنشاط الإنسان.

القرآن وحبّ الاقتدار

هنا وبعد بيان هذه المقدمة يطرح هذا السؤال: هل انّ حبّ القدرة بكلّ شؤونه ومظاهره رغبة فطرية من وجهة نظر القرآن الكريم؟ وهل هناك شاهد من الآيات القرآنية علىٰ ذلك؟ يجب القول في الإجابة انّ هناك آيات كثيرة في القرآن يمكن

ـ بصورة غير مباشرة ـ استنباط فطرية حبّ الاقتدار بكلّ شؤونه منها، بل يمكن استنتاج هذا الأمر من بعض الآيات بصورة مباشرة وبنحو واضح وبدون حاجة إلىٰ اعتبار الملازمات.

نلاحظ قصة آدمعليه السلام ووسوسة الشيطان له الواردة في القرآن الكريم.

حينما يعزم الشيطان علىٰ أن يوسوس لآدمعليه السلام حتّىٰ يدفعه للتناول من الشجرة المنهي عنها يقول له:

﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[1]. فبناء علىٰ ما يستفاد من هذه الآية: استند الشيطان في وسوسته لآدم وخداعه إلىٰ أمرين ليثير انتباهه ويدفعه للتناول من تلك الشجرة: استند أولاً إلىٰ الخلود قائلا له: هل أدلّك علىٰ شجرة الخلد، الشجرة التي متىٰ ما تناولت منها ستكون خالداً، أي أراد أن يستغلّ حبّ البقاء المتأصّل في روح آدمعليه السلام وهذا ليس موضوع بحثنا حاليّاً بل هي رغبة أُخرىٰ غير حبّ الاقتدار، وهي ما سنقوم بالبحث والدراسة بشأنها في المستقبل.

واستند ثانياً إلىٰ الاقتدار وأراد أن يسيء استغلال حبّ آدم له حتّىٰ يستطيع أن يغويه، ومن هنا قال له: هل أدلّك علىٰ ملك لا يزول ولا يبلى؟ (الملك) في عبارة الآية رمز القدرة، انّ اعظم قدرة لدىٰ الإنسان هي التسلط علىٰ الآخرين، ويعني القدرة الاجتماعية والتسلط علىٰ الآخرين أو القدرة الاجتماعية وهو ما نعبّر عنه بـ(السلطنة) وقد عبّر عنه بـ(الملك) في القرآن، ثمّ قال الشيطان له:

إن كنت راغبا في الخلود والقدرة التي لا تزول فعليك أن تتناول من شجرة الخلد.

ثمّ يحكي القرآن أنّ آدم وحواء قد تأثّرا بوساوس الشيطان وخُدعا بوعوده.

---

(١) طه ١٢٠.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾(١).

وهذا يدل بوضوح علىٰ انّ حبّ الخلود والقدرة متجذّر في آدم وحوّاء، فدفعهما لارتكاب هذا العمل المنهي عنه ليكسبا تلك القدرة.

من القصة المذكورة يمكن أن نستنبط انّ الشيطان كان عالما نفسانياً ماهراً، ويعلم بوجود حبّ الاقتدار في ذات الإنسان، وكانت خطته هي سوء استغلال وجود هذا الحبّ وإغواء آدم وحواء، وقام بهذا الأمر ونجح فيه. وهذا دليل علىٰ وجود هذا الحبّ في فطرة الإنسان، ويدل علىٰ انّ آدم كان يتصف بهذا الحبّ قبل هبوطه إلىٰ الأرض ومجيئه إلىٰ هذا العالم، وحبّه هذا أصبح منشأ لاستغلال الشيطان وخداعه به.

وجاء في آية أخرىٰ:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾(٢).

لقد خدع الشيطان آدم وقال: بما أنّكما تصبحان ملكين أو تكونان خالدين بالتناول من هذه الشجرة فإنّ الله قد منعكما منها.

قرأ بعض القراء (ملكين) في الآية بكسر اللام (ملِكين) وبذلك يكون أكثر انسجاما مع الآية السابقة، لانّ (ملِك) بكسر اللام في هذه الآية يكون صفة من (المُلك) بضم الميم الموجودة في الآية السابقة. وبناءً عليه يمكن القول: هذه القراءة أولىٰ لانّ تأكيد الآيتين في هذه الحالة سيكون علىٰ القدرة والخلود، وقد استغلّ الشيطان حبّ آدم لهما وقام بوسوسته.

---

(١) طه ١٢١.

(٢) الأعراف ٢٠.

وحتّىٰ لو قرأنا (ملكين) في آية البحث بالفتح، كما قرأوها فانّها قابلة للانسجام مع الآية السابقة بما نقدمه من توجيه. أي بما انّ الملائكة هم مظهر القدرة يمكن القول: في هذه الآية قام الشيطان بالوسوسة لآدم عن طريق حبّ الاقتدار أيضاً. ولعل الأصل في المُلك والملائكة والمِلك والمَلك شيء واحد وكلّها ترتبط بالتسلط والقدرة، أي انّ المِلك (بكسر الميم) تسلط اعتباري علىٰ الأشياء، والمُلك (بضم الميم) تسلط اعتباري علىٰ بني الإنسان، ولعل المَلَك (بفتح الميم واللام) يشترك معهما في الأصل أي انّ المَلَك بما يحظىٰ به من قدرة يدعى (مَلك) ويمكن أيضاً الاتيان بشاهد قرآني لتأييد ذلك، فالقرآن يعبّر لدىٰ تعريف جبرئيل عليه السلام وهو من الملائكة: **﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾**[١]، وذكره في آية أُخرىٰ بعبارة شديد القوىٰ **﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾**[٢] علىٰ بعض التفاسير حيث يعدّ جبرئيل مصداقاً لشديد القوىٰ.

علىٰ أيّ حال، فإنّ مثل هذه الآيات التي تتحدّث عن القدرة في تعريف ملك الوحي وتشير إليه بهذا العنوان يمكن أن تكون قرائن مؤيدة لهذا الأمر وهو أنّ الـ (مَلك) بفتح اللام أو الملائكة لهما أصل مشترك مع لفظ (المُلك) بضم الميم، و(المِلك) بكسر الميم، وقد لوحظ فيها مفهوم القدرة. وعليه يحتمل ما يلي في الآية أيضاً، وهو انّنا لو قرأنا (ملكين) بفتح اللام فانّها تكون قد استخدمت لفظ (الملَك) كرمز للقدرة، وأراد الشيطان أن يقول لآدم عليه السلام بانّكما إذا رغبتما في أن تكونا ملَكَين أي موجودين مقتدرين فإنّ عليكما التناول من هذه الشجرة.

انّ التناغم والتطابق بين هذه الآية والآية السابقة التي تعرّض فيها آدم عليه السلام لوسوسة الشيطان بعبارة (مُلك لا يبلى) قرينة أُخرىٰ علىٰ انّ (الملكين) في هذه الآية يدل علىٰ مفهوم القدرة بنحو مّا ويكون منسجما بنحوما مع (ملك لا يبلى)

---

(١) التكوير ٢٠. (٢) النجم ٥.

سواء قرأناه بكسر اللام (ملِكين) أو بنحو نعتبر (الملَك) بفتح اللام بمعنىٰ رمز القدرة. وعلىٰ أيّ حال، فإنّ الشيطان في هذه الآية كالآية آنفة الذكر قد وسوس لآدم وخدعه عن طريق حبّ الاقتدار وحبّ الخلود في الحياة.

والحاصل أنه بملاحظة الآيتين المذكورتين يمكن فهم انّ حبّ الاقتدار في منظار القرآن ذو أساس فطري.

قيمة القدرة في القرآن

السؤال الثاني الملفت للنظر بشأن القدرة هو: ما رأي القرآن في القيمة الإيجابية أو السلبيّة لاستخدام حبّ الاقتدار؟ هل يعتبره القرآن أمراً حسنا مطلقاً أم سيئا مطلقاً أم هو قائل بالتفصيل حسب الموارد؟

في الإجابة علىٰ السؤال المذكور نقول: ينبغي أن لا يُتوقع أساساً أن يَمنع القرآن الإنسانَ من استخدام غريزة فطرية مطلقاً، لانّ ما أودعه الله تعالىٰ في فطرة الإنسان ليس لغواً وجزافا من الناحية العقلية، وهكذا في الرؤية القرآنية بل يفسح المجال لتكامله. فأيّة غريزة طبيعية في الإنسان لا يمكن أن يشكّل نفس وجودها خطرا مطلقاً، ولهذا لا يجب بل لا يجوز قمعها تماماً. فالقمع التام لغريزة فطرية لا يتقبله العقل ولا تؤيده الآيات القرآنية.

بل يمكن أن يُستنبط من آية الفطرة ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[1]. وآيات أُخرىٰ مشابهة انّ ما أفاضه الله سُبحانه علىٰ الإنسان وأودعه في فطرته قد جعله وسيلة لتكامله، فلا يصحّ المنع من استخدامه مطلقاً، وإنْ وجد منع فانّه يتعلّق بكميته وكيفية استخدامه ومن أجل توجيهه نحو الاتجاه الصحيح.

---

(١) الروم ٣٠.

مجالات توجيه القدرة

يطرح هنا هذا السؤال: هل يصحّ اكتساب القدرة من أيّ طريق كان ولأيّ مقصود وهدف؟ هذا السؤال يكشف بنفسه عن هذه الحقيقة وهي أنه يتعلّق بأفعال الإنسان الاختيارية التي ترتبط بنحو مّا بالقدرة، ويكون لانتخاب الإنسان دور في ذلك، سواء أكان منشأً للقدرة أو ناشئاً منها.

من جهة أُخرىٰ انّ الانتخاب والقيام بعمل اختياري حتّىٰ لو كان لاكتساب القدرة فانّه سيكون في ذاته مقرونا بالعلم والقدرة دائما، لانّ ذلك هو القاعدة والقانون في كلّ فعل اختياري حيث لا يمكن إنجازه بدون علم وقدرة.

انّ اكتساب القدرة عن طريق الأعمال الاختيارية لابدّ أن يتمّ بمساعدة من العلم والمعرفه، ولو كان لدينا إدراك صحيح بهذا الشأن فإنّ من الممكن رعاية الجهة الصحيحة في اكتساب القدرة واستخدامها لكي تكون الأعمال التي تنجز عن هذا الطريق قيّمة أخلاقيا.

وتكون المعارف النافعة في هذه المرحلة والتي تمكّن الإنسان من تحديد الجهة الصحيحة لاكتساب القدرة وتشخيصها علىٰ عدة أنواع:

الأول: أن تكون معرفته عن أنواع القدرة المختلفة وكميتها وكيفيتها وعمقها بمستوىٰ لا يعتبر فيه أيّة مرحلة يبلغها من القدرة نقطةً نهائية لقدرته، وأن لا يظنّ باطلا بأنّ القدرة التي اكتسبها هي ذروة القدرة التي يتمتّع الإنسان بالإستعداد لاكتسابها وله القابلية في تحصيلها. فإنّ الإنسان بإمكانه أن يكتسب قدراتٍ كبيرةً ومتنوّعة ومعقدة، وفي هذا الطريق يشير مؤشر الوجود الإنساني ورغباته الفطرية إلىٰ اللامحدود ورفض التحديد. وهذا هو السرّ لجهوده ونشاطاته الدائبة لاكتساب القدرات المتنوّعة. فإذا ارتضىٰ بقدرة محدودة اكتسبها تدريجيّاً كان انحرافاً عن الفطرة وخلافا لمقتضاها، ومن الطبيعي أن يترك السعي والنشاط عند الحصول

علىٰ تلك القدرة، فالإنسان نتيجةً للجهل والنقص في المعرفة يفرح بما يناله، وينجذب إليه ويتوقف عند ذلك الحدّ.

وذلك مثل الأيام الأُولىٰ التي يستطيع فيها الطفل الوقوف علىٰ قدميه، فانّه يزهو كثيراً بهذه الدرجة الدانية من القدرة التي اكتسبها، وذلك لعدم إدراكه لدرجات أعلى، ويودّ تكرار نفس هذا الفعل. والذين يبلغون الخمسين او الستين من العمر ربّما يتصفون بهذه الصفة الصبيانية فيغترّون بما يكتسبونه من قدرة ضعيفة وينشدّون إليها ويتركّز كلّ اهتمامهم علىٰ القدرة التي اكتسبوها.

فمثلاً حينما يوعز القائد العسكري للجيش بالتحرّك يتحرّك الآلاف وحينما يوعز بالوقوف يتوقفون، هذه الحالة في ذاتها تبعث الغرور في من لم يفتح في نفسه آفاق المعرفة والأخلاق المتناسبة مع هذه القدرة، ويفرح بهذه الحالة ويغترّ بها، حيث انّه يتحكم بآلاف الأشخاص ويتّبعونه في حين لا يجب عليه اتّباعهم. وحينما تتركّز جميع حواسه واهتماماته علىٰ تلك القدرة التي اكتسبها فانّه يغفل عن الكثير من الكمالات والقدرات التي هي أعلىٰ، ويتوقف عن السعي والتحرّك ويحرم من اكتسابها. والأخطر أن تصبح هذه الحالة في المآل منشأ لظهور الكثير من الصفات الرذيلة ومن ثمّ الأعمال القبيحة الكثيرة الضارّة به وبالآخرين.

فعلىٰ الإنسان الالتفات إلىٰ نقائصه وحوائجه أكثر من التفاته إلىٰ ما يمتلكه، لانّ اهتمام الإنسان بالأمور التي يمتلكها لا يكون منشأ لتحرّكه التكاملي، بل سيوجد فيه نوعاً من الانشداد والسكون والجمود ويوقفه في هذه المرحلة، وعلىٰ العكس فإنّ معرفة الإنسان والتفاته إلىٰ النواقص يدفعه نحو السعي والتحرّك لرفعها واكمالها، وعن هذا الطريق يكتسب يوماً بعد آخر مزيداً من القدرة والقوة والكمال. ووفق قاعدة عامّة وشاملة إذا اكتسب الإنسان قدرة أو أيّ شيء آخر وانجذب قلبه إليه وتركّز اهتمامه عليه فإنّ ذلك سيمنعه من الارتقاء، سواء أكان

الاقتدار الاجتماعي يمثّل أمراً مثاليّاً وهدفاً نهائيا حسب زعمه أم لم يكن كذلك كما هو مقتضىٰ التعليمات الإسلامية. ولكي يكون الإنسان في حالة ارتقاء ومتّجهاً نحو الكمال فعليه أن يلتفت إلىٰ النقائص والاحتياجات.

الثاني: النوع الثاني من المعرفة التي تنفع الإنسان وهي ضرورية له في مجال القدرة هي معرفة هذه الحقيقة، وهي انّ القدرات الإنسانية في هذا العالم المادي تكون أدوات ومقدمات. فالقدرة التي تحصل في الجسم كمال وجودي مطلوب وذو قيمة نفسية لنا الاّ انّ قيمته الأخلاقية تتوقف علىٰ علمنا بأنّ هذه القدرات ليست هدفاً بل هي وسيلة لاكتساب قدرة أكبر.

انّ معرفة النوع الثاني تساعد أيضاً علىٰ التوجيه الصحيح للانسان وإنجاز أعمال متعلّقة بالقدرة، سواء كانت منشأ للقدرة أو ناشئة من القدرة، وفي حالة فقدان هذا النوع من المعرفة سوف تتوفّر أجواء الغرور والسكون والانحراف وارتكاب الفساد والأمور الانحرافية مما سوف نشير إليه لاحقاً.

وأخيراً انّ **المعرفة الثالثة** المهمة في منظار الإسلام والتي تعتبر مفتاحا للكثير من الكمالات والمقامات الإنسانية، ويكون لها الدور الرئيسي في مجال الاقتدار أيضاً هي معرفة الإنسان والتفاته إلىٰ هذه الحقيقة، وهي انّ قدرته كسائر الأمور التي اكتسبها ليست ملكا له في الحقيقة، بل انّ مالكها الأصيل والقادر الحقيقي هو الله سُبحانه، وهو الذي أعار هذه القدرة للانسان، ووفّر له الفرصة وأمهله ليستثمرها في طريق تكامله الحقيقي.

مراتب المعرفة الثالثة

انّ هذا النوع من المعرفة هو الرؤية التوحيدية ولها مراتب ودرجات مختلفة:

انّ الأشخاص المتعارفين الذين يحظَون بمستويات من المعرفة يستطيعون إدراك بعض درجات هذه الحقيقة إلىٰ حدّ ما، وتحصل الدرجات الكاملة من هذه المعرفة لأولياء الله الذين يبلغون مقام التوحيد في الصفات، ويشاهدون انّ مصدر القدرات كافة هي القدرة الإلٰهية غير المحدودة، وأمّا القدرات الأُخرىٰ فهي مظاهر لقدرته.

لإيضاح الكلام المذكور يجب القول: انّ معرفة هذه الحقيقة وهي انّ جميع القدرات لله تعالىٰ مآلاً، وهو المالك الحقيقي لا تكون بدرجة واحدة عند بني الإنسان، بل لها درجات متعدّدة وذات عرض عريض، وما يتيسّر للأشخاص المتعارفين ومتوسطي الحال هو الإدراك والتصديق بهذه الحقيقة وهي انّ الإنسان كان فاقداً للقدرة ثمّ أعطاها الله إياها. لقد كان عاجزا بالأمس من النهوض علىٰ قدميه وهو اليوم قادر عليه، ومن الممكن أن يُقعده المرض رغم ما لديه من قوة. وهكذا لم يكن مالكا لهذا الاقتدار العلمي أو ذلك الموقع الاجتماعي واليوم قد اكتسبه، ومن الممكن أن يفقده بنسيان أو غفلة أو بتحوّلات اجتماعية. انّ مثل هذا التغيير والتبدل والإكتساب والفقدان ينبىء عن هذه الحقيقة وهي انّ هذه القدرات المذكورة وأمثالها ليست ذاتية للانسان وغير قابلة للانفكاك عنه، بل هي أمور عرضية قابلة للانفكاك والانتقال عنه.

سيدرك انّ الإنسان عبارة عن مجموعة من ألوان العجز والفقدان، وانّ الله سُبحانه هو الذي يمنحه القدرة أو ايّ شيء آخر. وهذه صورة بسيطة عن معرفة الإنسان بنفسه وربه، ولكنّ الإنسان يصبح قادراً تدريجيّاً في مسيرة تكامله الروحي والمعنوي ـ إضافةً إلىٰ هذه الدرجة من المعرفة التي يطلق عليها (علم اليقين) ـ علىٰ بلوغ درجة (عين اليقين) ثمّ درجة (حقّ اليقين) فيشاهد هذه الحقيقة عياناً ويدركها شهودياً، وهذا أمر يفوق التصديق الذهني والعقلي.

الآثار السيئة للقدرة

بناء علىٰ ذلك لكي نوجّه أعمالنا وأفعالنا نحو الاتجاه الصحيح ـ أعمَّ من الأفعال التي هي منشأ الاقتدار وتقع في طريق اكتسابه ومن الأفعال الناشئة عن القدرة ونمارسها باستخدام القدرة التي نملكها ـ يلزمنا اكتساب مثل هذه المعارف المذكورة سابقاً، فانْ لم نكن عارفين بهذه الحقائق فانّنا حينما نكتسب قدرة مهما كانت ضعيفة سوف نُبتلىٰ بصفات ذميمة من قبيل الغرور والتكبر والإستعلاء والأنانية وأمثالها، وهذه الصفات تكون مبدء لأفظع الجرائم والخيانات في المجتمع البشري، وهي التي دفعت ذوي الاقتدار في تأريخ الحياة البشرية لارتكاب أنواع الظلم والجور، الاّ انّ ضررها يصيب صاحبها قبل غيره، وسيكابد الآلام والعذاب وسائر الآثار المترتّبة علىٰ هذه الصفات الرذيلة.

التربية القرآنية في مجال الاقتدار

يتضمّن القرآن الكريم إرشادات بشأن الاقتدار ورفع مستوىٰ المعارف التي تعيننا في توجيه القدرة نحو اتجاهها الصحيح، نشير هنا إلىٰ نماذج منها:

في بعض الآيات تأكيد علىٰ انّ القدرة أصالةً مختصة بالله سُبحانه، حيث تقول آية كريمة:

﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾[1].

وآية أُخرىٰ تبيّن هذا المضمون بتعبير آخر مستخدمة لفظ العزة حيث تقول:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾[2].

---

(١) البقرة ١٦٥. (٢) فاطر ١٠.

وبما انّ المفهوم اللغوي للعزة هو (عدم النفوذ) فانّه سيكون قريبا جدّاً من لفظ القدرة مفهوما، والمكانة الاجتماعية التي يطلق عليها العزة أيضاً هي بلحاظ اقترانها بالقدرة، وتؤيد انّ طلب المقام هو صورة من حبّ الاقتدار. وتؤيد آيات أُخرىٰ هذه الحقيقة حيث استخدمت لفظ (عزيز) بشأن الله في مواضع تتناسب مع القدرة وليس مفهوماً آخر، نظير الآية:

﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ والآية: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾**(١).

لقد جعل (عزيز) في الآية الأُولىٰ إلىٰ جانب (قوي) وفي الآية الثانية أُطلق علىٰ من خلق السموات والأرض، والقدرة هي المتناسبة للخلق.

أجل، انّ الخلق يستند إلىٰ حقيقتَي العلم والقدرة، والذي خلق مثل هذا الكون يتصف بالقدرة المطلقة والعلم المطلق، ولذا استعمل (العزيز) مع (العليم) كما اقترنت العزة مع الاقتدار في الآية **﴿أَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾**(٢).

وآيات أُخرىٰ تبيّن ـ بلفظَي العزة والقوة ـ أنّ من أراد العزة أو القدرة فعليه طلبها من مصدرها الأصيل وهو الله سُبحانه، جاء في آية:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾(٣).

وتقول آية أخرىٰ: **﴿مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾**(٤).

ولا توجد قوة ولا قدرة الاّ بإرادة الله عزّوجلّ. انّ أمثال فرعون والنمرود وسائر الطغاة في الأرض لم يمتلكوا معرفة كافية عن هذه الحقائق، ولم يفسحوا المجال للمعرفة اللازمة والكافية أو غفلوا عنها، فابتُلوا بالانحراف عن مسيرة

---

(١) الزخرف ٩.
(٢) القمر ٤٢.
(٣) فاطر ١٠.
(٤) الكهف ٣٩.

الحقّ وبالصفات القبيحة سيّما غرور الاقتدار والطغيان. فقد كان فرعون يخاطب قومه بغرور:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[١].

أجل، ان الخصوصية الفكرية والأخلاقية لفرعون هي التي هوت به وجعلته يرتكب جرائم فظيعة هي: أولاً: انّه كان يعتبر هذه القوىٰ ملكاً له أصالة، وثانياً: كان يعتبر قوته ذروة ما يمكن أن يحظىٰ به الإنسان من قوة.

وعلىٰ هذا الأساس ادّعى الربوبية ثملاً وخاطب قومه صراحةً بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾[٢]، والنمرود أيضاً ابتعد عن المعرفة وأقحم نفسه في الظلام والجهل إلىٰ الحدّ الذي قال فيه: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[٣]. لأنّي قادر علىٰ الاحتفاظ بالآخرين أحياءً أو قتْلهم.

وللقدرة ظهور وتجلّيات متنوّعة في مراحل مختلفة لسلوك الإنسان، وتكون منشأً ـ في بعض الموارد ـ لانحرافات كبيرة. من هنا يسلط القرآن الضوء علىٰ القدرة ومفاسدها، ويحذّر الناس ببيان فصيح بأن يوجّهوا رغباتهم منذ الخطوة الأُولىٰ نحو اتجاهها الصحيح بانتباه كامل ورعاية الاعتدال في كلّ الموارد لكي لا ينتهي أمرهم إلىٰ هذا المستوىٰ بانحرافهم التدريجي والابتعاد عن صراط الفطرة المستقيم ونهج التوازن. انّ التحرّك الإنساني الناشىء من حبّ الاقتدار إذا لم تتمّ هدايته منذ البداية بنحو صحيح فإنّ الإنسان يتعرض للانحراف الخُلقي، وفي المرحلة التالية يرتكب الكبائر، ويُبتلىٰ بالتالي بالكفر والشرك والفرعونية. والحاصل أنّ مبدأ الإنسان ونهايته ومسيرته فيما يرتبط بحبّ الاقتدار واضح،

(١) الزخرف ٥١.
(٢) النازعات ٢٤.
(٣) البقرة ٢٥٨.

وكلّما أحسسنا ببوادر الانحراف في نفوسنا فلنعلم انّنا نسير في طريق خطير ونسلك طريق الطغيان والفرعونية، وأمّا الموضع الذي نصله من هذا الطريق والنقطة التي نبلغها في هذه الحركة المنحرفة فانّه يتوقف علىٰ مدىٰ همّتنا! فصاحب الهمة العالية في هذه المسيرة يصبح فرعون نفسه، وكلّما ضعفت همّته فانّه ينزل عن موقع فرعون بتلك الدرجة! لقد كان الخلل في مسيرة فرعون هو الإستعلاء **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾**(١)، و في آية أخرىٰ: **﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾**(٢) في حين يعتبر الله سُبحانه في آية أُخرىٰ الإستعلاء ضاراً بحياة الإنسان الخالدة في الآخرة حيث يقول تعالىٰ.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾(٣).

هنا يطرح هذا السؤال: هل الآيات التي تمنعنا من الإستعلاء توحي بهذا المفهوم وهو أنّ علىٰ الإنسان أن يكون قانعاً ولا يطمح بالإرتقاء إلىٰ مقامات أعلىٰ أبداً؟ علىٰ هذا الفرض تأمرنا الآيات المذكورة بالجمود والسكون والتوقف، وهذا ما يتنافىٰ مع المبدأ الذي أكّدنا عليه سابقاً من أنّ علىٰ الإنسان أن لا يقنع بما لديه أبداً ويسكن، بل عليه أن يجعل ما ينقصه ويفقده نصب عينيه لكي ينال بسدّ ذلك النقص كمالات أكبر.

في الإجابة عن السؤال المذكور يجب القول: انّ هذه الآيات لا تحثّنا علىٰ السكون والجمود أبداً، بل تعلّمنا هذه الحقيقة وهي انّ الإستعلاء المادي والدنيوي الذي يهواه الكثير من الناس لا حقيقة له، بل هو استعلاء كاذب يصدّ الإنسان عن الوصول إلىٰ العلوّ الحقيقي. انّ الرؤية القرآنية تعلّمنا انّ الإستعلاء المادي لا يمثّل

---

(١) القصص ٤. (٢) يونس ٨٣.
(٣) القصص ٨٣.

الهدف النهائي والنقطة الأخيرة لارتقاء الإنسان وليس مطلوباً في ذاته بل هو وسيلة لا أكثر. وقيمته قيمة غيرية تتحقّق في ضوء القيمة الذاتية للأهداف النهائية وفي طريق الوصول إليها. انّ الإستعلاء المادي يعجز عن معالجة آلام الإنسان وإشباع متطلّباته الفطرية. بل هو سراب ولعبة خدّاعة لا أكثر. انّ الإستعلاء المادي بمثابة الحِلمة الصناعية التي تمنع الطفل عن البحث عن ثدي أمه، والإنسان بانجذابه إلىٰ هذا الإستعلاء غير الحقيقي إنّما يخدع نفسه ويتخلف عن الطلب والبحث عن العلوّ الحقيقي ويتعرض للانحراف والانحطاط.

يعلّمنا القرآن انّ الإنسان إذا سار بنحو صحيح في مسير هذه الغريزة وتحرَّك في الاتجاه الصحيح فانّه يسمو حتّىٰ يصبح في جوار الله العزيز المقتدر المطلق، حيث قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[١].

انّ القدرة الحقيقية للانسان هي أن يهيمن علىٰ كلّ شيء في ظل القدرة الإلٰهية، وهي القدرة التي يحصل عليها من خلال الحركة الصحيحة في الحياة وشكرالله وعبادته والفناء في قدرته، وهي في الواقع قدرة الله التي تظهر في هذا المجال. لقد أودع حبّ الاقتدار في وجود الإنسان لكي يحرّكه في هذا الطريق ونحو هذه النقطة. فالقوة الحقيقية للانسان هي أن يصبح عبداً لله تعالىٰ لكي تتجلّىٰ فيه القدرة الإلٰهية.

علىٰ هذا فليس من الصحيح الإكتفاء بالقدرات المادية والدنيوية والاعتبارية المحدودة والانشداد إليها بنحو يصدّ الإنسان عن الوصول إلىٰ القوة الحقيقية، وقد ذمّ القرآن ذلك أيضاً ولم يذمّ حبّ الاقتدار بكلّ أشكاله.

إذنْ القيمة السلبية لحبّ القدرات المادية والدنيوية يكمن في مانعيتها، فلو لم

---

(١) القمر ٥٤ و ٥٥.

توقف الإنسان ولم تصدّه عن ارتقائه وتعاليه ولم تستتبع نتائج اجتماعية وأخلاقية وخيمة لم يكن ضير في اكتسابها. لقد طلب النبي سليمان عليه السلام من ربه اقتداراً خارقا كما جاء في التعبير القرآني:

﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾(١).

الآ انّ هذا الاقتدار الذي ألحّ في طلبه من الله سُبحانه لم يمثّل هدفه النهائي ولم يتعلّق قلبه به، بل أراده لكي ينشر به دين الله والدين الحقّ ويهدي غير المسلمين والمشركين المقتدرين إلىٰ الإسلام والدين الإلٰهي. فقد طلب عليه السلام مثل هذا الاقتدار ليتّخذه وسيلة للوصول إلىٰ كمال أعلى. من هنا لم يستغل عليه السلام اقتداره الخارق بنحو سيّء أبداً.

لقد بلغ باقتداره حدّاً يصفه القرآن بقوله:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾(٢).

وارتقى إلىٰ درجة لم يكن فيها حاكما علىٰ الناس فحسبُ، بل علىٰ الجن ـ كما يحكي القرآن ـ ومع اقتداره هذا كان يأكل خبز الشعير اليابس ولم يصبْه الغرور باقتداره.

ولو تدبّر الإنسان وهو في أيّ مقام كان في ضعفه والتفت إلىٰ نقائصه وعجزه فانّه لا يتكبّر أبداً. انّ بني الإنسان الصالحين وأولياء الله سُبحانه كلّما ازدادت قدرتهم أدركوا ضعفهم بنحو أكبر وازدادوا تواضعاً، أي انّهم يشاهدون أنّ هذه القدرة ليست ملكهم، بل مهما عظمت فهي قدرة الله قد جعلت تحت تصرفهم، وبدون القدرة الإلٰهية لا يملك الإنسان شيئاً من ذاته. وأيضاً مهما ازدادت قدرتهم

---

(١) ص ٣٥.   (٢) سبأ ١٣.

فانّهم ـ بما يتمتعون به من معرفة راقية ـ يرَون أنفسهم تحت سيطرة قدرة أرفع تُعتبر سائر القدرات بالنسبة إليها شيئاً ضئيلاً، نظير علم الإنسان فانّه كلّما ازداد علماً أدرك ضعفه بنحو أفضل، وهذا أمر عجيب في مسيرة العلم. انّ الطفل المبتدىء لا يعلم ـ سوىٰ عدة دروس اعتيادية ومألوفة ـ بأمور أُخرىٰ لكي يلتفت إلىٰ انّه يحيط بها علماً أم لا. وتنحصر دائرة معلوماته ومجهولاته في منظاره في دروس المدرسة الابتدائية. لا يعلم عادة بشيء اسمه الفيزياء أو الكيمياء لكي يدرك علمه أو جهله بمضمونه.

ولكنْ كلّما ازدادت معلوماته تبدو له مجهولات أكثر. كما انّ علم الإنسان إذا كان علما حقيقيا فانّه يدرك انّ ذلك العلم في ذاته ليس ملكه، وكلّما تكامل علمه فانّه يدرك جهله بنحو أفضل ويدرك انّ علمه ملك لله تعالىٰ، من هنا يقول القرآن بتعبيره الجميل:

﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ الَىٰ اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١).

بهذا التعبير ينبّه الله سُبحانه الإنسان بأن لا ينسىٰ فقره الذاتي أبداً لكي يبلغ ما يمكنه من كمال.

انّ أولياء الله كلّما ازدادوا علما اشتد تواضعهم وازدادوا اقراراً بالجهل، وكلّما ازدادوا اقتداراً أظهروا عجزهم بين يدي الله عزّوجلّ بنحو أكبر، واشتد تواضعهم بين الناس، وهذه النتيجة في كلا الأمرين (العلم والاقتدار) ترجع إلىٰ مستوياتهم الرفيعة من المعرفة.

خلاصة القول

انّ الالتفات إلىٰ الضعف والعجز يجعل الإنسان متواضعا ويفتح أمامه طريق

---

(١) فاطر ١٥.

التقدم والرقيّ، وعلىٰ العكس يجعله الانجذاب إلىٰ الاقتدار مغروراً ومتكبراً ويسدّ عنه طريق الرقيّ والإرتفاع.

والملاحظة الأُخرىٰ هي انّ اكتساب القدرة لا بأس به ولكنْ علينا أن نعلم:

أولاً: ما هية القدرة الحقيقية.

ثانياً: انّ القوىٰ المادية ليست سوىٰ وسائل وأدوات للوصول إلىٰ القدرة الأبدية ولا يمكن أن تكون مرادة بالذات.

ثالثاً: انّ اكتساب هذه القدرة التي هي وسيلة ينبغي أن لا يستلزم سلب قدرة الآخرين والتطاول علىٰ حقوقهم.

رابعا: انّنا لا نملك هذه القوىٰ أصالةً بل هي القدرة الإلٰهية التي نستفيد منها، فعلىٰ من يُمنح هذه النعمة الإلٰهية، وهي القدرة، أداءُ شكرها الذي يقتضي استخدامَها بنحو صحيح.

خامساً: مهما تعاظمت عندنا القدرة فانّنا خاضعون للقدرة الإلٰهية المحيطة بقدرتنا.

إذا لم نلتفت إلىٰ مثل هذه الحقائق فإنّ القدرة ستستتبع آثاراً سيئة ومنها الغرور والتكبر كما أشار سُبحانه وتعالىٰ إلىٰ هذا الأثر السيء والخطير في قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾[(١)].

انّ انشداده لقدرته يبلغ حدّاً يرتكب فيه أعمالاً قبيحة ومهولة من أجل اكتسابها أو الاحتفاظ بها. أجل، انّها القدرة والمحافظة عليها هي التي تدفعه لمثل هذه الأعمال، وهذا الانجذاب القلبي هو الذي يوقفه عند هذا المستوىٰ ويستتبع روح العلوّ والعتوّ والإستعلاء كما ذكرنا.

---

(١) البقرة ٢٠٦.

القسم الثالث

٤ـ٢

حبّ البقاءِ والخلود

معرفة النفس وحبّ البقاء
الأخلاق وحبّ البقاء
القرآن وحبّ البقاء
توجيه حبّ البقاء
الخوف من الموت ومكافحته
قيمة الحياة الدنيا
علاقة الحياة الدنيا بالحياة الآخرة
إشكال وجواب
خلاصة القول

حبّ البقاء والخلود

انّ حبّ البقاء لازم طبيعي لحبّ الذات. وبما انّ حبّ الذات من الغرائز الأصيلة والرغبات المسلّمة في الإنسان وأنّ كلّ انسان يحبّ نفسه يقينا، فكذا يكون محبّاً لبقائه وخلوده، لانّ حبّ النفس لا يعني انّه يحبّ الوجود الآني لنفسه ثمّ لا يشعر بأيّ شعور تجاه مستقبله، بل يعني انّه يحبّ وجوده في الازمنة التالية أيضاً وفي كلّ زمان. انّ الإنسان يرغب بشدة في أن يدوم وجوده ويخلد. فمن الطبيعي أن يكون أوّل وأقرب الآثار التي تترتّب علىٰ حبّ الذات هو حبّ البقاء والرغبة في الحياة الخالدة، وكلّ انسان يمتلك في ذاته هذه الغريزة بالفطرة. انّ العلاقة الوطيدة والتلازم بين هذين الحبّين يبلغ حدّاً بحيث لا يوجد من يقرّ بوجود حبّ الذات في الإنسان ثمّ ينكر حبّه للبقاء والخلود.

معرفة النفس وحبّ البقاء

ينبغي الالتفات إلىٰ انّ للعلم والمعرفة هنا دوراً أساسيا في تحديد المصداق وتوجيه حبّ البقاء، بمعنىٰ انّ الإنسان إذا عرف نفسه معرفة صحيحة وأدرك حقيقة الوجود وحقيقة حياته جيّداً فإنّ هذا الحبّ يجد اتجاهه الصحيح أيضاً، والاّ

فسوف يخطيء في تشخيص المصداق، ويوجّه حبّ البقاء توجيها خاطئا إثر جهله، ويكون بذلك سبباً للمزيد من الانحراف الخُلقي.

انّ المعرفة في مجال حبّ البقاء ذات أهمّية خاصّة في الرؤية الإسلامية أيضاً. فلو عرف الإنسان انّ له حقيقةً غير مادية ولا تنحصر حياته في الحياة الدنيا فإنّ حبّ البقاء والخلود سيجد اتجاهه الطبيعي والفطري، وسيتعلّق حبّ الإنسان بحياته الأبدية، وفي المقابل لو اعتقد أنّ وجوده هو هذا الوجود المادي، وتنحصر حياته في هذه الحياة الدنيا ولا توجد حقيقة أُخرىٰ وراء هذا الوجود والحياة المادية فستنحرف هذه الغريزة الفطرية وحبّ البقاء في الإنسان عن نهجها الطبيعي والمسيرة الفطرية الأصيلة، وستتوقف في هذه المرحلة القصيرة من الوجود المادي والحياة الدنيوية للانسان، وسيكون هذا الانحراف والجمود منشأ للكثير من الآثار والأعراض والأعمال والسلوك والعلاقات الخاطئة والقبيحة.

وقد دار البحث في ما مضىٰ حول حبّ الدنيا ودوره الفعال ـ وفق الرؤية الإسلامية ومضمون الرواية القائلة «**حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة**» ـ في نشوء الفساد الخُلقي، وهنا نريد القول: انّ الجذور النفسية لهذه القضية ترجع إلىٰ حبّ الخلود الذي لم يجد اتجاهه الصحيح نتيجةً للجهل. انّ السبب في حبّ الإنسان للدنيا هو حبّه للخلود والبقاء الذي يتخذ هذا الاتجاه في إطار التفسير المادي لحياة الإنسان.

انّ الإنسان الذي يطلب بقاء حياته واستمرارها من جهة، ويرىٰ إنحصار حياته في الوجود المادي والحياة الدنيا من جهة أُخرىٰ يرغب في استمرار هذه الحياة المادية، في حين لو التفت وتيقّن انّ حقيقة الحياة لا تتلخّص في الحياة الدنيا، بل هي أسمىٰ منها فانّه سوف لا يبدي مثل هذا التعلّق المفرط والمفسد بالحياة المادية

والدنيوية، ولا يعتبرها مراده الأصيل وهدفه النهائي، وبالتالي لا يرتكب كلّ ذنب وإثم للمحافظة عليها واستمرارها.

الأخلاق وحبّ البقاء

كما ذكرنا في موارد أُخرىٰ انّ أصل هذه الغريزة ـ كأيّة غريزة أُخرىٰ ليست حسنة ولا سيئة من الناحية الأخلاقية، لانّ هذه الغرائز من اللوازم الجبرية والتكوينية للوجود الإنساني، ومن هنا فهي لا تخضع للتقييم ولا تدخل نطاق الأخلاق، حيث قلنا انّ الأمور التي تدخل هذا النطاق هي التي تجد إرادة الإنسان واختياره إليها سبيلا.

انّ حبّ البقاء الذي يتناوله بحثنا حبّ فطري وتكويني أُودع في ذات الإنسان وطبيعته ولا اختيار للانسان بشأنه. وما يخضع لاختيار الإنسان بشأن هذا الحبّ هو توجيهه وتحديد مصداقه وآثاره وأعراضه وطريقة التعامل التي يتخذها إثر ذلك، ولميزة كونه أمراً إراديا فانّه يدخل نطاق الأخلاق ويتصف بقيمة إيجابيّة أو سلبيّة.

القرآن وحبّ البقاء

تدل آيات قرآنية علىٰ وجود هذا الحبّ الفطري في ذات الإنسان، وبعبارة أوضح انّها تقرّ بوجود هذا الحبّ كأمر واقعي في الإنسان، ويستخدمه كعامل ودافع في سبيل تربية الإنسان وترشيده وتكامله.

وعلىٰ هذا، فإنّ حبّ البقاء في الإنسان بلحاظ دوره التربوي ليس أمراً مرفوضاً في الرؤية الإسلامية. ولذا ليس فقط لا تشجبه وإنّما تؤيد أصل وجوده

فيه وتستغلّه في سبيل التربية الصحيحة من خلال تقديم المعرفة الدقيقة عن الإنسان وحياته.

من اللازم أن نشير هنا إلىٰ بعض الآيات ذات العلاقة بهذا البحث:

النموذج الأول من هذه الآيات هو الآيتان اللتان ذكرناهما في قصة آدم عليه السلام ووسوسة الشيطان له، فانّها تمّت عبر طريقين: الأول حبّ الاقتدار والسلطان، والثاني حبّ الخلود.

قال تعالىٰ في إحدىٰ الآيتين:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾(١).

وقال في الآية الثانية:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾(٢).

تبيّن الآيتان انّ الشيطان كان يعرف آدم عليه السلام جيّداً، ويعلم بوجود حبّ الخلود في ذاته وبإمكان استغلاله كطاقة محرّكة إلىٰ كلّ جهة.

من هنا سعى لخداعه عن طريق هذا الحبّ. فبما انّ آدم عليه السلام كان ذا حبّ فطري للخلود قام ابليس باستغلال هذه الحالة وأغراه بأنّ الخلود الذي تنشده يحصل بالأكل من هذه الشجرة.

أي انّ الشيطان سعى من خلال تقديم معلومات خاطئة أن يوجّه هذا الحبّ الفطري ـ الفاقد للاتجاه ـ باتجاه مراده. وقد قلنا سابقاً: انّ المعرفة الصحيحة أو

---

(٢) الأعراف ٢٠.

غير الصحيحة يمكن أنْ تؤثّر في توجيه هذا الحبّ توجيها صحيحا أو غير صحيح، وتقديم مصداق مناسب أو غير مناسب لهذا الحبّ.

فيمكن الإستنباط جيّداً من هاتين الآيتين انّ مثل هذا الحبّ مودع في ذات آدمعليه السلام وذريته منذ بدء الخليقة، وسيكون حبّ الخلود في الإنسان حبّاً فطرياً ونوعياً. وفي الكثير من الآيات القرآنية الأُخرىٰ التي ترغّب الإنسان في انتخاب طريق الآخرة والسعي لجذبه نحوه، وتحريره من حبّ الدنيا تتخذ عدة اجراءات لتحقيق هذا الهدف، من جملتها المقارنة بين الدنيا والآخرة ثمّ الحكم بأنّ الآخرة أكثر دواماً وأبقىٰ ليقوم الإنسان بانتخاب الآخرة من بينهما ولا ينجذب للدنيا فوق الحدّ المطلوب.

انّ استخدام هذا الطريق في ذاته دليل علىٰ انّ البقاء والخلود ضالّة الإنسان ومراده الفطري، ويريد الله الحكيم ـ وهو رب الإنسان الذي أودع في ذاته هذا الحبّ ويحيط به علما بنحو كامل ـ بتعريف هذه الضالة والإشارة إليها توجيهَ هذا الحبّ نحو اتجاهه الفطري الصحيح ويخاطب الإنسان:

يا من تبحث عن ما هو خالد وأكثر دواماً وأبقىٰ، عليك الاهتمام بالآخرة.

لو لم يكن هذا الحبّ موجوداً في الإنسان وكان غير مبالٍ بالبقاء والخلود لانعدم جدوىٰ هذا البيان والمقارنة ولم يحرّك احساسه ويلفت نظره. والحاصل أنّ القرآن يقرّ بوجود هذا الحبّ الفطري في الإنسان، وقد أعدّ هذا الكتاب السماوي ونظم برامجه التربوية علىٰ أساس وجود هذا الحبّ والاقرار بهذا الواقع.

ولكي يجذب القرآن الإنسان نحوالله والآخرة يقول في آية: ﴿**إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ**﴾[1].

(١) النحل ٩٥ و ٩٦.

فمثل هذا الخطاب ينفع من يحبّ البقاء فطريا فيوجّه حبّه نحو الآخرة، وبما انّ الإنسان يبحث فطريا عما هو أكثر دواماً وأبقىٰ فإنّ الله يُريه بعبارة (ما عند الله باقٍ) مصداقَ ذلك الشيء لكي يجذب رغبته الباطنية وحبّه الفطري نحوه.

ونظير الآية المذكورة تقول آية أخرىٰ:

﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

انّ الإنسان ـ كما قلنا ـ وإنْ كان يأنس ـ منذ البداية ـ بالمحسوسات واللذائذ الحسية الدنيوية والمادية ويفضّلها الاّ انّ الله سُبحانه بإثارة العقل والفكر الإنساني يلفت نظره إلىٰ لذائذ أفضل وأكثر دواماً ويقول للناس:

إن جعلتم فطرتكم وعقولكم حاكمة فانّها تأمركم بطلب أمور هي أفضل وأكثر دواماً وتوضح لكم انّ ما عند الله هو الأكثر دواماً.

وهكذا تذكر آية أُخرىٰ هذا التعبير بقيود أخرىٰ:

﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]، وذيل الآية **﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** يبيّن شروط تحصيل (ما عند الله) ويريد القول: ما عند الله خير وأبقىٰ ولكنّ تحصيله مقيّد بشرطين: الايمان أولاً، والعمل الصالح ثانياً.

الخلاصة انّ الآيات الثلاث ذات مضمون واحد وتحكم بأنّ (ما عند الله) هو الأفضل مع فارق هو انّ الآية الأُولىٰ بيّنت هذه الحقيقة فقط، والآية الثانية ذكرت شرط إدراك هذه الحقيقة إلىٰ جانب ذلك. وبعبارة (افلا تعقلون) تريد القول: وإنْ كان (ما عند الله) أفضل وأكثر دواماً الاّ انّ هذه الحقيقة يمكن تحصيلها بتفعيل العقل والارتقاء من عرصة الاحساس إلىٰ ساحة التعقّل والتفكير، وذلك لانّ

(١) القصص ٦٠.
(٢) الشورى ٣٦.

الحس عاجز عن إدراك ذلك، وما دام الإنسـان مسـتغرقاً فـي الحس والإدراك الحسي واللذائذ المحسوسة فانّه عاجز عن إدراك حقيقة العبارة المذكورة.

والآية الثالثة تبيّن شرطي الوصول إلىٰ ما ذُكر، وهما الايمان والعمل الصالح، فإنّ (ما عند الله) وإنْ كان أفضل وأبقىٰ الاّ انّه ليس بوسع أيّ انسان تحصيله حتّىٰ يوفّر شرطيه المذكورَين.

وقد جاء في آية أخرىٰ:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[١].

انّ الجنس البشري يفضّل ـ قبل أن تصله تعاليم الانبياء عليهم السلام ـ الحياة الدنيا، ولا يلتفت أساساً إلىٰ الحياة الآخرة، وإنْ التفت فإنّ هذا الالتفات ليس بحيث يجذبه ويرغّبه إليها.

انّ أُنس الإنسان بالحياة الدنيا من البداية واللذة الحسية التي يشعر بها ـ بدون مقدمة ـ من هذه الحياة يدفعانه لتفضيل وانتخاب الحياة الدنيا، والله سُبحانه يعلّمه بتعبيرات مشابهة لما جاء في الآية المذكورة انّ الحياة الآخرة هي الأكثر خـيراً ودواماً، وذلك لكي يرشده إلىٰ الطريق الصحيح ويوجّه حبّه للـبقاء نـحو الجـهة الصحيحة، وذلك بتقديم معرفة صحيحة، وقد قلنا انّ لها تأثيراً بالغاً فـي تـوجيه الغرائز كافة ومنها حبّ البقاء.

نركّز هنا علىٰ لفظ (أبقىٰ) ولكي يصرف القرآن الناس عن حبّ الدنيا ويجذبهم إلىٰ الآخرة يُفهم الإنسان بهذا اللفظ بأنّ الآخرة أبقىٰ، ونعلم جميعا انّ هذا التعليم والإفهام يكون مؤثّرا ويلعب دوره في هداية الإنسان حينما يكون الشيء الأبقى والأكثر دواماً ضالّة الإنسان ويكون جذابا لديه، ويعمل علىٰ تحريكه حينما يتوفّر

---

(١) الأعلىٰ ١٦ و ١٧.

فيه هذا الحبّ بنحو طبيعي والصعود عن عالم الحس نحو عالم العقل والفكر.

يقول في آية أخرىٰ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(١).

قبل أن يمتلك الإنسان معرفة وافية عن الذات الإلٰهية المقدسة فلا أصالة لحبّه لله، بل يكون له جذور في حبّ آخر، بمعنىٰ انّه يحبّ الله سُبحانه لأنّه الوسيلة لتأمين متطلّباته الأخرىٰ.

لو بلغ الإنسان في معرفته مستوىٰ يرىٰ الله عزّوجلّ مراداً ومحبوباً بالأصالة، في هذه الحالة يفضّل حبّ الله لدىٰ مقارنته مع سائر الأمور المحبوبة والمرادة لأنّه أكمل وأبقىٰ.

حينما يحبّ الإنسان شيئاً فانّه يودّ بقاء محبوبه لكي يلتذ بنحو أكبر برؤيته والأُنس معه والإرتباط به، ولا يدوم الحبّ لأشياءَ آنيّة الوجود، والذي يوجد في زمان و يفنىٰ في زمان آخر.

انّ حبّ الإنسان ـ لو كان عن وعي وانتباه ـ ينبغي أن يتعلّق بشيء دائم، والقرآن يريد القول بعبارة ﴿والله خير وأبقىٰ﴾ انّ الدائم المطلق هو الله سُبحانه، ولفظ (أبقىٰ) يلفتنا إلىٰ هذه الحقيقة وهي أنّ البقاء مراد فطري للانسان، ويمكن القول: انّ في احتجاج النبي ابراهيم عليه السلام مع عبدة القمر والنجوم والشمس الذي أكّد فيه علىٰ قوله ﴿لا أحبّ الآفلين﴾(٢) إشارة إلىٰ هذه الحقيقة.

ومن الشواهد القرآنية الأُخرىٰ علىٰ انّ الإنسان يبحث عن الخلود هو ما عبّر الله عزّوجلّ في هذا الكتاب السماوي المقدس عن يوم القيامة بـ(يوم الخلود) حيث قال في موضع:

---

(١) طه ١٣١.

(٢) الأنعام ٧٦.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾[١].

هذه التسمية التي تمّت بهدف إلفات نظر الناس وحبّهم نحو عالم الاخرة شاهد علىٰ وجود هذه الغريزة الفطرية في الإنسان والاقرار الإلٰهي به في القرآن.

وفي مواضع أُخرىٰ ولكي يرغّب الناس في ممارسة الأعمال الصالحة يستفيد من هذا الوصف أيضاً ويعبّر عن الأعمال الصالحة والحسنة بـ(الباقيات) كقوله:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[٢].

هذه التسمية تنبيء عن انجذاب الإنسان للبقاء والدوام فطريا وإنْ أكـد ذلك بعبارة (خير عند ربك) الحاكية عن غريزة فطرية أخرىٰ، مـما يـعني انّ للـبقاء والدوام جاذبية في الإنسان، كما انّ كونه مراداً لله جاذبية أُخرىٰ للانسان، هاتان النزعتان ترغّبان الإنسان وتحرّكانه نحو القيام بالأعمال الصالحة، وقد استُغلّتا في الآيتين المذكورتين كميدانين أو كعاملين تربويّين.

الشاهد القرآني الآخر علىٰ وجود حبّ البقاء واقرار القرآن به هو القصة التي ذكرها الله سُبحانه في سورة الكهف، وهي قصة الرفيقين اللذين كان أحدهما مؤمنا موحّداً ومعتقداً بالله والآخرة، والآخر مشركا منجذبا للحياة الدنيا قال تعالىٰ:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مثلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

---

(١) ق ٣٤.

(٢) الكهف ٤٦ ومريم ٧٦ بفارق ورود (مردّاً) بدلاً عن (أملاً).

أَبَداً ＊ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً ＊ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ＊ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ＊ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً ＊ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ＊ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾[١].

ما يلفت الإنسان في هذه القصة في نطاق حبّ البقاء والخلود هو انّ كلا الصدّيقين ـ المؤمن والموحّد وهكذا المشرك وغير المؤمن بالله والقيامة ـ قد استندا إلىٰ البقاء والدوام والخلود، فقد قال صاحب البستان المشرك والمنكر للقيامة: لا اظنّ أن يزول هذا البستان وهذه النِعم أبداً، فأرشده رفيقه المؤمن بأنّ هذه ليست أهلاً للبقاء وهي عرضة لمئات الأخطار والآفات والفناء والعدم، فمن الممكن أن تجفّ الأشجار وينضب ماء البستان وتصاب الثمار بالآفات و... وعلىٰ هذا فإنّ الآية الكريمة تلوّح بأنّ الشخصين يحبّان البقاء فطرياً، ويطلبان شيئاً باقيا ودائما ويبحثان عن الخلود ولا يرغبان في ما هو غير دائم وغير باقٍ.

انّ الفارق الوحيد بين الرفيقين في هذه القصة هو تعيين الشيء الباقي والدائم وتمييزه عن الشيء الفاني وغير الدائم. لقد دار الحوار والنقاش بينهما حول تحديد المصداق، فقد ظنّ أحدهما انّ هذا البستان الموجود في الدنيا سوف يبقى ولن يزول، واعتقد الآخر انّه غير باقٍ ويجب البحث عن النعمة الباقية في محلّ آخر.

---

(١) الكهف ٣٢ ـ ٤١.

وأخيراً فإنّ الآيات المتعلّقة بهذه القصة القرآنية في سورة الكهف تنتهي بهذه الآية:

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾(١).

خلاصة ما ذكرنا هي انّ الإنسان يحبّ الخلود، وقد أُودع ذلك في الذات الإنسانية علىٰ أساس حكمة الخلق الإلٰهية. والقرآن يقرّر ذلك، ولا يقتصر الأمر علىٰ انّه ليست له نظرة سلبيّة فحسبُ، بل سنّ الكثير من تعاليمه علىٰ أساس هذا الحبّ بأنّ عليكم ـ نظراً لوجود حبّ الخلود فيكم ـ الاهتمام بالآخرة وبالله عزّوجلّ وبما عند الله.

وفي مقابل ما استفدناه إلىٰ هنا من الآيات توجد آيات أُخرىٰ قد يبدو انّها تُعارض ما ذكرنا، وخلافا للآيات السابقة وتعتبر هذا الحبّ أمراً غير قابل للتحقّق والإشباع.

قال تعالىٰ في إحدىٰ الآيات القرآنية:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾(٢).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٣).

انّ ظاهر هاتين الآيتين هو أن الإنسان لا يمكن أن يكون خالداً وأنّ الجميع يموتون **﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾**(٤).

وعليه فإنّ خلود الإنسان أمر غير ممكن فلا ينبغي أن يبحث ـ دون جدوىٰ ـ عن أمر ممتنع، وإنْ كان الإنسان يتمنّاه!

---

(١) الكهف ٤٤.
(٢) الانبياء ٣٤.
(٣) الانبياء ٣٥.
(٤) الزمر ٣٠.

وفي الردَ علىٰ التعارض المتراءى بين هذه الآية والآيات السابقة نقول: انّ هذه الآية لا تنفي خلود الإنسان بنحو عامّ ومطلق، بل تعتبر حياته المادية والدنيوية فانية وغير باقية. وسياق الآية بذاته يدل علىٰ هذا المعنى، ولاسيّما الآية الثانية حيث إنّها بعد الحكم بالموت وعدم الخلود علىٰ الجميع تنبيء بأنّكم سوف ترجعون إلينا بعد الموت، مما يدل علىٰ وجود الإنسان وحياته بعد الموت ورجوعه إلى الله تعالىٰ.

إضافةً إلىٰ ذلك العدد الكبير من الآيات التي تتحدّث عن خلود الإنسان في الجنة أو النار بعبارة (خالدين فيها أبداً)، بل في إطلاق (يوم الخلود) علىٰ يوم القيامة في القرآن ككفاية للردّ علىٰ مثل هذا الوهم.

توجيه حبّ البقاء

انّ حبّ البقاء كالغرائز الفطرية الأُخرىٰ في الإنسان ليس له في أصل الخلقة شكل محدّد وغير قابل للتغيير، ولا يشير إلىٰ مصداق خاصّ. بل انّه نظير الرغبات والغرائز الأصيلة في الإنسان بمثابة المادة الخام التي يمكن صبّها في قوالب مختلفة واستخدامها في مختلف أبعاد الحياة. ولذا قد يكون نافعا في حياة الإنسان وقد يكون ضاراً، وذلك حسب تشكّله والجهة التي ينساق إليها.

انّ حبّ البقاء لابدّ أن تتمّ هدايته نحو الجهة الصحيحة لكي يكون له الأثر المطلوب في حياة الإنسان، ويقوم بدوره النافع في بناء الحياة الإنسانية الخالدة قبل أن يكون ضاراً ومثيراً للمشكلات.

يودّ الإنسان أن يبقى، لكنّ السؤال هو: هل يتعلّق هذا البقاء المنشود بهذه الحياة الدنيوية، أم للانسان حياة أُخرىٰ يكون البقاء وصفاً لها؟ ليس من السهل تقديم الإجابة الصحيحة علىٰ مثل هذا السؤال، حيث انّه لا

يـرتبط بـمجال مـحسوس ومـادي مـحض، بـل لابـدّ مـن الإسـتعانة بـالعقل ومصادرالمعرفة باللامحسوسات.

فالذين يستخدمون عقولهم بدقة ويحصلون علىٰ معرفة صحيحة عن النـفس الإنسانية ويتوصلون بصورة مستقلة أو مستعينين بـالروايـات والآيـات إلىٰ انّ حقيقة الإنسان لا تنعدم وستعود يوماً ما وستكون لهـا حـياة أبـدية، بـإمكانهم استثمار هذه الغريزة جيّداً في طريق تكاملهم، ويجدون دافـعاً قـوياً لمـمارسة الأفعال الإيجابية والبنّاءة والمحبّذة خُلقيّاً في نطاق الرؤية الإسلامية.

ولكنْ إذا أهمل الإنسان استخدام عقله ومعرفة حقيقته ولم يشرق قلبه بـنور المعرفة ولم يؤمن بالآخرة فمن الطبيعي أن ينحصر ما يعرفه باسم الحياة في هذه الحياة الدنيوية وبالتالي يتمنّىٰ بقاء هذه الحياة ودوامها.

انّ رؤية الإنسان إذا تحدّدت هكذا فإنّ حبّ البقاء والخلود في ضوئها سوف يتجلّىٰ في حبّ الدنيا بصورته الخاصّة، ثمّ طلب الدنيا، وبالتالي عبادة الدنيا، سواء أكان منكرا للقيامة وجاحداً للآخرة وكان من المنكرين كما هو التعبير القرآني:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١].

أم كان في شك وتردّد فيها كما قال تعالىٰ في آيات أخرىٰ:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[٢].

أو: **﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾**[٣].

أو ينقل عن بعض آخر قولهم:

---

(١) الجاثية ٢٤. (٢) الدخان ٩.

(٣) النمل ٦٦.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾[١].

علىٰ أيّ حال، فإنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة سواء اعتقدوا بعدمها وانكروا وجودها أم لم يكن لهم اعتقاد وكانوا علىٰ شك وتردّد بشأنها فإنّ من الطبيعي أن يكون اهتمام أمثال هؤلاء مركّزا علىٰ الحياة الدنيا وحدها. وسيتجلّىٰ حبّهم الفطري للبقاء ويجد مصداقه في بقاء الحياة المادية. وبما انّ نطاق الحياة المادية الزائلة لا يمكن أن يتّسع لتلبية وإشباع حبّ الخلود فانّه يسبّب وقوع الفساد والكوارث أحياناً حيث يمكن تفسير الكثير من الحوادث التأريخية المرّة والجرائم الاجتماعية الفظيعة علىٰ هذا الأساس.

يحكي القرآن الكريم عن أهل الكتاب قولهم بانّهم يودّون لو يعيشون ألف عام حيث يقول:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ علىٰ حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٢].

لقد كانوا يودّون لو يعيشون ألف عام في الدنيا. انّ هذا الحبّ لاستمرار الحياة في الدنيا ينشأ من حبّ الإنسان الفطري للبقاء والخلود وليس ذلك أمراً سيئاً في حدّ ذاته، بل انّه حبّ فطري قد أودعته يد الخلق في ذات الإنسان ـ شاء أم أبىٰ ـ وسيكون خارجا عن نطاق إرادته وعن موطن القيم الأخلاقية.

ولكنْ نظراً إلىٰ اقتران هذا الحبّ الفطري برؤية خاطئة ـ كما عند المشركين وطائفة من بني اسرائيل ـ وهي ظنّهم انّ الحياة الإنسانية تنحصر في هذه الحياة الدنيوية، وفي مثل هذا الجوّ الفكري والمعرفي يتجلّىٰ ذلك الحبّ الفطري بهذا الشكل المنحرف وتكون له قيمة سلبيّة. فهذا الانحراف وهو الانجذاب الشديد

(١) الكهف ٣٦.
(٢) البقرة ٩٦.

للدنيا والحرص علىٰ الحياة المادية والخوف والوحشة من الموت يكون وليداً لحبّ البقاء الذي اتخذ صورة خاصّةً في ظلّ هذه الرؤية الضيقة والإنكار لعالم الآخرة، فأوجد في الإنسان مثل هذه المؤشرات والآثار الظاهرية والأعراض النفسية.

الخوف من الموت ومكافحته

من القضايا المطروحة في كلّ بقعة من عالم اليوم وتهتم بها الفلسفات والمذاهب والعقائد والمدارس الفكرية والاجتماعية المختلفة هي قضية الخوف من الموت.

انّ الخوف من الموت ظاهرة نفسية رهيبة وتوجب القلق والاضطراب والألم في بني الإنسان، ولو رام الإنسان المعيشة المريحة والمطمئنة والسارّة فعليه أن يطرد الخوف والقلق من الموت عن روحه ونفسه لكي يتحرر من هذا الاضطراب الذي يعكّر عليه صفو الحياة.

لو كان بالإمكان أن نمحو الموت من قاموس الحياة الإنسانية فسوف لا يبقى مجال للخوف من الموت تلقائيا، ولكنْ بما انّ الموت يُقبل علىٰ الإنسان يقينا وحتما ـ شاء أم أبىٰ ـ وقد خط المصير المحتوم للانسان في قانون **﴿كلّ نفس ذائقة الموت﴾** فإنّ الخوف والقلق منه يوجد في روح الإنسان، وتبدو آثاره وأعراضه حتّىٰ أنّه يمكن القول انّ منشأ الامراض النفسية لدىٰ الكثيرين هو هذه الحالة والظاهرة النفسانية، وهي السبب في سوق الكثيرين نحو البطالة في الحياة أو الانتحار أو تعاطي المخدّرات و المُسكرات.

وقد حظيت هذه الظاهرة النفسية بدرجة كبيرة من الأهمية حيث أشغلت بال

الكثير من علماء النفس، وبات هذا التساؤل يطرح نفسه أمامهم بنحو جدّي: كيف يمكن طرد الخوف من الموت في روح الانسان فيعيش براحة ورغد؟ انّهم لم يتوصّلوا إلىٰ أيّة نتيجة وعجزوا عن إعداد طريقة للحل سوىٰ أن يقنعوا الإنسان بالتسليم للموت كأمر واقعي حتمي لا يُنكر، لقد توصّلوا بمنتهىٰ العجز إلىٰ ضرورة إعداد الناس تدريجيّاً للاذعان للموت كأيّ أمر واقعي في الحياة، وتلقّيه بلا وجل لانّه يطال كلّ انسان شاء أم أبىٰ.

وقد أكد علماء النفس علىٰ هذا المبدأ التربوي وهو ضرورة تربية الطفل من البداية علىٰ أساس إدراك الأمور الواقعية والتسليم لها كما هي عليه، وهي أمور لا يمكن تحويرها و تغييرها. ولبعض المربين وعلماء النفس عبارة شهيرة وهي:

(إقبلْ نفسك كما أنت عليه، واقبلْ الأمور الواقعية كما هي عليه)

وفي كلّ الاحوال علىٰ الإنسان أن يطرد المُحالات من مخيلته وذهنه ومنها الخلود وعدم الموت.

ومن الضروري الالتفات إلىٰ هذه الحقيقة وهي أنّ الله سُبحانه قد أودع هذه الحالة النفسية (وهي الخوف من الموت) في ذات الإنسان علىٰ أساس من حكمته وتدبيره الحكيم، وهذه الحالة بدورها يمكن أن تنقذ حياة الإنسان من أخطار ومهالك كثيرة ومن حالات الموت القابلة للوقاية وتدفعه لمكافحة الكثير من الأمراض والابتعاد عن الأخطار.

كما انّ أساس الحياة الاجتماعية والنظام والقانون قائم عليها، ومع وجود الأحكام والقوانين الجنائية فإنّ الخوف من الموت أو القيود والآلام هي التي تدفع الناس لتنسيق سلوكهم وعلاقاتهم مع القانون وتحاشي الخطأ ووقاية أنفسهم حيثما كانوا من الأخطار والمهالك بسيرتهم العقلائية.

ولا شك انّ الخوف من الموت وحبّ البقاء في هذا المستوىٰ نافعان للانسان نفسه وللآخرين والمجتمع حتّىٰ بالنسبة للحياة المادية، وأمّا لو تعدّىٰ هذا المستوىٰ فسيكون منشأ للاضطراب والقلق أو يسبّب أمراضا نفسية مختلفة أخرىٰ، أو يسوق الإنسان نحو العدميّة والانتحار وتعاطي المخدّرات والمُسكرات، ويكون في هذه الحالة ضاراً يقينا لابدّ من مكافحته.

الاّ انّ طريق مكافحته ليس كما نقلنا آنفا عن بعض علماء النفس وهو الاقرار بالأمور الواقعية لانّ بعضها مخيف والتسليم بها لا يسكن الآلام، بل سيكون بذاته منشأ لخوف الإنسان ووحشته.

وعليه فإنّ السؤال هو: كيف يجب مكافحة هذه الحالة؟

لكي نقدّم إجابة صحيحة عن هذا السؤال لابدّ أن نتعرّف علىٰ المنشأ الأساسي للخوف من الموت ونباشر معالجته من تلك النقطة.

يمكن القول انّ المنشأ الأساسي لذلك هو الجهل بحقيقة الموت والتفسير والتحليل الخاطىء لها.

لو كان الموت يعني الفناء والإنعدام المحتوم للانسان بحيث لا يبقى له أيّ أثر من وجوده وحياته فمن الطبيعي أن يستولي عليه الرعب، ويستوحش دوماً من هذه الأحوال في المستقبل ومصيره المحتوم الذي رسمته يد القضاء، ولا مفرّ له من ذلك.

ولكنْ لو التفت إلىٰ أن حقيقة الموت ليست العدم والزوال والفناء، بل سوف يعود بعد الموت ولا تستمر حياته فحسبُ بل إن آثار حياته ومعالمها ستكون أقوىٰ وأجلىٰ، وستكون لذّاته وآلامه وإدراكه أشدَّ كما انّ الحياة الدنيا سيبهت

لونها بالقياس إلىٰ تلك الحياة بآثارها ومعالمها، ففي هذه الحالة سيختلف الأمر قطعاً، فإنّ الإنسان بهذه الرؤية وبهذا التفسير للموت سوف لا يهابه، بل بهذه الرؤية المستشفة من «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[١]. سينظر إلىٰ الحياة الحسية والمادية التي نسميها حياة كأنّها نوم، وموت الجسم يقظة من هذا النوم، وفي هذه الحالة لا يبقى مجال للخوف من الموت.

والآن لو أردنا التعرّف علىٰ حقيقة الموت وتعريفها للآخرين، فنظراً لكون الموت من أحوال الإنسان وأعراضه والحياة الإنسانية فلابدّ من جعل معرفتنا بالإنسان وحياته كاملة ودقيقة.

لو عرفنا حقيقة الإنسان معرفة صحيحة وأدركنا عدم إنحصار الحياة الإنسانية في هذه الحياة الدنيا، ليس هذا فحسبُ بل انّ حياته الأساسية والواقعية تكون بنحو لا يمكن اعتبار هذه الحياة حياة بالقياس إليها، وسوف تتغيّر رؤيتنا عن الموت ويزول الاضطراب والقلق منا.

في القرآن الكريم تعبير جميل عن الحياة الآخرة حيث يحكي عن الذي لم يعمل في الدنيا أعمالاً تنفعه هناك انّه:

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[٢].

ظاهر الآية هو أنّ الإنسان يرىٰ الحياة في الآخرة واسعة وعميقة فيدرك حينها معنىٰ الحياة، إذا كانت الحياة كما هي عليه في الآخرة فإنّ ما يطلق عليه (الحياة) في الدنيا ليست حياة أساساً ولا يصحّ إطلاق اسم الحياة عليها.

وفي آية أُخرىٰ يؤيّد القرآن استنتاجنا هذا من الآية المذكورة حيث يقول:

---

(١) بحار الانوار ١٣٤/٥٠ الرواية ١٥. (٢) الفجر ٢٤.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

في هذه الآية يدل لام التأكيد وضمير الفصل (هي) والألف واللام في (الحيوان) علىٰ الحصر ويؤكد إنحصار الحياة علىٰ ما هو كائن في الآخرة.

أجل، انّ الحياة الواقعية والأصيلة للانسان تكون في الآخرة، فلو اكتسب الإنسان مثل هذه الرؤية لاتّخذ حبّه للخلود والأبدية ورغبته في البقاء والخلود جهتهما الصحيحة ووجدا موقعهما الواقعي، وفي هذه الحالة يدرك انّ التعلّق بالأبدية والحبّ للخلود ليسا جزافاً ولا أمراً محالاً، بل لهما واقعية ويجب البحث عنهما والعثور عليهما.

وكما قلنا سابقاًنؤكد مرة أُخرىٰ انّه يجب البحث عن العلة الأساسية للانحراف عن حبّ الخلود والأبدية في عدم تكامل المعرفة والنقص فيها. أي حينما لا يدرك الإنسان حقيقة الحياة والحياة الحقيقية ويلخّص الحياة في الحياة الدنيا فإنّ هذا الحبّ يضلّه وتصبح قيمته سلبيّة، ولكنْ إذا كانت لديه معرفه صحيحة كان لحبّ الخلود تأثيره وقيمته الإيجابية أيضاً.

قيمة الحياة الدنيا

بعد العلم بأنّ الحياة الحقيقية والأبدية للانسان والخلود والدوام والبقاء تتيسّر في عالم الآخرة وانّ الحياة الدنيا فانية وزائلة يطرح هذا السؤال: ما هي إذنْ قيمة الحياة الدنيا؟ هل لها قيمة سلبيّة أم إيجابيّة؟ وإذا كانت إيجابيّة فما هي كيفية القيمة

---

(١) العنكبوت ٦٤.

الإيجابية؟ وبعبارة بسيطة: هل لابدّ أن نطلب الموت أم الحياة؟ وإلىٰ أيّ مستوىٰ وبأيّة كيفية؟

للإجابة عن السؤال المذكور ننقل بعض الآيات القرآنية:

في موضع خاطب الله سُبحانه بعض اليهود بقوله:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1].

الظاهر أنّ مراد الآية هو انّ عالم الآخرة هو عالم اللقاء مع الله عزّوجلّ وبما انّ المحبّ يودّ رؤية محبوبه، فإذا كنتم صادقين في ادعائكم حبّ الله وولايته فتمنّوا الموت كي تسرعوا إلىٰ لقاء الله تعالىٰ.

ونظير هذه الآية جاء في موضع آخر من القرآن:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلىٰ حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[2].

ربّما يستنتج من الآيتين المذكورتين ونظائرهما انّ البقاء والحياة في الدنيا أمر سلبي والموت أو الرحيل من هذا العالم ذو قيمة إيجابيّة، وبالتالي يجب علىٰ أصحاب الرؤية الصحيحة والذين يحبّون الله والآخرة أن يحبّوا الموت، وأن يجتنبوا معالجة أنفسهم إذا مرضوا، ويتركوا الوقاية من الموت عند الحوادث حتّىٰ

---

(١) الجمعة ٦ و ٧. (٢) البقرة ٩٤ ـ ٩٦.

إذا كان ذلك ممكنا لكي يموتوا بسرعة ويرتحلوا إلىٰ عالم الآخرة واللقاء بمحبوبهم!

من البديهي أنّه لا يمكن أن يكون مثل هذا الإستنتاج من الآيتين المذكورتين وأيّ آية أُخرىٰ صحيحا وذا حقيقة. أجل، من الصحيح أن يكون الإنسان طالبا للآخرة ولكنْ لا يمكن إنكار هذه الحقيقة وهي أنّ الله عزّوجلّ خلق الإنسان في هذا العالم علىٰ أساس حكمة خاصّة ولهدف خاصّ. وعليه فإنّ الوجود في هذا العالم والحياة فيه ليس عبثاً ولا جزافاً دون معنىٰ، بل له حكمة وحقيقة ولا يمكن انكار ذلك تماماً.

ولكنّ بما انّ الحياة في عالم الدنيا والحياة في عالم الآخرة لا يمكن أن تكونا في عرض واحد، لذا يمكننا أن نستنتج أنّ الرغبة في هذين اللونين من حياة الإنسان لا يمكن أن تكون متساوية وفي عرض واحد، وبما انّهما يتعلّقان بشخص واحد فإنّ هناك نوعاً من الترتّب والعلاقة الخاصّة الحاكمة عليهما، فإذا أردنا تقديم إجابة صحيحة عن السؤال المذكور لزمنا سلفاً الكشف عن هذه العلاقة بصورة دقيقة.

علاقة الحياة الدنيا بالحياة الآخرة

إذا عرف الإنسان هذه الحقيقة وهي انّ الحياة في الدنيا مقدمة للحياة في الآخرة ويمكن نيل السعادة في الآخرة بالعمل والسعي في الدنيا، والتفت إلىٰ انّ اللحظات القصيرة التي جعلها الله تعالىٰ في خدمته ستكون مفتاحاً لكنوزه الأُخروية الأبدية فانّه سيعرف الحياة الدنيا كما هي عليه، ويدرك انّ الحياة في هذا العالم ليست غير ذات قيمة سلبيّة فحسبُ، بل هي ذات قيمة إيجابيّة أيضاً

كالحياة الأُخروية مع فارق انّ قيمتها لا تكون ذاتية وأصيلة، بل مقدّمية ومرادة بالغير.

انّ الإنسان الذي يتمتّع بهذه المعرفة ليس لا يعادي الحياة الدنيا فحسبُ ولا يطردها تماماً، بل سيحبّها لأنّه بعد معرفة موقعها ودورها بالقياس إلىٰ الحياة الآخرة سيدرك هذه الحقيقة وهي انّه كلّما استمر وجوده في الدنيا أكثر كان قادراً علىٰ تحصيل تكامل أكبر وإنجاز المزيد من الأعمال الصالحة وبالتالي بلوغ مقامات أخروية أسمىٰ.

انّ الروايات أو الادعية المروية عن الائمة المعصومين عليهم السلام والتي تتحدّث عن طلبهم طول العمر من الله العظيم قائمة علىٰ هذه الرؤية والإستنتاج المذكور، لقد كانوا علىٰ علم ويعلّمون الآخرين بأنّ الحياة الدنيا يمكن أن تكون وسيلة لنيل السعادة الأُخروية. والتعابير الواردة في الروايات نظير «**الدنيا مزرعة الآخرة**»[1] تشير إلىٰ هذه الحقيقة وهي انّ علىٰ الإنسان أن يعمل في الدنيا لكي ينال السعادة الدائمة في الآخرة.

أجل انّ هذه الحياة طريق لابدّ أن نجتازه ووسيلة ينبغي أن نستخدمها في مجالها وبصورة صحيحة، وأداة يجب العمل بها بدقة كي ننال سعادتنا والحياة اللائقة في العالم الخالد. إذ بغير هذا النهج، أي لو لم نستفد من الحياة الدنيا بنحو صحيح وفقدنا الدقة والمراقبة التامة، فقد يكون ذلك الخلود مقرونا بالعذاب، ومن الواضح انّ ذلك أمرُّ وآلم من الفناء والعدم.

يحكي القرآن الكريم في إحدىٰ آياته عن لسان المشركين وأصحاب النار:

---

(١) بحار الانوار ٢٢٥/٧٠.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[١].

ولشدة الألم والعذاب في الحياة الأُخروية الخالدة يدعو المجرمون الله سُبحانه أن يميتهم ويعدمهم ويفضّلون الهلاك والفناء علىٰ الحياة القرينة مع الآلام والعذاب، فيجيبهم تعالىٰ: انكم باقون هناك دائما.

فنحن الذين نتمتع بنعمة الحياة في الدنيا ينبغي أن ندرك الغاية من هذه النعم ودورها في مجمل حياتنا. لو أدركنا انّ هناك حياة في الآخرة إلىٰ جانب الحياة الدنيا، وفهمنا ماهية العلاقة بين الدنيا والآخرة وتأثير حياتنا الدنيوية علىٰ حياتنا الأُخروية الخالدة وعرفنا انّه لابدّ من الزراعة هنا حتّىٰ يتمّ الحصاد هناك، وانّ أُولي النعمة هناك هم الذين انجزوا أعمالاً هنا وسعوا وجدّوا من أجل تلك الحياة وتحصيل السعادة فيها، ففي هذه الحالة يرغب الإنسان أن تطول فترة حياته الدنيوية كي يُوفّق للمزيد من العمل وتحصيل نتائج أكبر من عمره.

إشكال و جواب

يطرح هنا هذا السؤال: إذا كان البقاء في الدنيا نافعاً إلىٰ حدّ الدعاء لاستمرار هذه الحياة وبقائها فلماذا تشير الآيات المذكورة إلىٰ أن علىٰ أوليٰاء الله تمني الموت؟ انّ استنتاجنا هذا لا ينسجم مع ظاهر تلك الآيات، أو لماذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه»[٢].

أجل، لماذا كان أوليٰاء الله يودّون الرحيل من الدنيا؟ ولماذا يحلو الموت لدىٰ أوليٰاء الله الطيبين إلىٰ هذا المستوى؟

للإجابة عن السؤال المذكور ينبغي ملاحظة الاختلاف في الحيثيات والجهات.

---

(١) الزخرف ٧٧. (٢) نهج البلاغة ـ شرح ابن ابي الحديد ١/٢١٣.

انّ تمني الموت من قِبل أولياء الله هو من أجل لقاء محبوبهم بعد الموت حيث فصلتهم الحياة المادية عن محبوبهم، وبالموت يرتفع هذا المانع وينالون لقاء محبوبهم، ولا يتنافىٰ ذلك مع طلبهم البقاء والدوام في هذا العالم من جهة أخرىٰ، انّهم يطلبون بقاءهم لكي يستعدوا بنحو أفضل للّقاء، ولكي يجعلوا حياتهم في عالم الآخرة أطيب وأكثر ثماراً وذلك بسعيهم الحثيث.

فإنّ المقصود الأصيل للانسان هو النِعم الأُخروية والكرامات الإلٰهية ورضا الله ولقاؤه. ولذا يتمنّىٰ الموت لتحصيلها ويقول: ليتني أرحل سريعاً فأصِل إلىٰ هناك، ولكنّه حينما يلتفت إلىٰ انّ الله تعالىٰ وهو محبوبه يريد لقاءه في الآخرة وقد تزوّد من قبلُ بأعمال كثيرة واستعد في الدنيا بنحو أكبر للتنعّم بكراماته ونعمه يكون البقاء في هذا العالم مراداً وقيّما أيضاً.

وعليه فإنّ المؤمن الذي يعلم انّ الحياة الدائمة الأبدية والكرامات الإلٰهية تكون هناك فانّه يريد تلك الحياة بالاصالة، ولذا يكون الموت وهو الواسطة للانتقال إلىٰ ذلك العالم طيبا. انّه لا يحبّ هذا العالم بالذات لانّ نعمه عابرة وفانية ولكنْ بتدبره في انّه كلّما دام بقاؤه في هذا العالم وازداد استعداداً سينال نعما أكبر في ذلك العالم ومرتبة أعلىٰ من رضا مولاه ومحبوبه كان بقاؤه محبوبا ومراداً بالعَرض.

من هنا نقرأ في الروايات وسيرة الإمام السجادعليه السلام انّه كان يتضرع إلىٰ الله ويدعو:

«**فإذا كان عمري مرتعا للشيطان فاقبضني اليك**»[1].

رؤية الإمامعليه السلام هي انّ هذه الحياة مرادة مادامت تساهم في تحقيق سعادة

(١) بحار الانوار ٦٢/٧٣ في شرح الرواية ٣٠.

الإنسان ورفاهه في حياته الاُخروية الأبدية. أمّا إذا كانت كيفية حياته في هـذا العالم سبباً لمضاعفة اثقاله وآلامه وعذابه وشقائه في عالم الآخرة أو حرمانه من بعض الكرامات فانّها لا تكون مرادة، إذ كلّما طال بقاؤه ساءت حياته الأبـدية. وعليه من الأفضل أن يُعجّل في رحيله من هذا العالم إلىٰ عالم الآخرة. بملاحظة ما ذُكر يمكن القول: يصحّ تمنّي الموت في بعض الفروض الاُخرىٰ أيضاً، وبعبارة اُخرىٰ انّ تمني الموت يشير إلىٰ حقيقتين وعلتين أو توجيهين صحيحين:

في بعض الموارد قد يكون تمني الموت معبّرا عن نفاد صبر الإنسان من البعد عن محبوبه، في هذه الحالة يحتمل صحّة حبّ الإنسان للموت والحياة لحيثيتين ولحاظين مختلفين: يتمنى الموت لانّ فؤاده توّاق لوصال محبوبه، ويريد البـقاء في الدنيا لأنّه ببقائه فيها يزداد استعداداً للقاء محبوبه في عالم الآخرة.

وفي بعض الموارد يكون معنىٰ حبّ الإنسان للموت هو ان حياته حينما تصبح مرتعا للشيطان فإنّ بقاءه في الدنيا كلّما استمر ازداد بعداً من الله عزّوجلّ. وعليه فإنّ بقاءه في الدنيا ذو قيمة سلبيّة ومرفوض لديه.

بملاحظة ما ذكرنا اتّضح صحّة تمني الموت من قبل أوليـاء الله تـعالىٰ لأنّـه الواسطة للقاء محبوبهم، ولكنّ بقاءهم في هذه الحياة مراد أيضاً لكي ينالوا المزيد من الكرامات عند اللقاء.

نعم، المحبّون يريدون ما يريد محبوبهم. ولقد خلقهم الله في هذا العالم وقضت إرادته التكوينية استمرار حياتهم فيها حتّىٰ بلوغ أجلهم المحتوم، ولذا يحبّ أوليٰاء الله سُبحانه الحياة هنا لأنّه سُبحانه يريد لهم بقاء أطول هنا ويـمارسون أعـمالاً صالحة لينالوا كمالات أكبر، أو يوصلوا الآخرين إلىٰ الكمال.

خلاصة القول

حصيلة البحث هي أن حبّ الخلود حبّ فطري غير مذموم ولا ممدوح أخلاقيا، وإذا كان حبّ الحياة الدنيا بلحاظ كونها مرادة بالذات فإنّ ذلك ناشيء من رؤية خاطئة ومن عدم الايمان بالآخرة، ويختص بالذين لم يعرفوا أنفسهم وحياتهم الحقيقية فيريدون الحياة الدنيا، وحتّىٰ لو كانوا مؤمنين ومعتقدين بالآخرة فإنّ إيمانهم ليس قوياً ليؤثّر علىٰ أعمالهم وسلوكهم بنحو كامل، كحال الكثير من المؤمنين الذين يؤمنون بالآخرة وهم يصلّون ولكنّهم يحبّون الدنيا أيضاً، وينشأ الكثير من أعمالهم من حبّهم وانجذابهم المفرط للحياة الدنيا. انّ الحبّ الناشيء من ضعف الايمان ناشيء بدوره من ضآلة المعرفة.

انّ التعلّق الشديد بالحياة الدنيا غير صحيح للمؤمن والكافر علىٰ السواء مع فارق هو انّه يدمّر الكيان المعنوي للكافر تدميراً كاملا ويسلبه سعادته الدائمة لافتقاده الايمان من الأساس، بينما المؤمن لاتصافه بالايمان لا يتسافل تماماً وإنْ لم يكن إيمانه كاملا وقوياً، بل انّ ضعف إيمانه يحطّ من مرتبته ودرجات كماله بمعنىٰ انّه كلّما ازداد حبّاً للدنيا تنزّلت مراتبه الأُخروية.

الآنّ ما ذُكر لايعني نكران حبّ الدنيا تماماً. فالحياة الدنيا بوصفها وسيلة لنيل السعادة الدائمة ـ شئنا أم ابينا ـ قد تكون نافعة ومرادة بالعَرض.

من خلال ما ذكرنا تتضح نكتة الجمع بين الآيات والروايات المتعارضة في الظاهر حيث انّها تذمّ حبّ الدنيا تارةً، وتطلب طول العمر في الوقت ذاته تارةً أخرىٰ. أي يجب القول: انّها غير متعارضة واقعا لانّ المذموم هو حبّ الإنسان الذاتي والأصيل للدنيا ولا يتنافىٰ ذلك مع كونها مرادة بالعَرض ولأجل كونها وسيلة لنيل السعادة في الآخرة.

لا قيمة ذاتية للدنيا لدىٰ أولياء الله عزّوجلّ الذين لا يريدون غير ما يـريده محبوبهم، ورغم ذلك يكون البقاء في الدنيا مراداً لهم لانّ مولاهم شاء ذلك. كما إذا أراد محبوبٌ من محبّه القيام بعمل في مكان بعيد عنه، فإنّ هذا العمل في ذاته غير مراد للمحبّ، ولكنْ بملاحظة طلب المحبوب ليس أنّه يكون قابلا للتحمّل فحسبُ بل يكون طيبا ويقوم به بشوق، يقول الإمام علي عليه السلام بهذا الشأن:

«ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين»[١].

أمّا المؤمنون الذين لا يرتقون إلىٰ مستوىٰ الأولياء في المعرفة والحبّ الإلٰهي يكون حبّ الدنيا مراداً لديهم من أجل القيام بالمزيد من الأعمال الصـالحة كـي يتمتعوا بنِعم أخروية أكبر.

ولذا لا يريدون الحياة الدنيا ما لم تقدم تلك النـتيجة المـتوخاة. وإنْ أصـبح عمرهم مرتعا للشيطان فانّهم لا يريدونها بل يسألون الله إنهاء حياتهم.

من هنا يتّضح السبب في تحذير الإنسان في الروايات من طول الأمل ووصفه كأعظم خطر يهدّد سعادة الإنسان.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام:

«انّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوىٰ وطول الأمل»[٢].

فطول الأمل دليل الحبّ المفرط لهذه الحياة وغفلة الإنسان ونسـيانه للـحياة الدائمة والسعادة الخالدة والغاية النـهائية، ويـجر الإنسـان لارتكـاب مـختلف الأعمال القبيحة، ويصدّه عن الأعمال الممهّدة للسعادة الدائمة.

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٩٣.
(٢) المصدر السابق ـ الخطبة ٢٨.

القسم الثالث



لذة الإنسان وسعادته

القسم الثالث

٣-١

حبّ اللذة والسعادة

القرآن وحبّ اللذة

حبّ اللذة المذموم

قياس وتقييم اللذّات

تحمّل المشاقّ بأمل نيل اللذّات

نماذج من الطالبين للراحة

بنو اسرائيل

المنافقون

المنافقون في القرآن

رؤية القرآن حول الالتذاذ

الشدّة والضعف في القيم السلبيّة

حبّ اللذة والسعادة

الغريزة الأُخرىٰ من الغرائز الفطرية في الإنسان هي حبّ اللذة وحبّ الراحة وتتقارن عادة مع الهروب من المشاقّ والآلام.

فطرية هذه الغريزة تعني أن الروح والنفس الإنسانية خُلقت بنحو لا تستطيع أن تتنفّر عن اللذة وتشتاق إلىٰ الألم.

وبعبارة أُخرىٰ: انّ حبّ الإنسان للّذة والالتذاذ ونفوره من الآلام والعذاب أمر غير اختياري له، بل مودع في ذاته تكوينا. فلا يدخل أصل هذا الحبّ في دائرة الأخلاق لأنّه أمر غير اختياري ولا يصحّ ذمّ شخص أو الثناء عليه بسبب حبّه للذة والالتذاذ أو نفوره من الألم والعذاب.

وينبغي الالتفات إلىٰ انّ السعادة ليست أمراً منفصلا عن اللذة ولا يختلف عنها اختلافاً ذاتياً وماهوياً[١]. انّ حقيقة سعادة الإنسان ترجع إلىٰ لذته الدائمة والشاملة، ولهذا فانّنا نذكر اللذة والسعادة هنا معاً كتوأمين.

---

(١) راجع هذا الكتاب ج ١/ ٢٠ ـ ٢٢.

القرآن وحبّ اللذة

انّ القرآن الكريم لا ينفي وجود حبّ اللذة ولا يستنكره، ليس هذا فحسبُ بل يقيم مجموعة من تعاليمه علىٰ أساس هذا الحبّ الطبيعي في الإنسان ويستثمره في نهجه التربوي.

حينما يرغّب القرآن الإنسان في الإلتزام والعمل بتعاليم الديانة الإلٰهية، ويشجعه علىٰ السير في طريق الحياة الصحيح يستثمر جيّداً وجود هذا الحبّ ودوره في اتّباع منهج وسلوك خاصّ.

يعِد القرآن الإنسانَ بأنه سوف ينال اللذة والسعادة الأبدية انْ هو اتّبع الصراط الإلٰهي في الحياة، ويحذّره بأنّ المستقبل المرّ غير الهانىء والقرين بالشقاء سيكون بانتظاره انْ هو انحرف عن هذا الطريق وتمرّد علىٰ الأمر الإلٰهي، وسيتعرض للعذاب والشقاء، والقرآن يزخر بالتبشير بالسعادة واللذة والإنذار والتهديد بالعذاب والشقاء.

في جميع المواضع التي استعمل فيها لفظ السعادة والفلاح والفوز ونظائرها في هذا الكتاب المقدس فانّه يعني انّ علىٰ الإنسان ـ لحبّه الفطري للسعادة والهناء ـ أن يعمل بالتعاليم الدينية لكي يُوفّق لنيل مراده وضالّته، ويصل إلىٰ الغاية التي يبتغيها، وهذا يعني انّ القرآن يؤيد ويقرّ بوجود هذا الحبّ الفطري في الإنسان ولا ينكره أو ينفيه، بل يوجّهه نحو النهج التربوي الصحيح للانسان.

علىٰ أنّ القرآن قد استعمل في بعض الآيات مادة (اللذة) ففي آية يقول عن الجنة التي وعد بها الصالحين:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[١].

---

(١) الزخرف ٧١.

وجاء في آية أخرىٰ:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾(١).

انّ الجنة التي نعدكم اياها أجراً لأعمالكم الصالحة هي المكان الذي يتوفّر فيه ويكون في متناولكم كلّ ما تحبّون وتلتذ بها أعينكم.

ويقول القرآن عن الذين يسهرون الليل ويعبدون الله وحسب التعبير القرآني:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٢):

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

أجل، رعايةً لهؤلاء وحبّاً لهم قد ادّخر لهم ما لم تره عين انسان ولم يسمع به ولا علم به أحد وليس بوسعه معرفة كنهه.

وقد استعمل القرآن مادة (السعادة) في آيتين، مرة في الآية:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ...... وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٤).

ويقول عن الأشقياء في مقابل السعداء:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾(٥).

ويشير القرآن أيضاً إلىٰ هذه الغريزة الإنسانية بتعابير وأساليب بيانية جذابة، نقل نماذج منها: يقول في أوصاف الجنة وتنعّم أهلها:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي

---

(١) محمد ﷺ ١٥.
(٢) السجدة ١٦.
(٣) السجدة ١٧.
(٤) هود ١٠٥ ـ ١٠٨.
(٥) هود ١٠٦.

صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[١].

وبهذا الشأن يقول في آية أخرىٰ:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...... وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[٢].

والآيتان المذكورتان تُشيران إلىٰ الغريزة الإنسانية التي نبحث عنها بـبُعدَيْها الإيجابي والسلبي وتستثمران الدور التربوي لكلا البعدين وما لهما من تأثير علىٰ تصوير أعمال الإنسان وسلوكه، وذلك من أجل هدايته وإرشاده وتربيته والتوجيه الصحيح لهذه الغريزة.

لقد أشرنا سابقاً إلىٰ انّ غرائز الإنسان الفطرية أساساً ذات وجهين بصورة عامّة، وانّ كلّ غريزة ذات جهة إيجابيّة وأُخرىٰ سلبيّة، أو انّها ذات قطب إيجابيّ وآخر سلبي. وحبّ اللذة أيضاً غير مستثنى من هذه القاعدة، فالوجه الآخر منه هو الهروب من الآلام، أي كما يُقبل الإنسان فطريا وذاتا علىٰ اللذة والالتذاذ يوجد في روحه ـ في المقابل ـ الهروب والنفور من المشاقّ والآلام علىٰ نحو تكويني وغير اختياري.

وعليه فإنّ أصل حبّ الإنسان لِلّذة يحظى بتأييد القرآن، ولا يعترض عليه لأنّه غريزة فطرية وقهرية. ومن الطبيعي أن يقرّ القرآن بهذه الغريزة، ولكنّه لا يتركها حرة مطلقة العنان أبداً، بل يرشدها نحو جهتها الصحيحة ويعِد الإنسان بشيء فيه لذة خارقة.

---

(١) الحجر ٤٥ ـ ٤٨.
(٢) فاطر ٣٣ ـ ٣٥.

وعلىٰ أساس هذه الحقيقة التي ذكرناها في الفصول السابقة ـ وهي انّ الغرائز الفطرية في الإنسان تتكيف وتتبلور حسب درجة المعرفة وتتّسع وتضيق أو تشير إلىٰ أهداف بعيدة أو قريبة حسب كمية وكيفية وسطحية وعمق علمنا ومعرفتنا ـ يعلّم القرآن الإنسان الذي يبحث عن حياة اللذائذ بعيدا عن الآلام والمشاقّ بأنّ مثل هذه الحياة تتحقّق في الآخرة وللمؤمنين فقط، وذلك بهدف سوقهم نحو الغايات الإنسانية السامية وتحريرهم من اللذائذ العابرة والاهواء المادية الآنية.

وفي ختام البحث نذكر التعبير القرآني الآخر فيما يتعلّق بهذه الغريزة وهو (الحياة الطيبة) في آية أخرىٰ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[١].

في الحقيقة انّ الله سُبحانه يرغّب الإنسان في هذه الآية ـ من خلال التحدّث عن الحياة الطيبة ـ في الايمان والعمل الصالح ليصبح اهلاً لتفضل الله عزّوجلّ عليه بالحياة الطيبة والطاهرة في الواقع الخارجي.

وبكلمات موجزة: انّ القرآن الكريم يدعو الناس إلىٰ الايمان والعمل الصالح ويبشر بالأجر الأُخروي مصحوبا بالسعادة واللذة الدائمة. ونحن نستنتج انّ حبّ اللذة في ذاته غير مرفوض في الرؤية القرآنية حتّىٰ يكون مورداً للذمّ والملامة.

حبّ اللذة المذموم

هنا وبعد أن اتّضح عدم اعتبار القرآن وجود هذه الغريزة أمراً سيئا ومرفوضا يطرح هذا السؤال: مع وجود هذه الرؤية القرآنية الإيجابية لماذا يذمّ حبّ اللذة أحياناً؟ وكيف يمكن الجمع بين هذا الذمّ وتلك الرؤية القرآنية؟

في الإجابة عن هذا السؤال نقول: انّ ذمّ هذه الغريزة لا يتعلّق بأصل حبّ اللذة

---

(١) النحل ٩٧.

كي يتعارض مع الرؤية القرآنية هذه، بل انّ منشأ هذا الذمّ هو أمور أُخرىٰ نشير إلىٰ بعضها، وبعبارة أخرىٰ: ليس أصل اللذة هو المنشأ لهذا الذمّ بل ماقترنت به من عدة عوامل ثانوية وعرضية، وبدونها لا يتّجه ذمّ إلىٰ حبّ اللذة في الإنسان. ونشير إلىٰ بعض هذه العوامل العرضية:

أ ـ الغفلة ونسيان اللذائذ ذات القيمة الأكبر والأفضل، وذلك نتيجةً للاهتمام والإستغراق في اللذائذ الآنية والعابرة والاهتمام المفرط بالأهواء الرخيصة.

عندما يدرك الإنسان لذة فإنّ التفاته ينصرف إليها في البداية، وفي المرحلة الثانية والمراحل التالية لها تشتد رغبته تدريجيّاً في الانتفاع الأكبر من ذلك الشيء اللذيذ، وبالتالي يُحرَم شيئاً فشيئاً من اللذائذ الموجودة الأُخرىٰ مما يمكنه التمتع بها.

بعبارة أُخرىٰ انّ الإنسان ذو قابلية محدودة ولم يخلق في هذا العالم بنحو يمكنه من التمتع بجميع اللذائذ في آن واحد وينتفع بكلّ ما له شأن الالتذاذ به، فيضطر لانتخاب بعض ما يمكن الالتذاذ به من بينها.

ومن الواضح أن مقتضىٰ العقل والمنطق انتخاب الأفضل والأشد لذة من بين اللذائذ المتنوّعة بكمياتها وكيفياتها ودرجاتها المختلفة، الاّ انّه قد يخطىء وينحرف ولا يراعي الموازين العقلانية الصحيحة في انتخابه أحياناً، بل يبادر لانتخاب بعض اللذائذ علىٰ أساس موازين غير عقلانية وغير منطقية وغير صحيحة، بل بدون الالتفات إلىٰ أيّ معيار وإنّما من أجل الأُنس ببعض اللذائذ الحسية المادية، ومثل هذا الترجيح يصدّه عن لذة هي أشدُّ وأسمىٰ. ومن هنا سيصبح منشأ لقيمة سلبيّة.

ب ـ الاقبال علىٰ اللذائذ الخسيسة والإستغراق في الأهواء المنحطة ذات القيمة الدانية بسبب حبّ اللذة المفرط وعدم تحمّل الصعاب والعمل والسعي. من يظنّ

انّه قادر علىٰ امتلاك حياة خالية من الصعاب والمشاقّ، يودّ ـ استنادا إلىٰ حبّه المفرط للّذة ـ الهروبَ من كلّ ما يستوجب عذابه ومشقته ويغرق في لذائذ دانية وأهواء رخيصة وفاقدة للقيمة، غافلاً عن انّ الله سُبحانه قد جعل هذه الحياة قرينة الآلام والصعاب والسعي والعمل ولا تخلو عن الأتعاب والمشاقّ. ان اللذائذ التي يبحث عنها الإنسان في هذا العالم ذات مقدمات يصاحب إعدادها المشاقّ ولا يصل الإنسان الى قُلل الآمال الاّ بالتعب والكلل.

ويؤكّد القرآن علىٰ هذه القضية كثيرا وهي انّ حياة الإنسان في الدنيا قرينة المصاعب والمشقّات. وعلينا أن نفهم ونقبل هذه الحقيقة، وإنْ كانت مرّة، وهي انّ الحياة الخالية عن المشاقّ لن تتيسّر لأحد في هذه النشأة. والقرآن يخبر في إحدىٰ آياته بتعبير جذاب عن هذا التقارن والتلاحم بين الحياة والأتعاب بهذا النحو:

﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي كَبَدٍ**﴾(١).

علىٰ هذا فلاينبغي للانسان أن يبحث عن كنز بدون نَصَب، وحياة بدون تعب، ولكنْ بوسعه أن ينتخب من بين اللذّات ـ التي يقترن جميعها بالأتعاب والمشاقّ ـ ما هي أكبر قيمة وأدوم مدّة، وعليه أن يعمل بهذا النحو وإنْ كان فيه أتعاب ومشاقّ أكبر.

وأمّا لو غضّ شخص نظره عن تلك اللذّات السامية واستغرق في اللذّات الدنيئة والرخيصة وسهلة التناول والتي لا تحتاج إلىٰ تحمّل مشقة وسعي مضاعف، حبّاً للكسل والدعة وهرباً من السعي والتعب، فإنّ طلب اللذة هذا مذموم لهذه القضية الهامشية.

---

(١) البلد ٤.

ج ـ التقصير في ازدهار استعداد الإنسان لإدراك اللذّات السامية والإكتفاء باللذّات الطبيعية.

انّ الإنسان منذ بدء ظهوره لا يعرف جميع اللذّات المتاحة لَهُ بصورة عامّة. انّه يدرك في طفولته لذة الأكل والشرب فقط، ثمّ يعرف تدريجيّاً لذة اللعب، ثمّ اللذة الجنسية لدىٰ البلوغ.

هذه نماذج من مجموعة اللذّات الإنسانية التي تتحقّق بشكل تلقائي وبصورة طبيعية. فإنّ بني الإنسان المتعارفين والسالمين يدركون اللذّات المذكورة في سنين خاصّة من أعمارهم، ولكنْ هناك مجموعة أُخرىٰ من اللذّات يمكن أن يحصل الإنسان عليها بسعيه وجهوده فقط من قبيل لذة الأُنس مع الله تعالىٰ والحظوة بالقرب والمنزلة لديه. مثل هذه اللذّات نوع آخر من اللذّات الإنسانية، بل ينبغي أن يختصّ اسم اللذّات الإنسانية بهذا النوع، لانّ النوع الأول يحصل لدىٰ الحيوانات أيضاً ويتميّز النوع الثاني بفارق واضح، وهو أنّ قابلية إدراكها لا تنضج في الإنسان ولا تصل إلىٰ الفعلية بنحو تلقائي وبصورة طبيعية، بل للعوامل الخارجية وجهود الإنسان دور أساسي في نضجها وازدهارها.

وعليه فإنّ العقل يقتضي أن يهيّيء الإنسان الذي يبحث عن الكمال الأجواء لنضج هذه القابليات ويسعىٰ ويجدّ بنفسه دون أن يغرق في مستنقع اللذّات الطبيعية من النوع الأول والميول والأهواء الحيوانية. فإذا توانىٰ في نيل القابلية لإدراك هذه اللذّات السامية ولم يكلّف نفسه جهداً، بل اكتفى باللذّات الطبيعية والرخيصة فقط كان ذلك انتخابا خاطئا ومنشأ للقيمة السلبيّة.

فمن الضروري الاهتمام بهذه الأمور الثلاثة في مجال حبّ اللذة:

١ ـ معرفة عدم وجود حياة مجرّدة عن المشاقّ، فعلينا إعداد أنفسنا لتحمّل

المصاعب في هذه الحياة حيث تتبعها لذّات قيّمة طبعاً، ولنحذر من الوقوع في اللذّات والأهواء والرغبات الرخيصة إثر الجزع وقلة التحمّل.

٢ ـ المقارنه بين اللذّات المتوفّرة لنا ثمّ انتخاب الأفضل والأكبر قيمة من بينها.

٣ ـ السعي الحثيث لاكتساب قابلية إدراك اللذّات السامية والإستعداد للتمتع باللذّات الإنسانية المتعالية وتوفير أجواء نضجها ولوازم ازدهارها. فمن اللازم علىٰ الإنسان حينما يعلم بوجود مثل هذه اللذّات السامية أن يسعى لنيلها وتحرير نفسه من مستنقع اللذّات الحيوانية، والاهتمام بها عند الانتخاب وعدم الغفلة عنها.

وتدل آيات قرآنية كثيرة في هذا المجال علىٰ أن بني الإنسان في طبيعتهم يطلبون اللذّات المادية والدنيوية في حين تكون اللذّات الأُخروية أرجح من اللذّات الدنيوية، وعند التزاحم بين اللذّات وعدم امكانية الجمع بينها فمن الواجب انتخاب اللذّات الأفضل، والا فانّهم يمارسون ما لا قيمة له بل ذا قيمة سلبيّة. نشير هنا إلىٰ عدد من هذه الآيات كنماذج، قال تعالىٰ في إحداها:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[١].

وقال في آية أخرىٰ:

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[٢].

وجاء في آية أخرىٰ:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾[٣].

---

(١) الأعلىٰ ١٦ و ١٧.
(٢) الانفال ٦٧.
(٣) الإسراء ١٨ و ١٩.

قياس وتقييم اللذّات

عند مقارنه الدنيا مع الآخرة في البحث الماضي قلنا: بما انّ الإنسان يبحث عن حياة باقية فالله سُبحانه يرشده لنيل هذا المقصود والعثور علىٰ هذه الضالة ويعلّمه بأنّ الحياة الآخرة أبقىٰ. هنا ينبغي الالتفات إلىٰ وجوب ملاحظة شدة اللذة وكيفيتها وعمقها في هذه المقارنة، فإنّ اللذة والسعادة الاُخروية من هذه الناحية هي الأفضل والأكثر قيمة أيضاً بالقياس إلىٰ اللذّات الدنيوية الضئيلة والسطحية.

فهنا معياران في هذه المقارنه والتقييم لترجيح لذة علىٰ اُخرىٰ هما: الكيفية والدوام، واستناداً إلىٰ الآية الكريمة القائلة:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1].

وعلىٰ أساس هذين المعيارين المذكورين تكون لذّات الإنسان في حياته الاُخروية أرجح وأكثر امتيازا.

يفضّل الإنسان فطريا لذة تدوم سنة علىٰ لذة ساعة. ولو افترضنا انّ اللذتين تساويتا زمانا ولكنْ اختلفتا كيفية وشدة وضعفا أو تقارنت إحداهما بالآلام والمتاعب وكانت الاُخرىٰ خالية من الشوائب فإنّ الإنسان يرجّح طبعاً اللذة الأشد والأقوى علىٰ اللذة الأضعف والأكثر سطحية، ويرجّح اللذة النقية البعيدة عن الآلام والمشاقّ علىٰ اللذة المصحوبة بها.

يبدو انّ كلمة «خير» في مثل هذه الآيات تشير إلىٰ هذه الشدة والكيفية الأرفع والخلوّ من الآلام والمتاعب. إذنْ فالآيات السابقة وما يشبهها تكون قد أشارت بايجازها إلىٰ جميع معايير الترجيح.

---

(١) الأعلىٰ ١٧.

تحمّل المشاقّ بأمل نيل اللذّات

الملاحظة الملفتة الأُخرىٰ هي ضرورة تحمّل الإنسان الصعاب لكي ينال اللذّات الأُخروية القيّمة كما هو شأنه في الحياة الاعتيادية واليومية.

انّ الأتعاب التي يتحمّلها العمّال والفلاحون في حياتهم اليومية هي من أجل توفير الراحة والرفاهية لأنفسهم وعوائلهم في المستقبل بعملهم وسعيهم الفعلي، والاّ لم يكونوا علىٰ استعداد لتحمّل المشاقّ والأتعاب والرضوخ لعبء العمل والسعي أبداً.

وعلىٰ هذا فإنّ تحمّل المشاقّ والأتعاب بهدف الوصول إلىٰ لذة أكثر وأفضل وأشدّ وأبقىٰ، أمر مألوف وشامل بصورة فطرية وارتكازية بين بني الإنسان كافة وذلك في نطاق اللذّات المادية والمعنوية، ولكنْ ببالغ الأسف حينما يأتي دور الشؤون الأُخروية واللذّات الأبدية يبدون ضعفا غالباً، ولا يستعدون لتحمّل مشاقّ هذا العالم من أجل نيل اللذّات الأُخروية.

قد يُسأل هنا: رغم ترجيح الإنسان فطرياً اللذّات الأفضل والأبقى علىٰ اللذّات الوضيعة وقصيرة الأمد وابتناء الحياة الإنسانية نوعاً علىٰ هذه الحقيقة بوضوح، كيف انّ الكثير من الناس لا يراعون هذه القاعدة فيما يتعلّق بالحياة واللذّات الأُخروية ويرجّحون اللذّات الدنيوية العابرة علىٰ الحياة واللذّات الدائمة في الآخرة؟ في الإجابة عن هذا السؤال يجب القول: انّ المنشأ الرئيسي والعامل النفسي لمثل هذا الترجيح والانتخاب الخاطىء وغير المعقول هو ضحالة المعرفة ويتبعها ضعف الايمان.

فإذا اعتقد انسان حقَّ الاعتقاد انّ الحياة الدنيا غير قابلة للقياس مع الحياة الآخرة، وانّ لذّاته وآلامه في الدنيا أكثر سطحية، وإدراكه في هذا العالم أضعف من

إدراكه في الآخرة، وانّ آثار الحياة في الدنيا لا تساوي شيئاً بالقياس إلىٰ آثار الآخرة، واعتقد بأنّ الدنيا محدودة ومتناهية والآخرة غير محدودة وغير متناهية، وحياة الإنسان الدنيوية بالقياس إلىٰ الحياة الأُخروية أقصر من طرفة عين بالقياس إلىٰ ألف عام، واعتقد بأنّ تحمُّل بعض الأتعاب والمشاقّ والمرارة في هذا العالم يستتبع السعادة واللذة الدائمة، لهان عليه تحمُّل هذه المشاقّ ولكان هجران هذه اللذّات سهلاً بل ويكون لذيذا.

الاّ انّ الكثير من بني الإنسان ينجذب اهتمامهم ـ نتيجةً لضعف الايمان وضحالة المعرفة ـ إلىٰ هذه اللذّات المادية الوضيعة ويتركّز علىٰ شؤون الحياة الدنيا، وبالتالي يرتكبون ما يترتّب عليه العذاب في الآخرة.

لو سألتم العاصي لماذا ترتكب المعصية؟ لأجاب: انّ هذا العمل لذيذ ويمارسه للذته.

ولو سألتم: أليس في ترك هذه المعصية لذة أخروية؟ أوَليست اللذة الأُخروية أسمىٰ وأشدَّ وأكثر دواماً من هذه اللذة العابرة والضعيفة؟ إذنْ لماذا ترجِّح هذه اللذة العابرة والضعيفة علىٰ تلك اللذة الأبدية والشديدة؟ لعجز عن تقديم جواب مقنع ومعقول، بل قد يشجب نفسه علىٰ ذلك، الاّ انّه يمارس ذلك الفعل عمليّاً ولا يراعي لوازم هذه الحقيقة. سرّ القضية هو أنّ العاصي وإنْ أقر وذمّ نفسه ولم ينكر الآخرة ولذّاتها ولكنّ سلوكه الخاطىء يشير إلىٰ ضعف إيمانه بالآخرة قطعاً، وعدم اكتمال معرفته بها، وهنا يكمن السبب الرئيسي لارتكاب المعصية.

والحاصل أنّ المنشأ الرئيسي لهذا التناقض بين القول والعمل هو ضعف الايمان والنقص في المعرفة. وهو يلوم نفسه لوجود أصل الايمان فيه مهما كان ضعيفا، ولا يهجر جميع اللذّات العابرة لضعف إيمانه وضحالة معرفته. فلو كان ذا إيمان قوي

ومعرفة ذات مستوىٰ رفيع بحيث يكون كمن يرىٰ عذاب الآخرة لهان عليه تحمّل الصعاب وهجر لذّات المعاصي.

فإنّ الالتفات إلىٰ اللذّات الأسمىٰ والأفضل والأكثر دواماً يمثّل دافعاً قوياً لتحمّل مشاقّ أقلّ وهجر لذّات أحطّ وأبسط، واللذّات الأُخروية غير مستثناة من هذه القاعدة، فإنّ ذوي الايمان والعقيدة يتحمّلون الكثير من المشاقّ والآلام بغية نيل اللذائذ المعنوية والأُخروية ويغضّون الطرْف عن الكثير من اللذائذ المادية والدنيوية الدنيئة. حتّىٰ انّ الكثير منهم يُقبل علىٰ الشهادة والتضحية ويواجه مرارة الموت ويهجر الدنيا بما فيها. وبناءً علىٰ هذا فإنّ حبّ اللذة الذي يجر الإنسان إلىٰ مستنقع الذنب والمعصية وعبادة الدنيا لو تمّ توجيهه بنحو صحيح واتخذ اتجاهه الصحيح بفعل المعرفة العميقة والدقيقة عن الإنسان والوجود واستهدف الغايات واللذّات النهائية والقيّمة والسامية يصير أنفع عامل تربوي للانسان ويلعب دوراً قويّاً في تكامله يتنافىٰ مع الدور الأول تماماً.

نماذج من الطالبين للراحة

انّ تأثير حبّ الدعة ذو نطاق واسع علىٰ حياة الإنسان ولا يقتصر علىٰ نطاق بعض أعماله أو جوانب معدودة من حياته، بل يظهر ذلك في وقائع الحياة الإنسانية كافة.

فالكثير من ألوان الشقاء والانحراف والذل والخزي الذي ابتُلي به أفراد الإنسان أو المجتمعات المختلفة علىٰ مدىٰ التأريخ ينشأ من الخمول وحبّ الراحة والابتعاد عن المشاقّ والأتعاب.

والقرآن الكريم يركّز بنحو خاصّ علىٰ فئتين من بني الإنسان الذين لم

يتحمّلوا الأعمال الصعبة والمضنية رغم كونها نافعة ومصيرية، وذلك بسبب حبّ اللذة والراحة، ويشير إلىٰ مصيرهم المشؤوم والمشين لكي يعتبر الآخرون في مسرح التأريخ بحياة هؤلاء المهينة الناشئة من الكسل وحبّ الدعة والراحة.

كان من اللازم ـ بمقتضىٰ حكم العقل الذي أعطاهم الله سُبحانه ـ أن يكونوا جادّين وصابرين كي ينالوا العزة والرفعة في الدنيا والفلاح والسعادة الدائمة في الآخرة، ولكنّهم إثر حبّ الدعة والراحة ابتاعوا لانفسهم الذل في الدنيا والآخرة، وغدَوا حديثاً لعامّة الناس وخواصهم، وقد ذُكروا في القرآن كنماذج لأُناس يحبّون الراحة.

بنو اسرائيل

إحدىٰ الفئتين المذكورتين هم بنو اسرائيل، فقد تحدّث القرآن الكريم عنهم مراراً وذكّر بجهات من حياتهم ورؤاهم وسلوكهم كي يعتبر المؤمنون والاجيال المقبلة ولا يقعوا في المزالق التي سقطوا فيها، إذ يقول في موضع:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا

وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

ليس واضحاً لدينا المقصود الحقيقيّ من قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ ولكنّ خصلة حبّ الدعة هي التي كانت تدفعهم لاطلاق هذا القول اللامعقول، ورغم علمهم انّ منازلة العدوّ تستتبع العزة والرفعة واللذة السيادة والحرية كانوا يفضّلون حبّ الراحة والدعة المصحوب بالذل والمهانة. أجل انّ هذا يمثّل أحد المظاهر القبيحة لحبّ الراحة التي تتجلّىٰ في أمة فيحرمها من الكثير من السعادات.

وفي آية أُخرىٰ كشف القرآن عن حبّ اللذة المُذلّ لدىٰ بني اسرائيل، ولذا راح يذمّهم بشدة بقوله:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[2].

هذه الآية تبين طبيعة حبّ اللذة المصحوب بالخمول لدىٰ بني إسرائيل ونتائجه المشينة، وذلك بعد نجاتهم من آل فرعون الذين كانوا يهدّدون وجودهم بأسره وأرواحَهم وأموالهم وأعراضهم ويستعبدونهم، ومع انّه كان يُهيّأ لهم أفضل الطعام

---

(١) المائدة ٢٠ ـ ٢٦. (٢) البقرة ٦١.

(المنّ والسلوى) ولكنْ بدافع من حبّ التنوّع طلبوا الخضروات والبصل وأخذوا بالتعلّل، وبالتالي استوجبوا الغضب والسخط الإلٰهي.

هذه القصة تهم المسلمين جميعا سيّما الشعب الايراني المسلم بعد الثورة (الإسلامية) حيث تتماثل ظروفه مع ظروف بني‌إسرائيل آنئذ، فعلينا الاعتبار بهذه الآية والحالة المهينة التي ابتُلي بها بنوإسرائيل فلا نصير بتعلّلنا سبباً لسرور الاعداء وشماتتهم، وحزن الأصدقاء وغمّهم.

لقد ظهرت اليوم وللأسف طموحات غير متوقّعة ومتطلّبات كاذبة، وهناك أشخاص يبغون المعيشة الأفضل والتمتع بكلّ شيء بدون إنجاز عمل ملحوظ وتقديم خدمة مرموقة.

يحقّق هؤلاء رغباتهم عبر طرق خاطئة ويلقون عبء حياتهم علىٰ كاهل الآخرين، أو يبادرون بالتشاؤم وتعكير الأجواء، ويهاجمون الشعب والنظام والعلماء، ويعاضدون الأعداء عمليّاً.

المنافقون

الفئة الثانية هم المنافقون، وقد ركّز القرآن عليهم كنموذج آخر لمحبّي الراحة، وقد استخدم لفظ (المنافقين) في سور قرآنية مختلفة وبشأن جماعات عديدة.

ففي بعض الموارد أُطلق علىٰ اليهود الذين كانوا ذوي وجهين: فقد كانوا من جهة يخاطبون المسلمين بانّنا معكم، وفي غيابهم يتعاونون مع المشركين من جهة اُخرىٰ ويقولون لهم: انّا معكم.

وفي بعض الموارد أطلق علىٰ جماعة أسلموا في الظاهر وكانوا يقولون للمسلمين لقد آمنّا بما آمنتم به ونتّبع نبيكم ودينكم ولكنّهم لم يؤمنوا في باطنهم.

كما أُطلق لفظ (المنافقين) علىٰ المؤمنين الذين لم يكن إيمانهم قوياً وثابتا بالدرجة المطلوبة ولم يسلّموا للرسول الأكرمﷺ بنحو كامل ولم يذعنوا للاحكام الإسلامية، خاصّةً الصعبة منها، كعدم ممارسة الجهاد والتعلّل عن المشاركة في الحرب.

فالجهاد من أوضح مصاديق الاختبار، فمن قوي إيمانه يكون مستعدا للتضحية حتّىٰ بنفسه، ولو كان ضعيفا شق عليه ذلك ولم يرضَ ببذل المال أيضاً.

في الصدر الأول للاسلام كان ذوو الايمان الراسخ والمعرفة الكاملة علىٰ اطمئنان من انّهم سيحظَون بأمور أفضل إزاء هذه الحياة ومتعلّقاتها، بينما كان ذوو الايمان الضعيف المشوب بمرتبة من النفاق يتعلّلون وينتصلون عن إطاعة أوامر رسول اللهﷺ بالجهاد بالأموال والأنفس، وكانوا كسالىٰ حين أداء العبادة من قبيل الصلاة لانّها ليست ذات لذة مادية.

المنافقون في القرآن

لقد ذمّ القرآن الكريم المنافقين لاسباب مختلفة، ويمكن القول انّ جميعها يرجع إلىٰ طبيعتهم في حبّ اللذة والراحة، وقد ذمّ في قسم كبير من سورة التوبة عدم ممارستهم الجهاد ونكولهم عنه، نشير هنا إلىٰ بعض الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

---

(١) التوبة ٣٨ و ٣٩.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١].

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[٢].

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٣].

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[٤].

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾[٥].

انّ الآيات المذكورة وآيات عديدة أُخرىٰ تذكّر بتعابير مختلفة ألوانا من التعلّل والإمتناع عن المشاركة في الحرب، الاّ انّ منشأ الانحراف والانحطاط فيهم كان في الحقيقة هو حبّ الراحة والانجذاب إلىٰ اللذّات الآنية والعاجلة. ومعالجة هذا المرض تكمن في رفع مستوىٰ المعرفة والايمان كي يعرفوا انّ هذه اللذّات عابرة وغير دائمة، وستكون في مقابلها اللذّات الأُخروية الأفضل والأكثر دواماً.

لو كان هؤلاء يعملون علىٰ تقوية إيمانهم واكمال معرفتهم ويقومون بالمحاسبة

---

(١) التوبة ٤٢.
(٢) التوبة ٤٥.
(٣) التوبة ٤٩.
(٤) التوبة ٨١.
(٥) الأحزاب ١٣.

والمقارنة الدقيقة لأدركوا انّ الخمول والكسل وحبّ الراحة ضارّ بـهم، ولحـثّوا أنفسهم نحو السعي وبذل الجهود.

لكنّ من المؤسف انّ أمثال هؤلاء لا يكلّفون أنفسهم حتّىٰ التفكير بهذا الشأن، وبمجرّد الرغبة في الالتذاذ ينصرف التفاتهم إلىٰ اللذائذ المادية ويـغرقون فـيها تماماً ولا يهمّهم أيّ شيء آخر.

رؤية القرآن في الالتذاذ

لا يعتبر القرآن الكريم أصل الالتذاذ أمراً سيئا، وقد أجاز ذلك صـريحا فـي بعض الآيات، بل لامَ الذين يحرمون أنفسهم أو الآخرين من التمتع بالنِعم الإلٰهية. يقول القرآن في موضع:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُـلْ هِـيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١].

انّ ذوي الايمان سيتمتعون بهذه اللذّات والزينة في الآخرة بنحو كامل دون انْ تصحبها مشاقٌّ ومصاعب.

وعليه لا اعتراض علىٰ التمتّع بالنِعم والالتذاذ بها من وجهة نظر القرآن، ومـا ندّد به بهذا الشأن هو تفضيل اللذّات الآنية والعابرة والرخيصة علىٰ اللذّات الدائمة السامية.

إذنْ ليس الحديث عن التمتع باللذّات المادية، بل في جـواز الإكـتفاء بـهذه اللذّات العابرة والانجذاب لها بنحو يـصدّ الإنسـان عـن نـيل اللـذّات الأبـدية

(١) الأعراف ٣٢.

والأُخروية، وهو أمر غير معقول وغير صحيح لدىٰ العقلاء، ويحكم العقل والمنطق بتقديم اللذّات الدائمة والسامية والشديدة ـ لدىٰ التعارض ـ علىٰ اللذّات العابرة والوضيعة والسطحية.

إذنْ حينما نلاحظ في القرآن الكريم أو الأحاديث الإسلامية بعض التضييقات في التمتع بالزينة والطيبات فانّه ليس لكونها لذيذة أو زينة أو طيبة وطاهرة بل انّ حرمتها هو بلحاظ عنوان عرضي يطرأ عليها لدىٰ تعارضها مع اللـذّات الأبـدية الأُخروية.

العنوان العرضي المذكور هو (مانعية هذه اللذّات المادية الدنيئة عن وصـول الإنسان إلىٰ اللذّات الأبدية والأُخروية السامية). وعليه فإنّ الممنوع هو ممارسة الإنسان وانشغاله بهذه اللذّات الدنيوية التي تؤدي به إلىٰ الغفلة بنحو مّا عن الحياة الآخرة وسعادته الخالدة وتصدّه عن نيل اللذّات الدائمة.

وعلىٰ هذا فلو فرض عدم تحديد سعة الالتذاذ لدىٰ الإنسان وكـان بـإمكانه التمتع باللذّات المادية والمعنوية والدنيوية والأُخروية كافة لم يكن هناك مانع من الجمع بينها.

في موارد عديدة من الآيات القرآنية إشـارات إلىٰ هـذه الحـقيقة نـذكّر هـنا ببعضها، فقد جاء في إحدىٰ الآيات:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[١].

(١) آل عمران ١٤ و ١٥.

أجل، يحبّ الناس هذه الرغبات والشهوات الدنيوية الخداعة كالمال والأزواج والأولاد و... ولكنْ عليهم أن يعلموا انّ العاقبة الحسنة تكون عند الله عزّوجلّ. هكذا يعتز الناس بالنِعم الدنيوية والمنتوجات المادية ويعتقدون بحسنها ولا يدركون انّ هناك ما هو أفضل منها، والله سُبحانه ينبئهم بأنّ المتقين سيتمتعون عند ربهم بنِعم عظيمة في الجنة وبساتين تجري فيها السواقي والانهار.

لو أصابت الإنسان النشوة لِلحظات بفعل المخدّرات أو المسكرات وهامَ في الخيال فانّه يكون قد نال في الحقيقة لذة قصيرة سيعقبها شقاء طويل، وستصنع منه موجوداً عاطلاً ومسكيناً ومريضاً وعالةً علىٰ المجتمع. هنا يدرك كلّ عاقل ـ حينما يقارن تلك اللذة العابرة التي تستتبع هذا الشقاء الدائم مع تلك الراحة واللذة الدائمة التي تتحقّق بترك هذه اللذة الآنية ـ ضرورة الجهاد مع النفس، وغضّ الطرْف عن تلك اللذة الآنية كي لا يسقط في هذا الشقاء والحرمان من كلّ تلك الراحة والبهجة.

يمكن القول في الواقع انّ لذة الأهواء المادية والدنيوية اللامعقولة بالقياس إلىٰ اللذّات الأبدية والأُخروية تتصف بهذه الحالة وتصدّ عن نيل اللذّات الأُخروية السامية، إذنْ علينا عند الانتخاب الالتفات الكامل إلىٰ هذه الحقيقة كي لا نقع في شرَك شقائها وعاقبتها السيئة.

لو انقضىٰ عمر الإنسان المحدود في الدنيا كلّه بالالتذاذ ثمّ ابتُلي بالعذاب الدائم لِأمره العقل بهجران هذه اللذّات كلّها. لأنّه ليس من الصحيح أبداً أن يعرّض الإنسان نفسه إلىٰ الشقاء والآلام والعذاب اللامحدود من أجل لذة والتذاذ محدود، وأمّا مع الالتفات إلىٰ كون هذه اللذّات الآنية في الدنيا أيضاً مصحوبة بالمشاقّ والمصاعب فمن الأوْلىٰ أن يحكم العقل بتركها.

فحيث يكون الحديث عن الانتخاب وندخل نطاق الأخلاق، يلزم انتخاب الأفضل وترك الآخر، وذلك من خلال التدقيق وإمعان النظر في إطار الملاكات العقلية والمعايير الأخلاقية الصحيحة.

خلاصة القول والكلام الأخير هو انّ حبّ الراحه خصلة مذمومة لانّ سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة لن تحصل بدون مشقة وسعي، فالمحبّ للراحة يريد التنعّم في حين انّ الحياة قد تقارنت مع المشقة والسعي، والله سُبحانه بقوله في إحدىٰ الآيات: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾[١] يؤيد هذه الحقيقة.

انّ حبّ الراحة في هذا العالم وهو عالم العمل والسعي وبذل الجهد يصدّ الإنسان عن سعادته وكماله الأبدي فهو إذنْ من الصفات القبيحة والمذمومة، وحال الإنسان في العالم الآخر وحياته في الجنة ستختلف طبعاً عن ما يجري في هذا العالم حيث يكون التذاذه فيها بدون سعي ومشقة وتعب ونَصب، وسوف يتوفّر ذلك للمتقين، ولا يتعارض مع لذة وسعادة أسمىٰ.

الشدة والضعف فيالقيم السلبيّة

الملاحظة الأُخرىٰ التي ينبغي التذكير بها هنا هي: استناداً إلىٰ الرؤية الإسلامية التي تَعدّ الحياة الخالدة والأبدية هي الأصيلة والحياة الدنيوية مقدمةً لها فإنّ كلّ ما يمنع من اللذة ويستوجب العذاب الأُخروي يكون ذا قيمة سلبيّة قطعاً، ولا يسمح به أبداً، لانّ لذة الدنيا ليست قابلة للقياس مع عذاب الآخرة أبداً، لا من حيث المدة، فإنّ أحدهما محدود والآخر غير محدود، ولا من حيث الشدة والضعف فإنّ اللذّات والآلام الأُخروية ليست قابلة للقياس مع اللذّات والآلام الدنيوية. وعلىٰ

---

(١) البلد ٤.

هذا فإنّ مثل هذه اللـذة الدنـيوية القـصيرة التـي تـحول دون اللـذّات الأبـدية وتستوجب العذاب الأُخروي تكون محرَّمة في الشرع المقدس ويكـون تـركها واجباً.

الاّ انّ بعضا آخر من اللذّات الدنيوية يقتصر تأثيرها علىٰ حرمان الإنسان من المزيد من اللذّات الأُخروية ولا يستوجب العذاب، فإنّ الإنسان رغم وجود هذه اللذّات يدخل الجنة أيضاً ويصل إلىٰ دار السعادة ولكنْ بسبب هذه اللذّات الدنيئة يُحرم من الدرجات العالية منها. هنا يحكم العقل بأنّ مثل هذه اللـذة مـرجـوح، ويكون مثل هذا الالتذاذ مكروها فقهيا لدىٰ الشريعة المطهرة وتركه مستحبّا.

وأخيراً انّ بعض اللذّات المادية تعارض أيضاً اللـذّات الخـاصّة بأوليٰـاء الله والكمّل من بني الإنسان المتألقين فقط، وتمنع اللذّات التي لا يمتلك الأشخاص المتعارفون قابلية إدراكها، وتتجاوز حدود النِعم المحسوسة في الجنة من قـبيل الأطعمة والأشربة، والقرآن الكريم يقول عن هذه اللذّات:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(١).

لانّ مثل هذه اللذّات تختص بهم وتكون محجوبة عن غيرهم.

انّ لتلك اللذّات الدنيوية التي تزاحم هذه اللذّات الخاصّة بأوليٰاء الله ومقاماتهم قيمةً سلبيّة خاصّةً، وإنْ كانت مباحة لدىٰ الشرع المنير والفقه الإسلامي.

من هنا يتّضح السرّ في إحتراز أوليٰاء الله من أنواع الالتذاذ المـباح والتـزيّن المشروع، وندرك لماذا لا يرتكبون حتّىٰ ترك الأوْلىٰ.

---

(١) السجدة ١٧.

القسم الثالث

٣-٢

الأكل والشرب

القرآن وحبّ الأكل والشرب

أ - الرعاية الالٰهية لرزق الإنسان

ب - الإذن في التمتع بالرزق

ج - ذمّ التحريم بلا دليل

د - لذة الأكل والشرب في العالم الآخر

الحدود الأخلاقية للأكل والشرب

الرؤية القرآنية في تقييم الأكل والامساك

نتيجة وفذلكة

روايات في ضرر الأكل الكثير

الأكل والشرب

النموذج الذي صوّرناه لتبيان أبعاد النفس الإنسانية وخصائصها يشير إلىٰ انّ حبّ اللذة يمثّل إحدىٰ الغرائز الأصيلة في الإنسان. ومنها تتفرع أغصان عديدة ومتنوّعة ترتبط بأفعال الإنسان المختلفة من جهة، وبالجوارح أو الأجهزة المختلفة التي تنجز بها تلك الأفعال من جهة أخرىٰ، وبالأشياء الخارجية المختلفة التي تمثّل متعلّقات للأفعال المذكورة من جهة ثالثة.

ومن زمرة الأفعال المذكورة التي تمهّد لتحقّق أحد أنواع هذه اللذّات الفرعية هو الأكل والشرب. واللذة الحاصلة للانسان عبر هذا الطريق تكون ـ كسائر اللذّات والرغبات الإنسانية ـ فطرية وغير اختيارية، ولذا لا تدخل نطاق الأخلاق ولا تكون موضوعا للقيم الأخلاقية، ولا يمكن القول بأنّها حسنة أو سيئة، وذلك لتعلّق الحُسن والقبح الأخلاقيّين بأفعال الإنسان الاختيارية التي تنجز بهدف الوصول إلىٰ غاية خاصّة. في حين انّ هذا الحبّ لا يكون فعلا، بل أمر فطري وطبيعي قد أودعه الله تعالىٰ في طبيعة الإنسان وذاته علىٰ أساس من حكمة الخلق.

القرآن وحبّ الأكل والشرب

في القرآن الكريم آيات عديدة تتحدّث عن هذا الحبّ، وبما انّ هذا النوع من الآيات يكون عادة في مقام التذكير بالنِعم الإلهية علىٰ الإنسان فانّه يُشعر أيضاً بفطرية اللذة ولذة النِعم التي تهتم هذه الآيات وتذكّر بها. لقد اهتمت الآيات القرآنية بتعابير وأساليب مختلفة بهذا الحبّ، نشير إلىٰ بعضها:

أ ـ الرعاية الإلٰهية لرزق الإنسان

تتحدّث مجموعة من هذه الآيات وتذكّر بالنِعم الإلٰهية التي اعتُبرت رزقاً للانسان ويستفيد منها للأكل والشرب، ومضمونها لا ينسجم مع ذمّ التمتع بهذه النِعم ومنعها، ولذا لا يلاحظ أيّ ذمّ علىٰ أكلها وشربها.

ونظراً لكثرة الآيات وتشابه تعابيرها نكتفي هنا بذكر بعضها وأرقام البعض الآخر.

قال تعالىٰ في إحدىٰ هذه الآيات:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[١].

وقال في موضع آخر:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾[٢].

وقال في آية أخرىٰ:

---

(١) السجدة ٢٧، والآية: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ يس ٣٣. و﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ البقرة ٢٢. والآية ٣٢ من سورة ابراهيم بهذا التعبير أيضاً.

(٢) النحل ١٤.

﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[١].

وهناك إشارة إلىٰ هذه اللذة والرغبة في عدد من الآيات وذلك بعبارة:

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾[٢].

ب ـ الإذن في التمتع بالرزق

وتأمر مجموعة أُخرىٰ من الآيات الإنسان بصراحة بالتمتع بالأطعمة والمشروبات، ولكنْ بما انّ هذا النوع من الأوامر قد صدر في الموارد التي يظنّ فيها المنع من التمتع بهذه النِعم وحرمة أكلها، فليس فيها أيّة دلالة علىٰ الطلب الوجوبي أو الإستحبابي للأكل والشرب، وقد قال علماؤنا في علم الأصول: انّ الأمر في مقام توهّم الحظر يدل علىٰ الترخيص والجواز لا أكثر.

نذكر هنا بعض الآيات نظير:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٣].

وفي الحقيقة تريد الآيتان من خلال الأمر بالأكل بيان أنّ الله تعالىٰ خلقها لكم لأكلها والتمتع بها، فلا مانع من تناولها.

فكلوا إذنْ ولكنْ احذروا الإسراف والتزموا بمنح الفقراء حقّهم ولا تبقوه في

---

(١) غافر ٧٩ ونظير هذه الآية تقول الآية ٧٢ من سورة يس: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

(٢) الجاثية ١٦.

(٣) الأنعام ١٤١ و ١٤٢.

أموالكم، ولا تتّبعوا الشيطان بتناوله علىٰ غير الوجه الحلال. وقد جاءت عبارة **﴿كلوا واشربوا﴾** في موردين من الآيات مع فارق هو ورود النهي عن الفساد في مورد والنهي عن الإسراف في مورد آخر، وذلك بعد القيد **﴿من رزق الله﴾**، وقد جاء في عدة موارد: **﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾**[١].

وجاء في مورد واحد: **﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾**[٢].

وهناك تعابير أُخرىٰ في القرآن نظير: **﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً﴾**[٣].

أو **﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً﴾**[٤].

أو **﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾**[٥].

أو **﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾**[٦].

أو **﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾**[٧].

الملفت ورود إرشادات نظير: كلوا ولا تفسدوا، أو لا تسرفوا، أو لا تطغوا، أو لا تتّبعوا الشيطان، أو اشكروا الله، أو اتقوا، أو... عقيب هذه الآيات التي تأمر بالأكل والشرب.

ويمكن القول انّ الآيات التي استخدمت لفظ (**طيب**) أو (**طيبات**) والآيات التي استعملت (**مما غنمتم**) أو (**مما رزقكم**) احتمالاً تُشعر من زاوية أُخرىٰ بفطرية لذة الأكل، لانّ لفظ (**طيب**) استخدم في الآيات مفرداً وجمعاً بمعنىٰ الشيء أو الأشياء التي يلتذ بها الإنسان في الطبيعة. أي انّ الله سُبحانه قد خلقها بنحو تكون لذيذة، كما انّ (**غنمتم**) و(**مما رزقكم**) يُشعران إلىٰ حدّ بهذا الترابط الطبيعي والفطري.

---

(١) الأعراف ١٦٠، البقرة ١٧٢، طه ٨١.

(٢) المؤمنون ٥١.

(٣) الانفال ٦٩.

(٤) النحل ١١٤ والمائدة ٨٨.

(٥) البقرة ١٦٨.

(٦) سبأ ١٥.

(٧) طه ٥٤.

ج ـ ذمّ التحريم بلا دليل

لم يكتفِ القرآن الكريم بالأذْن والترخيص في تناول الأطعمة والمشروبات، بل ذمّ معه الذين حرّموا علىٰ أنفسهم تناول بعض الأطعمة والمشروبات بدون سبب، حيث قال بهذا الشأن في إحدىٰ الآيات:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

و **﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾**[2].

لم يمنع الله عزّوجلّ أبداً من تناول هذه النِعم التي خُلقت للانسان الاّ انّهم افتَروا علىٰ الله تحريمه إياها.

د ـ لذة الأكل والشرب في العالم الآخر

تدل مجموعة اُخرىٰ من الآيات بأنّ هذه النِعم متوفّرة للمؤمنين والسعداء في عالم الآخرة أيضاً، ويحكي ذلك عن انّ حبّ الأكل والشرب والالتذاذ بذلك لا ينحصر في حياة الإنسان في الدنيا، بل له وجود في عالم مابعد الموت، والآيات في هذا المجال كثيرة ونشير هنا إلىٰ عدة نماذج، كالآية:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[3].

والآية: **﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾**[4].

---

(١) الأعراف ٣٢. (٢) الأنعام ١٤٠.
(٣) الرعد ٣٥. (٤) ص ٥١.

ونظير: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[١].

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[٢].

كانت هذه عدة نماذج من آيات كثيرة في القرآن تخبر عن وجود الأطعمة والمشروبات والتذاذ الإنسان بالأكل والشرب في الجنة، قد اكتفينا هنا بهذه النماذج وندعو القارىء لملاحظة الآيات القرآنية ذات الصلة بهذا الموضوع[٣].

ما طرحناه إلىٰ هنا هو الآيات ذات العلاقة بأكل وشرب أهل الجنة، ولكنْ ينبغي الالتفات إلىٰ أنّه توجد علىٰ غرار ذلك آيات قرآنية تتحدّث عن أكل وشرب أهل النار أو طعامهم و شربهم، هذه الآيات تحكي عن بقاء حاجة الإنسان للأكل والشرب حتّىٰ فى جهنم، حيث يوجد ما يناسب ذلك من طعام وشراب يتعذب بها أهل النار.

أي كما أن أهل الجنة لولا حبّ الأكل والشرب فيهم لم يكن بوسعهم التمتع بهذه النعم فيها، فكذلك أهل النار إذ لولا حبّ الأكل والشرب فيهم لم يكن تعذيبهم عن هذا الطريق ممكنا، وعليه لابدّ من وجود هذا الحبّ فيهم حتّىٰ يُعذَّبوا بأكل خاصّ، نشير هنا إلىٰ نماذج من هذه الآيات، كالآية:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[٤].

---

(١) الزخرف ٧١. (٢) محمد ﷺ ١٥.

(٣) الآيات: الزخرف ٧٣، الطور: ١٧ ـ ١٩ و ٢٢ و ٢٣، الرحمن ٥٢ و ٦٨، الواقعة: ٢٠ و ٢١ و ٣٢ و ٣٣ ،الحاقة: ٢٤، الدهر: ٥ و ٦ و ١٥ ـ ١٨، المرسلات ٤٢ و ٤٣، المطففين ٢٥ ـ ٢٨.

(٤) الواقعة ٥١ ـ ٥٦.

وهناك آيات أخرىٰ[١] أيضاً في هذا المجال يلاحظها الباحث من خلال تصفّح القرآن الكريم. يستفاد من مجموع الآيات أن هذا الحبّ أمر فطري لا يسلب من الإنسان حتّىٰ في عالم الآخرة، بل انّه من أسباب تنعّم أهل الجنة بنعمها، وهكذا تعذيب أهل النار عن طريق الطعام والشراب المكروه في النار.

الحدود الأخلاقية للأكل والشرب

يطرح هنا هذا السؤال: من أين يظهر حُسن هذا الحبّ وعدمه وقيمته الإيجابية والسلبيّة من الناحية الأخلاقية؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي القول: في هذا المجال ـ كالمجالات الأُخرىٰ التي تمّ ذكرها ـ تكون للقيمة الأخلاقية جذور في انتخاب الإنسان، وترتبط بالكمية أو الكيفية أو جهة خاصّة في تناول الطعام والشراب. انّ ذمّ الأكل والشرب قد يرتبط بكميته إذ إنّ هناك مقداراً واقعيا يتناسب مع الحاجة الواقعية لبقاء الإنسان حيّاً، ويكون الإلتزام العملي به ممدوحاً وإهماله مذموماً وينتهي بالتالي إلىٰ ذمّ الإنسان أخلاقيا. من هنا قال تعالىٰ:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[٢].

أي عليكم رعاية الكمية اللازمة في الأكل والشرب، إذ إنّ الإلتزام الأخلاقي في هذه الموارد إذا كان يرتبط بمقدار خاصّ فإنّ مراعاة أو عدم مراعاة تلك الكمية تستتبع القيمة الإيجابية أو السلبيّة لذلك الفعل. وتترتّب القيمة الأخلاقية السلبيّة علىٰ نوع خاصّ من الأطعمة والمشروبات أحياناً وتعود إلىٰ نوع من

---

(١) كالآيات: الحاقة ٣٦ و ٣٧، المزمل ١٣، الغاشية ٥ ـ ٧.

(٢) الأعراف ٣١.

التعارض. فبالنظر إلىٰ أنّ تناول بعض الأطعمة والمشروبات يزاحم لذائذ أُخرىٰ أو يضرّ بجسم الإنسان أو روحه فإنّه يكون ذا قيمة سلبية. فمثلاً قد يهدّد أكل شيء صحّة الإنسان ففي هذه الحالة يتعارض الالتذاذ بالأكل مع لذة الصحّة في الإنسان، وهذا بذاته عامل فعّال علىٰ تقييد الأكل أخلاقيا إلىٰ درجة عدم الإضرار بصحّة الإنسان وحصر الأطعمة في الأشياء التي لا تهدّد صحّة الجسم، ولا توجب ضرراً روحياً ومعنوياً كما في الخمر أو لحم الخنزير أو لحم حيوان لم يُذكر اسم الله عليه.

وهناك جهة مرفوضة تكون في بعض الموارد منشأً للقيمة السلبيّة للأكل والشرب في الإنسان. فمن يأكل ويشرب بهدف المعصية لله بالطاقة التي يكتسبها فإنّ مثل هذه النية ـ وإنْ كان المأكول من الطيبات وخالياً من الضرر المادي والعقلي والاجتماعي ـ يجعل الأكل والشرب مذمومين تلقائيا وذوَي قيمة سلبيّة، وعلىٰ العكس لو كان دافع الإنسان في هذا العمل ونيّته خيراً كالقدرة علىٰ عبادة الله، أو إدخال السرور علىٰ والديه أو إخوانه المؤمنين، ففي هذه الحالة تكون مثل هذه النية منشأً للقيمة الإيجابية لأكله وشربه، وقد عبّرنا عن هذا العامل المحدّد للقيمة بـ(الجهة الخاصّة).

وعلىٰ أيّ حال، فلا يكون أكل الإنسان وشربه أجنبيّين عن سائر صفاته الجسمية وحالاته الروحية أبداً، فتارةً يزوّدان الإنسان بالطاقة والقوة ويزيدانه صحّة، فتكون لعملية الأكل والشرب قيمة إيجابيّة طبعاً، وتارةً يجعلان الإنسان خاملاً ويضعّفان قواه الفكرية فيكون تركهما ذا قيمة إيجابيّة، ويكونان تارةً سبباً لِلنشاط الروحي في الإنسان ويكسبانه قوة في العبادة، فتكون العملية ذات قيمة إيجابيّة أيضاً، وتارةً ـ علىٰ العكس ـ يسلبان الحضورَ القلبي من الإنسان

ويضعّفان عواطفه ويكونان منشأ لقسوة قلبه وكدورة روحه، فيكون تركهما ذا قيمة إيجابيّة.

الرؤية القرآنية في تقييم الأكل والإمساك

يبيّن القرآن الكريم القيم الإيجابية والسلبيّة في هذا المجال علىٰ أساس المحاور المذكورة، و بصدد دراسة هذا الموضوع يمكن مراجعة الآيات التي تتحدّث عن الصيام الواجب وآيات الصيام المطلقة والصيام المستحب، كالآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وكآيات صيام الكفارة:

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[٢].

وآيات أخرىٰ[٣] ترتبط بالصيام الواجب تحت عنوان (الكفارة) لا حاجة لذكرها هنا.

ومن خلال اعتبار القرآن الصيام كفارة في بعض الخطايا يمكن أن نفهم ـ للتناسب بين الموضوع والحكم ـ انّ الصيام في هذه الموارد يفيض علىٰ الإنسان نورانية تزيل التلوث المترتّب علىٰ ارتكاب المعصية في النفس الإنسانية وتتطهر بالصيام، ولذا يطلق علىٰ هذا الصيام (الكفارة) ويعني الجابر.

وبعض الآيات يشمل مطلق الصيام الأعمّ من الواجب والمستحب، كالآية:

---

(١) البقرة ١٨٣. (٢) البقرة ١٩٦.

(٣) كالآيات: النساء ٩٢ و المائدة ٨٩ و ٩٥.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

والآية: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[٢].

والصيام لا يتلخّص ـ طبعاً ـ في ترك الأكل والشرب بل له شروط أخرىٰ، الاّ انّ هذا الترك من أجزائه وعناصره، بل يمثّل ركنا أساسيا فيه. فمن الآيات المذكورة ومن كلّ آية تدل علىٰ رجحان الصيام يمكن استنتاج انّ ترك الأكل والشرب في الرؤية القرآنية إلىٰ حدّ مّا أمر مرغوب ويحظىٰ بقيمة أخلاقية إيجابيّة سامية، وعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في هذه الآيات تشير إلىٰ هذه الحكمة وتتطابق مع القاعدة الكلية التي ذكرناها.

مرّ في الماضي أنّ القرآن قد ذمّ بني‌إسرائيل في قضية الأكل والشرب هذه[٣]. فعندما خرج بنوإسرائيل من مصر ودخلوا أرض الشام أنزل الله عليهم ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ فقالوا لموسىٰ عليه السلام: لا نكتفي بنوع واحد من الطعام بل لابدّ أن يكون متنوّعاً، فرغم أن الله تعالىٰ كان يُنزّل عليهم طعاما لذيذا بلا تعب ومشقة فانّهم كانوا يهتمون بالأكل رغم تشردّهم، وكانت قلوبهم توسوس لهم بأن يكون لهم أطعمة متنوّعة، وقد وبّخهم الله وذمّهم في ذيل الآية بانّكم تطلبون طعاماً هو أدنىٰ قيمة بدلاً عن الطعام الذي أعطيناكم وهو الأفضل والأكبر فائدة.

حينما يكون الإنسان تابعاً للهوىٰ وطالباً للتفنن في الطعام فإنّ ذلك ينبىء عن

---

(١) البقرة ١٨٤.　　(٢) الأحزاب ٣٥.

(٣) وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ البقرة ٦١.

تعلّقه القلبي باللذائذ المادية والحيوانية واعتبارها هدفاً في الحياة، وهذه الحالة مذمومة أخلاقيا.

وهناك ـ طبعاً ـ موارد أُخرىٰ للذمّ في هذا المجال وترجع كـلّها إلىٰ الكـمية والكيفية والجهة والجذر، والأساس هو التعارض مع سائر الكمالات الإنسانية كما تمّ توضيحه سابقاً.

انّ بعض الآيات ينهىٰ الإنسان عن أكل أشياء يـتعارض تـناولها مـع بـعض كمالات الإنسان ويقول:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

ويطرح القرآن في مورد واحد عنوانـا عـامّاً بشـأن الأطـعمة والمشـروبات ويمكن البحث فيه عن ملاك الحرمة والحلّية حيث قال:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[2].

كما قال في مورد آخر:

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾[3].

ففي هذه الحالة (صناعة الشراب المُسكر) لا يكون الرزق حسناً، بل يكون من الخبائث ولا يجوز تناوله.

وقد جاء في آية أخرىٰ:

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[4].

---

(١) البقرة ١٧٣.
(٢) الأعراف ١٥٧.
(٣) النحل ٦٧.
(٤) المائدة ٩٠.

حُكم في هذه الآية بالخبث والقبح علىٰ أشياء من قبيل الخمر والقمار وغيرهما، حيث يكون كلّ واحد منها حسب تناسبه مع موضوعه الخاصّ منشأً لسلوك خاصّ في الإنسان. ففي مورد الخمر يكون خبثه ورجسه بمعنىٰ انّ شربه عمل قبيح وشيطاني ويزيل العقل ويستتبع مفاسد أخرىٰ.

وهناك آية أُخرىٰ تشابه الآية المذكورة فيما يرتبط بالخمر والقمار حيث تقول:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[1].

هذه الآية تشير بوضوح أكبر إلىٰ التعارض الذي ذكرناه سابقاً حيث تقول: كلّ شيء وإنْ كان نافعا ولكنْ إذا كان ضرره أكبر فانّه يلزم التغاضي عن نفعه أيضاً لتوقّي ضرره، ويشير بوضوح إلىٰ ملاحظة حيثية التعارض في مقام التشريع، وبعد التقييم والمقايسة بين الملاكات المختلفة تمّ رعاية الملاك الأقوىٰ وغُضّ النظر عن الملاك الأضعف.

من جملة الأشياء الضارّة معنويا هو أكل لحم الحيوان الذي لم يذكر اسم الله عند ذبحه، وقد منعت بعض الآيات المؤمنين من أكله حيث قالت:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[2].

انّ ذبح الحيوانات وسلب حياتها للانتفاع بلحومها نوع من التصرف في المخلوقات التي أفاض الله عزّوجلّ عليها الحياة وهي مملوكة له، فإذا أردتم سلب حياتها فلابدّ من كون هذا التصرف والعمل بإذن الله عزّوجلّ وباسمه. لو كان

---

(١) البقرة ٢١٩.	(٢) الأنعام ١٢١.

الإنسان غافلا عن الله والقيامة وغير آبهٍ بالمعنويات إلىٰ حدّ عدم التوجّه إلىٰ الله الخالق للنفس حتّىٰ لدىٰ الذبح وسلب روح الحيوان، فلا يحقّ له تناول تلك الذبيحة، ولا تكون طاهرة وحلالاً أساساً. وعليه فإنّ المنع من تناول بعض الأطعمة وحرمته سيكون بلحاظ رعاية ذلك الجانب المعنوي.

وأخيراً، هناك مجموعة أُخرىٰ من الآيات تدل علىٰ النهي عن أن يكون تناول الأطعمة والمشروبات بنحو يترتّب عليه الضرر والفساد الاجتماعي ومصادرة حقوق الآخرين، كالآيات الدالة علىٰ حرمة الربا وأكل أموال الناس، خاصّةً أكل مال اليتيم. ونشير هنا إلىٰ بعضها، كالآية:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

والآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾**[٢].

والآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[٣].

والآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾**[٤].

والمقصود من (**الأكل**) في هذا النوع من الآيات هو كلّ تصرف أعمَّ من الأكل أو الشرب أو اللبس أو الهبة و... الاّ انّها تشمل الأكل الحقيقي قطعاً وهو ما يبحث بشأنه وندرسه في هذا المقال.

---

(١) البقرة ١٨٨.
(٢) النساء ٢٩.
(٣) آل عمران ١٣٠.
(٤) النساء ١٠.

نتيجة وفذلكة

بملاحظة الآيات الماضية يمكن استنتاج انّ الالتذاذ بالأطعمة والمشروبات بذاته لا قيمة إيجابيّة له ولا سلبيّة، والقيمة السلبيّة لهذا العمل تستند إلىٰ جهة خارجية عارضة تُنتزع من الكمية أو الكيفية أو الدافع والنية الخاصّة لهذا العمل وإلىٰ تعارضه مع الكمالات والمصالح الإنسانية، وبالتالي يترتّب عليه ضرر جسمي أو روحي عقلي وفكري يصيب الإنسان، أو فساد في المجتمعات الإنسانية، أو ضرر معنوي وأخروي، كما انّ قيمته الإيجابية تستند إلىٰ كون نية الإنسان في ممارسة العمل خيرا.

ومن خلال الآيات القرآنية والروايات في هذا المجال يمكن استشعار أمرين يمنحان القيمة والحُسن لأكل الإنسان وشربه: أحدهما كسب الاقتدار والقوة علىٰ العبادة والعمل الصالح حيث جاء الخطاب إلىٰ الانبياء عليهم السلام:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1].

فالتقارن بين عبارتي **﴿كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾** و**﴿اعْمَلُوا صَالِحاً﴾** يمكن أن يكون إشارة إلىٰ هذه الحيثية وهي أنّكم تقدرون علىٰ القيام بالأعمال الصالحة والحسنة بتناول هذه الأطعمة الطيبة والنافعة، فإذا كان دافعكم من هذا العمل والانتفاع بالنِعم والأطعمة هو اكتساب القدرة والقوة للقيام بالأعمال الصالحة فإنّ عملكم يكون ذا قيّمة إيجابيّة قطعاً. وهذا طبعاً إشارة واستشعار كما قلنا ولا نريد الإستناد إليه كاستدلال.

ثانيهما هو ما تؤكّده الآيات القرآنية بوضوح أكبر وهو الشكر، ولذا نلاحظ

---

(١) المؤمنون ٥١.

قوله ﴿وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ﴾[(١)] أو ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٢)] بعد الأمر بأكل الطيبات أحياناً.

من هذه الآيات يمكن أن نستنتج بوضوح انّ الغاية الإلٰهية من خلق هذه النِعم التي يتغذىٰ الإنسان بها ـ إضافةً إلىٰ رفع الحاجة المادية وتغذية الإنسان والموجودات المحتاجة ـ هو أن يشكر الناس وليّ نعمتهم، فالشكر في ذاته أحد أنواع العبادة ووسيلة لتكامل الإنسان.

لقد سخّر الله تعالىٰ جميع النِعم للانسان لكي ينتفع بها وبالتالي ليبلغ كماله المعنوي والأبدي، وشكر المنعم أحد طرق وصول الإنسان إلىٰ الكمالات المعنوية، والدافع للشكر ينبعث في الإنسان حينما ينتفع بالنِعم الإلٰهية وتقوم برفع حاجة من حاجاته. فحينما يشرب جرعة من الماء العذب البارد في حرّ الصيف ويحس في أعماق روحه ونفسه عذوبته وصفاء لذّته يذكر الله ويشكره، وهذا الشكر في ذاته يرفع الإنسان ويمنحه كمالاً معنويا.

وعلىٰ هذا يمكن أن نستنبط من هذه الآيات انّ الانتفاع بالأطعمة والمشروبات ـ كالانتفاع بسائر النِعم الإلٰهية ـ إذا كان بدافع الشكر فانّه إضافةً إلىٰ قيمته المادية في رفع حاجة جسم الإنسان ذو قيّمة أخلاقية ومعنوية إيجابيّة، ويستتبع كمالاً معنوياً للانسان.

روايات في ضرر الأكل الكثير

في روايات المعصومين عليهم السلام مضامين كثيرة في هذا المجال ذكرتها كتب الحديث وكتب الأخلاق، وبما انّ بحثنا هنا يدور حول الآيات القرآنية ويمثّل

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ﴾ البقرة ١٧٢.
(٢) ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الانفال ٢٦.

قسماً من المعارف القرآنية فلسنا بصدد تفصيلها وتبيانها، ومع ذلك لا يتنافىٰ ذلك مع الإشارة إلىٰ بعض هذه الروايات المباركة.

جاء في رواية معروفة:

(ما من شيء أبغض إلىٰ الله من بطن مملوء)[١].

انّ كثرة الأكل والاهتمام به يستتبع الكثير من المفاسد والتبعات السيئة التي تلحق جسم الإنسان وروحه، حيث يجعله غافلاً عن الله ويقلل من توجّهه المعنوي والقلبي، ويضعّف فيه قدرة التفكير والتأمل وسائر أبعاده الروحية الأخرىٰ، وفي المقابل يزيد من شهواته النفسية ويقوّي أبعاده الحيوانية، ويوقعه في الكثير من الأمراض، وخاصّةً حينما يتقدم به العمر حيث يسبّب إصابته بأمراض تصعب معالجتها، وقد تهدّد حياته أو سلامته ونشاطه جدّياً. انّ تأكيدنا في بعض الموارد علىٰ الجوانب المادية والصحّة البدنية مع انّ بحثنا يكون حول القيم الأخلاقية إنّما هو بلحاظ توقف التكامل المعنوي للانسان فيأحيان كثيرة علىٰ صحّته وسلامته قطعاً ويقينا، فمن لا يحظىٰ بسلامة جسمية سوف يتخلّف عن الركب، ليس في الحياة المادية فحسبُ، بل وفي الحياة المعنوية غالباً، لانّ حياة الإنسان المادية مقدمة أساسية وشرط لازم لتكامله الروحي والمعنوي.

كما تؤكّد روايات علىٰ انّ خلوّ الجوف والجوع شرط في الوصول إلىٰ الحكمة وتحصيل الكمالات الروحية والأخلاقية والقيم، فلابدّ أن يمسّه شيء من الجوع، ولولا معارضة الشبع والتخمة لهذه الكمالات، وكان من الممكن بلوغ هذه المقامات الإنسانية والإلٰهية بدون تحمّل الجوع لم يُدعَ إلىٰ التقليل من الطعام أبداً، لانّ الله عزّوجلّ ليس بخيلا ولا ينقص خزائنه اللامحدودة شيء حتّىٰ يمنع الإنسان من التنعم والانتفاع والالتذاذ.

---

(١) بحار الانوار ج ٦٦ ص ٣٣١ الرواية ٥.

لقد خلق الله عزّوجلّ هذه النِعم كي ينتفع بها بنو الإنسان، ولكنْ حينما يسرفون ويبذّرون ويتجاوزون الحدّ، فيأكلون فوق حاجة الجسم فإنّ عملهم هذا يستتبع ضررين ومشكلتين، ولذا يكون عملا مذموما بشدة.

لانّ هؤلاء بكثرة الأكل والإسراف والتبذير يحرمون أنفسهم من الانتفاع الكامل بنعمة العقل والقلب والحكمة والمعرفة والمعنويات من جهة، ويساهمون في حرمان الآخرين من هذه النِعم المادية في التغذية، ورفع الحدّ الأدنىٰ من حاجة الجسم لمواصلة الحياة واكتساب السلامة والقوة من جهة أخرىٰ.

يجدر هنا أن نشير إلىٰ مشكلتنا الاجتماعية القائمة أعني الغلاء والتضخم، فإنّ أهمَّ وأفضل طريقة لمعالجة ذلك يكمن في رعاية هذه الآداب الإسلامية، ففي هذا العصر وفي كلّ عصر لو تَركت الأُسَر المرفهة الإسرافَ والبذخ واقتصرت علىٰ الحدّ الادنى في مؤونتها ـ حسب الإمكان والقدرة ـ علىٰ المواد الغذائية والمستلزمات الضرورية في الحياة فإنّ ذلك سيساهم في حل مشكلة الغلاء والتضخم إلىٰ حدّ كبير، وفي مكافحة الفقر والمجاعة في الطبقة الاجتماعية الفقيرة والمحرومة. لكنّها لو لم تتحسس آلام هذه الطبقة وعناءها ـ وأعدادها ليست بالقليلة ـ وتركت نفسها في غفلة دون الشعور بالعار فإنّ خطراً أكبر ـ كما يبدو ـ سوف يهدّدها عاجلا أو آجلا.

تعالوا إذنْ لنجعل الإسلام وآدابه التي تنبض بالحياة نصب أعيننا ولا ننسىٰ الله تعالىٰ، ولا نكون غافلين وغير مكترثين بمصير الضعفاء وأحوالهم، ولا نسرف ونبذّر ونتجاوز الحدود ونتّبع شهوة الأكل، ولا ننسىٰ الأبعاد الروحية والفكرية والمعنوية، ولا نكتفي بالإعلام والضجيج والتظاهر بالإسلام، بل نكون مسلمين ومؤمنين حقّاً، فإنّ مستقبلنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة رهينتان بذلك.

انّ دفع الصدقة والزكاة وإعانة الآخرين في معيشتهم بدلاً عن الزهو والإسراف والأنانية ـ كما ورد في الروايات ـ لا تدفع أصناف البلاء الوخيمة فحسبُ، بل ستعمل علىٰ رفع هذا النوع من البلاء الاجتماعي، وتضمن صحّة الإنسان وسلامته.

من أعظم النِعم الإلٰهية هو القدرة التي أعطاها للانسان لتوجيه التفاته إلىٰ الساحة الإلٰهية المقدسة. يقول الإمام السجادعليه السلام في مناجاة الذاكرين:

« ومِن أعظَم النّعمِ عَلَيْنا جَريانُ ذكْرِك علىٰ ألسنتِنا وإذنُك لَنا بدُعائكَ وتنْزيهِك وتَسبيحِك»

وجاء في رواية أخرىٰ:

«قلب المؤمن عرش الرحمن»[1].

المؤمن يلهج بذكر الله عزّوجلّ، والقلب الذاكر لله بمثابة عرش الله، أي المكان الرفيع والخاصّ الذي يحضره الله تعالىٰ دائما.

أجل، ان الله برعايته للانسان قد أعطاه هذه القابليات التي بها يستطيع الإرتقاء إلىٰ هذا المستوىٰ من الرشد والسمو، ولكنّ الإنسان يجهل قدره ويحرم نفسه هكذا من هذه الكرامة بتناول لُقيمات من الطعام الحرام وغير المناسب أو الكثير المتجاوز للحدّ. مثل هذا التعارض يكون منشأ لانّ يكتسب الأكل والشرب في صورة وكيفية خاصّة أو فوق الحدّ المناسب قيمةً سلبيّة. وهنا يلزم طبعاً أن نذكر: كما انّ الإفراط في الأكل والشرب مضرٌّ وذو قيمة سلبيّة فإنّ التفريط وقلة الأكل عن الحدّ المناسب مضرٌّ أيضاً، ويخلّ بسلامة الإنسان ويهدّد نشاطه وحيويته.

من المؤسف أن يمارس بعض الشباب المهذّبين والمخلصين ويودّون انتهاج

---

(١) بحار الانوار ٣٩/٥٨ الرواية ٦١.

السير المعنوي واكتساب الفضائل الأخلاقية ـ دون استشارة مع العلماء والمربّين ذوي التجربة ـ أعمالاً تحرمهم من السلامة سنين طوالاً. ويُبتلون بضعف يعجزهم عن القيام ببعض الواجبات فضلا عن المستحبات. من هنا فإنّ هذا العمل غير المدروس سيكون سبباً لخسرانهم في الدنيا والآخرة.

انّ قيمة الأكل القليل تستند إلىٰ تمكينه الإنسان لإحراز مزيد توفيق للارتقاء الروحي والمعنوي، فينبغي إذنْ أن يكون في حدّ لا يحرمه من التوفيقات الأخرىٰ، فإذا تجاوز الحدّ أصبح مرفوضا ولا قيمة له قطعاً، بل سيكون ذا قيمة سلبيّة.

انّ هذا أحد الموارد الواضحة لقيمة الاعتدال والمنهج المتوازن الواجب علينا رعايته. ليس للطعام طبعاً ضابط عامٌّ، بل يتروواح حسب الأمزجة والأعمار والعوامل الأُخرىٰ التي قد يكون لها دور، فعلىٰ كلّ انسان أن يلاحظ الظروف الخاصّة لحياته ويلتزم الاعتدال المتناسب معها، ويتجنب الإفراط والتفريط في الحدود والمقادير التي يحتاجها.

علىٰ انّه يلزم الالتفات إلىٰ هذه الملاحظة وهي انّ ضرر الأكل القليل قد لا يبدو علىٰ الشابّ القوي عاجلاً، ولكنْ بعد مضي سنين ـ خاصّةً لدىٰ استثمار سنوات الدراسة ـ ستُسلب منه القدرة تدريجيّاً، فيعجز عن تقديم الخدمة المناسبة للاسلام والمسلمين.

القسم الثالث

٣-٣

الغريزة الجنسية والزواج

الغريزة الجنسية والزواج

انّ حبّ الزواج وإشباع الميل الجنسي هو أحد طرق التذاذ الإنسان، ويكون هذا الميل في أصل وجوده كغيره من الميول والجواذب الباطنية من لوازم الروح الإنسانية الفطرية التي قلنا انّها في ذاتها ليس لها قيمة أخلاقية لا إيجابيّة ولا سلبيّة، وبعبارة أُخرىٰ انّ وجود هذه الميول والجواذب في الإنسان ليست حسنة ولا سيئة ولا قيمة لها من الناحية الأخلاقية.

وحسب الرؤية الفلسفية فإنّ كلّ ما له حظ من الوجود ـ سواء أكان اختياريا أم غير اختياري ـ يكون حسناً وخيراً، الاّ انّ الخير هنا يمثّل اصطلاحاً آخر ولا علاقة له بالقيم والخير في الأخلاق.

انّ ما يقع في نطاق الأخلاق ويكون ذا قيمة هو كمية وكيفية إشباع هذا الميل وجهة العمل به. قضيتنا هنا هي: كيف يُشبع الإنسان هذا الميل؟ وما هي درجة الإشباع؟ وبأيّ نية يتمّ الإشباع لكي يكون عمله ذا قيمة إيجابيّة أخلاقياً؟

الرؤية القرآنية عن الغريزة الجنسية

في القرآن الكريم آيات تدل علىٰ انّ حبّ الزواج والعلاقة الجنسية ملحوظان

في أصل الخلق، وهذا الأمر غني عن التعبد، فكلّ من يمعن النظر في كيفية خلق الإنسان يلاحظ انّ التناسل وبقاء هذا النوع يتحقّق عن طريق الزاوج وعملية الولادة، فلابدّ أن يكون ذلك ملحوظاً في أصل خلق الإنسان، أي انّ الإنسان مخلوق بنحو يحفظ ذريته عبر المقاربة الجنسية مع زوجه، والتعبير القرآني طبعاً مختلف في هذا المجال، نشير هنا إلىٰ مجموعات من الآيات:

أ ـ تدل الآيات علىٰ أنّ زوج الإنسان قد جُعل من جنسه، وهذا تدبير إلٰهي تكويني لحفظ نوع الإنسان، ولعل أوضح آية هي القائلة:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾(١).

فعبارة **﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً﴾** تدل بوضوح علىٰ أنّ تكاثر بني الإنسان يتمّ بالرابطة الزوجية، وهي ملحوظة في أصل خلق الإنسان بهدف التناسل.

وجاء في آية أخرىٰ:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ﴾(٢).

ولعل في عبارة **﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾** إشارة إلىٰ حكمة وعلة أُخرىٰ للزواج مستقلة عن التكاثر وبقاء نسل الإنسان وهي سكون الزوجين أحدهما إلىٰ الآخر والشعور بالمودة والصفاء بينهما، وبالتالي التعاون بهدف النهوض بأعباء الحياة.

---

(١) النساء ١.　　(٢) الأعراف ١٨٩.

من هنا نلاحظ آيات قرآنية تؤكّد علىٰ هذه الحكمة فقط ولا تتحدّث عن التناسل كالآية القائلة:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

والآيات الأُخرىٰ التي تشير إلىٰ هذه الحقيقة بنحو مّا في هذا المجال.

الآيات المذكورة ونظائرها تردّ أفكار الذين يعتقدون أنّ الزواج عمل خبيث وشيطاني وذو قيمة سلبيّة، فمثل هذه الأفكار مرفوضة وباطلة لا موقع لها في القرآن، والدين السماوي الفطري.

انّ الرغبة في الزواج بمقتضىٰ الحكمة الإلٰهية ملحوظة في خلق الإنسان، وقد اقتضىٰ التدبير الإلٰهي تحقيق تكاثر النسل وبقاء الإنسان عن هذا الطريق.

ومثل هذا الأمر في ذاته وفي عالم التشريع لا يمكن أن يكون ذا قيمه سلبيّة، إذ إنّ ذلك سيؤدي إلىٰ نوع من التناقض بين التكوين والتشريع، وعدم الانسجام بين نظام الوجود والنظام الأخلاقي. في حين أنّ النظام الأخلاقي ـ في الرؤية القرآنية ـ لا يتنافىٰ مع النظام التكويني، ليس هذا فحسبُ بل يكمّله.

يعلّمنا القرآن أنّ الدين أمر فطري والقوانين التشريعية الدينية متناسقة تماماً مع الفطرة، وهذا التناسق هو السرّ في انتصار الدين الحقّ وشموليته وعالميته وخلوده.

وبملاحظة هذه الآيات لا يكون الزواج ولا التقارب الجنسي بين الرجل والمرأة في ذاته عملاً قبيحا وخبيثاً، فينبغي البحث عن منشأ القبح والقيمة السلبيّة بالنسبة للغريزة الجنسية، وعلاقة الرجل بالمرأة في موضع آخر كأعراض الكمية والكيفية وجهتها، فإنّ الكم والكيف والجهة هي المنشأ للحُسن أو القبح في ذلك.

---

(١) الروم ٢١.

الأخلاق الجنسية

يستفاد من الآيات القرآنية أنّ هذين الجنسين المتقابلين ـ أي الرجل والمرأة ـ مخلوقان ليكمّل أحدهما الآخر، واقتضت الفطرة الإنسانية أن يميل أحدهما إلىٰ الجنس المقابل ويجعله منشأ لسكونه وارتياحه ويشبع شهوته، وبذلك يكون سبباً للتناسل وبقاء نوع الإنسان وعدم ترتّب الفساد عليه.

القيود الفطرية للغريزة الجنسية

في الرؤية القرآنية يتعارض الميل إلىٰ الجنس المماثل مع الفطرة ونظام الخلق، ويُعتبر انحرافاً بشعاً في الغريزة الجنسية.

وعليه فإنّ المنحرفين عن النهج الطبيعي التكويني لاشباع الغريزة الجنسية ويسلكون طريقا آخر غير مقرّر في أساس الخلق لاشباع هذه الغريزة يكتسب عملهم قيمة سلبيّة، وبذلك يحيدون عن الصراط المستقيم للفطرة الإلٰهية.

وقد أكّد القرآن الكريم ـ من خلال بيان قصة قوم لوط (المشهورين بهذا العمل المنحرف) في عدة مواضع (ثلاثة مواضع علىٰ الأقل) ـ علىٰ قبح هذا العمل وانحرافه عن النهج الفطري.

يتحدّث القرآن عن انحراف هؤلاء القوم في إشباع هذه الغريزة عن مسيرتهم الطبيعية والفطرية ولذا تعرضوا للذمّ وابتُلوا بالعذاب الإلٰهي، وتقول الآية التي هي الأوضح من الآيات الأُخرىٰ بهذا الشأن:

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[١].

أي انّكم تسلكون طريقا يتعارض مع فطرتكم ويتنافىٰ مع طبيعتكم، انّه انحراف عن الصراط المستقيم.

---

(١) الشعراء ١٦٦.

وهذه الملاحظة تفيدنا من هذه الجهة وهي أنّ الله تعالىٰ بتعبيره ﴿**خلق لكم ربكم**﴾ يفهمنا أنّ ما يقتضيه الخلق الإلهي هو رغبة كلّ واحد من هذين الجنسين في الجنس المقابل، وعليه يجب اشباعه عن هذا الطريق.

إنّ الله تعالىٰ لم يجعل انجذاب الرجل إلىٰ الرجل، أو المرأة إلىٰ المرأة في فطرة الإنسان وخلقه، ولا يدخل في نطاق ﴿**ما خلق لكم**﴾ وعليه لو ظهر مثل هذا الميل في الإنسان فإنّ ذلك دليل علىٰ أنّه قد انحرف بسبب مؤثّرات خارجية قد دفعته إلىٰ ارتكاب أعمال قبيحة وخبيثة ومنحرفة.

قال تعالىٰ في آيات أخرىٰ:

﴿**وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**﴾[1].

هاتان الآيتان ـ إلىٰ جانب التنديد بعملهم بتعبير (**مسرفون**) والإخبار عن هلاكهم ونزول العذاب عليهم تنبيهاً علىٰ درجة فساد وشناعة هذا العمل ـ تشيران إلىٰ ملاحظة ظريفة جدّاً بتعبير ﴿**مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾ حيث يدل علىٰ انّ هذا العمل غير فطري كما هو مدّعانا تماماً، أي انّ هؤلاء القوم بانحرافهم عن النهج الفطري يمثّلون حالة استثناء بين الاقوام البشرية وشعوب العالم آنئذ، حيث إنّهم قد انحرفوا عن النهج الفطري العامّ وطريق جميع شعوب العالم في التأريخ، والمبتلون بهذا المرض هم المنحرفون عن قانون الفطرة، واليوم يُعدّ الذين يستغلّون الحرية المنفلتة ويمارسون هذا العمل علانية حتّىٰ أنهم يرفعونه شعاراً هم ثلّة قليلة قطعاً قد أصبحوا مصدراً للأمراض والفساد والإباحية وإنْ كانوا صَلِفين وعلا ضجيجهم.

---

(١) الأعراف ٨٠ و ٨١.

الحقيقة هي انّ بعض الحكومات والانظمة السياسية الغربية تريد التفاخر بالحرية من خلال الاعلان عالمياً عن (مفعولية) رجالها وتحرّرهم، في حين انّ هذه الحرية ليست حرية يفتخر بها أو يفاخر بها، بل هي حرية حيوانية مخجلة يندى لها جبين سليمي الفطرة من الرجال والنساء حتّىٰ عند سماع ذلك.

الآية ٥٥ من سورة النمل[١] هي المورد الثالث الذي استقبح القرآن فيه عمل قوم لوط، ولا تتضمّن أكثر مما ذكرناه. والحاصل أنّ أول ما يجب رعايته لدىٰ إشباع هذه الغريزة هو الالتفات إلىٰ مقتضىٰ الفطرة والخلق الإلٰهي ويعتبر الانحراف عنه ـ أي الشذوذ الجنسي ـ كقيمة سلبيّة قطعية وعمل انحرافي شنيع.

القيود الاجتماعية للغريزة الجنسية

إلىٰ جانب ما ذُكر آنفا من القيود الفطرية هناك تقييد آخر لإرضاء الغريزة الجنسية وباهماله تنشأ قيمة سلبيّة أيضاً، وهي انّ عملية الإشباع الجنسي يجب أن لا تتمّ بنحو يصدّ الإنسان عن نيل مصالح أهمّ وكمالات أسمىٰ. وفي الحقيقة تنشأ هذه القيود من التعارض بين مصالح الإنسان.

وقد أشرنا سابقاً إلىٰ أنّ ما يكون منشأً للقيمة السلبيّة لاشباع الميول والرغبات هو تعارضها مع رغبات أفضل وأهمّ، وبدراسة هذه الرغبات وتقييمها وقياس بعضها ببعض تظهر وتتّضح حدود كلّ واحدة من هذه الرغبات والميول.

وبإمكاننا أن نكتشف ميزان المقايسة في بعض الموارد وذلك بإدراكاتنا العادية والعقلائية ونعرف الحدود الدقيقة لكلّ منها، ولكنْ في أغلب الموارد ليس بوسعنا

---

(١) ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ النمل ٥٤ و ٥٥.

تحديدها بدقة نظراً لعدم إحاطتنا بموارد التعارض والتأثيرات السيئة أو المرفوضة التي قد تترتّب عليها، من هنا فإنّ الوحي يقوم بدوره الفاعل، ولكنْ علىٰ أيّ حال، فإنّ المنشأ الأساسي هو ذلك التعارض.

انّ المصالح الاجتماعية للانسان تقتضي أن تنتظم حياته وتسير في إطار الأُسرة، وتنضبط علاقات الرجل بالمرأة وتقوم وفق ضوابط ومعايير خاصّة، ولابدّ من اختصاص زوج الإنسان به لما تترتّب علىٰ تشكيل الأُسرة واختصاص الزوج من مصالح عديدة تعود علىٰ الفرد والمجتمع، وبدون ذلك تحدث أضرار وخسائر كبيرة.

ومن تلك المصالح الاجتماعية حفظ نسل الإنسان عن طريق الأُسرة، وترتُّب الكثير من الشؤون الاجتماعية والحقوق كمسألة الإرث والنفقة والتربية والمسؤوليات الأُخرىٰ التي يتحمّلها الوالدان تجاه الأبناء، أو الصداق والنفقة والإستمتاع والالتذاذ والطاعة والمسؤوليات المتبادلة الأُخرىٰ بين الزوجين، وتتوفّر فيها الظروف لتنامي العواطف والفضائل الإنسانية والحبّ والايثار والتضحية والقدسية والطهارة، وتنتفي ظروف الفساد والتسافل والبوار والأمراض الجسمية والنفسية واضمحلال العواطف الإنسانية والانحطاط إلىٰ مستوىٰ الحياة الحيوانية.

الأسرة والزواج الشرعي

لو جاز لكلّ انسان اقامة علاقات جنسية مع أي فرد من الجنس المقابل لتضعضع بناء الأُسرة وفات ما يترتّب عليها من مصالح كثيرة، ولذا يلزم ـ حرصا علىٰ هذه المصالح ودفعاً للمفاسد الناجمة عن الإباحية الجنسية ـ تسليم جميع أفراد المجتمع لهذه القيود المعقولة والمنطقية.

والإطار العامّ للقيود الاجتماعية للغريزة الجنسية عبارة عن الزواج القانوني والشرعي، فيجب تأطير الغريزة والعلاقة الجنسية بهذا الإطار كي لا تتعارض مع مصالح الإنسان الأخرىٰ. أمّا شروط الزواج الشرعي اللازم رعايتها في الزواج فإنّ القانون الالٰهي هو الذي يحدّدها لانّنا لا نعرف جميعها بالضبط. ولكنْ بنحو مجمل نقول: حينما يتعارض إشباع هذا الميل الطبيعي مع المصالح الاجتماعية للانسان فلابدّ أن يُقيَّد بعدم التعارض مع تلك المصالح وأن يكون منسجماً معها. هذا الإطار هو الزواج القانوني، فإذا تجاوز السلوك الجنسي للانسان هذا الحدّ فانّه سيكون ذا قيمة سلبيّة، وقد عبّر القرآن الكريم عنه بـ(**العدوان**)، قال تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[١].

ثمّ إنّه قد لا يكون هناك إشكال في أصل الزواج، ولكنّ بعض الحالات والأعراض تكون منشأً للقيمة السلبيّة، وللاطلاع التفصيلي علىٰ هذه الموارد ينبغي مراجعة كتب الفقه.

خلاصة وفذلكة

النتيجه: انّ إشباع هذه الغريزة لا يكون ذا قيمة سلبيّة إذا تمت رعاية ثلاثة أنواع من القيود:

أولاً: القيود التي تشير إليها الفطرة وهي أنّ هذه العلاقة يجب أن تنحصر بالجنس المقابل.

ثانياً: القيود التي تقتضيها المصالح الاجتماعية العامّة لجميع الأفراد في جميع

---

(١) المؤمنون ٥ ـ ٧.

الظروف ويلزم رعايتها من قبل الجميع في قوانين الزواج، وقامت الشريعة المقدسة بتبيانها.

ثالثاً: القيود التي تتّجه إلىٰ الزوجين في موارد استثنائية وحالات خاصّة، فتضيق علاقاتهما الزوجية بنحو مّا.

إذا التفت الإنسان إلىٰ هذه القيود ورعاها وطبّقها في ممارسة الغريزة الجنسية فلا يكون التذاذه ذا قيمة سلبيّة ولا يُلام عليه، وقد أمضاه الله عزّوجلّ في موردين بعبارة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[1].

كما يستفاد من آيات قرآنية أُخرىٰ في الجملة انّ الزواج غير ممنوع ولا يتصف بقيمة أخلاقية سلبيّة، كالآية:

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[2].

وهناك حديث عن أحكام الزواج والطلاق في آيات وموارد أُخرىٰ من القرآن الكريم بمناسبات مختلفة، ومن الطبيعي أن تدل هذه الآيات بنحو ضمني علىٰ إباحة أصل الزواج أيضاً.

القيم الأخلاقية في الزواج

حسب الأصول العامّة التي استنتجناها من القرآن الكريم تكون القيم الإيجابية في الفعل الأخلاقي تابعة للدوافع التي تبعث الإنسان لممارسته. انّ أعمالنا كلّما

(١) المؤمنون ٥ و ٦.   (٢) النساء ٣.

قوي ارتباطها ـ من خلال دوافعها ـ مع الله تعالىٰ وكانت أكثر ارتضاءً عنده، كانت محبّذة بنحو أكبر وذات قيمة أسمىٰ، وعلىٰ العكس كلّما أُنجزت ارضاء للنفس وبتأثير من الدوافع النفسية كانت قيمتها أقلّ.

إذا فكّر الإنسان بأنّ الحكمة الإلٰهية تقتضي استمرار النوع الإنساني في الأرض عن طريق الزواج، وكان هذا الفكر هو الدافع لزواجه وانتخابه الزوج كان زواجه ذا قيمة إيجابيّة قطعاً، لأنّه قد جعل إرادته تابعة لارادة الله عزّوجلّ، وأقدم علىٰ هذا العمل لأجل أنّ الله تعالىٰ أراده.

انّ قصد الطاعة لله واتّباع الإرادة الإلٰهية ذو مراتب طبعاً، ويتفرّع علىٰ مدىٰ الاخلاص في الداعي الرئيسي والنية الشخصية: هل كان دافعه في أداء العمل هو الاخلاص ومحض رضا الله عزّوجلّ، أو كان للأجر والثواب الأُخروي دور في عزمه علىٰ العمل، أو انّ دافعه كان محض الأجر والثواب الأُخروي وليس شيئاً آخر، أو الخوف من العقاب وخشية التلوث بالمعصية هو الذي دفعه للزواج؟

في أغلب الأشخاص لا ينحصر الدافع في أداء أعمالهم طبعاً في اتّباع الإرادة الإلٰهية بحيث لا يلاحظون أبداً لذتهم، ولكنّ نفس رعايتهم للحدود القانونية وتحديد أنفسهم في هذا الإطار المحدود وعدم تجاوزه يحتاج ـ في ذاته ـ إلىٰ دافع إلهي، ولكنْ ينبغي الالتفات إلىٰ هذه الحقيقة وهي أن أساس القيمة الإيجابية لكلّ عمل، وهكذا الزواج وهو ما نبحث عنه، يتوقف إلىٰ درجة كبيرة علىٰ درجة الاخلاص في نية الإنسان.

لو استطاع شخص أن يخلص في نيته بحيث يكون الدافع المهيمن عليه هو نيل رضا الله عزّوجلّ، وتكون اللذائذ الدنيوية تحت هيمنته وفي طريق ذلك الدافع الإلٰهي تماماً فإنّ عمله سوف يحظىٰ بدرجة سامية من القيمة الأخلاقية طبعاً،

وتختص هذه المرتبة بأولياء الله والذين بلغوا مراتب عالية في المعرفة والتوحيد. أجل، انّهم وحدهم يمكن أن يكون لهم مثل هذا الدافع في أعمالهم، والمؤمنون من الدرجة الوسطىٰ لا ينالون هذه الدرجة من الاخلاص عادة.

وهكذا إذا كانت رعاية الحدود الإلٰهية بهدف كسب الثواب، فإنّ الأعمال المنجزة بهذا الدافع تكون ذات قيمة أخلاقية عالية نسبياً، وهكذا إذا أنجزت الأعمال ذات العلاقة بالميول الجنسية بدافع الخوف من الوقوع في المعصية التي تستتبع العقاب الإلٰهي، سواء أكان ذلك في أصل الزواج أو بعد الزواج وفي العلاقة الزوجية واللذائذ المختلفة المترتّبة علىٰ الزواج. علىٰ أيّ حال، إذا كان دافع الإنسان هو الاحتراز من المعصية كان ذا قيمة إيجابيّة أيضاً، ويكتسب عمل الإنسان في جميع الموارد المذكورة مهما كان ـ حتّىٰ الزواج ـ مسحة عبادية.

ولكنْ إذا كان دافع الإنسان للزواج هو الالتذاذ فحسبُ فإنّ عمله يفقد القيمة الإيجابية وإنْ لم يكن له في ذاته قيمة سلبيّة، الاّ بالنسبة لذوي الدرجات العالية من المعرفة والتوحيد، إذ إنّ الالتفات إلىٰ اللذائذ الشخصية يقلل من شأنهم ومقامهم ومرتبتهم، ولكنْ من الناحية القانونية والشرعية وما يعرض علىٰ عامّة الناس هو أنّ رعايه ظاهر الأحكام الإلٰهية إذا كانت بأي دافع فانّها لا تتّصف بالقيمة السلبيّة.

الآيات المتعارضة والجمع بينها

قلنا آنفاً إن المستفاد من الآيات القرآنية هو أنّ الغريزة واللذةالجنسية غير مذمومة في ذاتها، وليس لها قيمة سلبيّة، ولكنّ في بعض الآيات نلاحظ عبارات قد توحي بانّ إشباع هذه الغريزة عمل مذموم.

فقد جاء في إحدىٰ الآيات:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

فالتعبير **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾** ليس تعبير ثناء، ويمكن القول أنّه ذمّ خفيف لهؤلاء الأفراد، ولكنْ بقليل من الدقة يتّضح أنّ ما جاء في هذه الآية لا يتعارض أبداً مع ما ذكرناه سابقاً، لانّ هذه الآية بصدد المقارنة بين شؤون الحياة الدنيوية ونعمها ولذّاتها وجواذبها وبين النِعم الأُخروية التي لا نهاية لها، فهي تؤكّد عظمتها وسموّها ولذا تقول الآية التالية:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

وعليه فإنّ الآية المذكورة لا تريد القول أنّ إشباع الشهوة والتمتع بالأزواج قبيح ومرفوض مطلقاً، بل نظراً لوجود هذا الميل في الإنسان بنحو مطلق لا يعرف الحدود قد يكون مكيدة شيطانية كبيرة وخطيرة علىٰ الإنسان، فتجرّه لارتكاب المعصية ونسيان الآخرة.

قال تعالىٰ في آية أخرىٰ:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ

---

(١) آل عمران ١٤.　　(٢) آل عمران ١٥.

اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[١].

تشير هذه الآية إلى الذين تكون علاقتهم العاطفية مع الأزواج والأبناء والآباء واعضاء الأُسرة والاقرباء وحبّ لوازم الحياة الدنيوية قوية إلىٰ درجة اعتبار المصالح المهمة الأُخرىٰ أمراً ثانويا ومنسيّاً، حتّىٰ انّ هذا الحبّ القلبي يتغلّب علىٰ حبّ الله عزّوجلّ، ويصدّهم عن أداء الواجبات، وهذا هو التعارض الذي قلنا أنّه يمثّل ملاكا للقيمة السلبيّة.

صحيح أنّ العواطف بين المرأة وزوجها أمر طبيعي ونعمة أشار إليها الله سُبحانه بالتعبير الجميل ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وهو ما سنبحث عنه في فصل العواطف الاّ انّ هذه النعمة ذات حدود لا يجوز تعدّيها إلىٰ درجة إهمال المصالح الرئيسية والمهمة الأخرىٰ.

انّ العلاقة العاطفية الأوثق في الإنسان يجب أن تكون مع الله تعالىٰ، وينبغي أن يهيمن حبّ الله في قلب الإنسان علىٰ أيّ حبّ وتعلّق آخر.

انّ الذين بلغوا مقام التوحيد يتعمق حبّ الله في قلوبهم، ويشتدّ إلىٰ درجة جعل كلّ حبّ آخر فرعيا بالقياس إليه، بل إشعاعاً من حبّ الله.

هناك أفراد خواصّ قد جعل الله عزّوجلّ قلوبهم خالصة له، ولكنّ ذوي الدرجة الوسطىٰ والمؤمنين المتعارفين يجب أن لا يغلب ويهيمن ما في قلوبهم من حبّ آخر علىٰ حبّهم لله تعالىٰ علىٰ الأقل.

وأخيراً قال في آية ثالثة:

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٢].

---

(١) التوبة ٢٤. (٢) التغابن ١٤.

تقصد الآية الأزواج والأبناء الذين لا يملكون إيماناً كافيا، وتقول بأنهم يعارضونكم حينما تريدون القيام بواجباتكم، وتشاركون في الجهاد وتضحّون أو تنفقون أموالكم في سبيل الله، انّ هؤلاء الأزواج والأبناء بمثابة الأعداء لكم في مثل هذه الأحوال والظروف، إذ انّهم يصدّونكم عن طريق الخير فعليكم الحذر منهم حتّىٰ لا يصدّكم حبّهم عن أداء واجباتكم.

ومن أفضل مظاهر التعارض بين موارد الحبّ هو الجهاد، حيث يُعلم أيّ حبّ هو الأقوىٰ في الإنسان، ففي مورد الجهاد الواجب هل يكون حبّ الزوج والأبناء مانعاً من المشاركة فيه أم لا؟ فانْ كان مانعاً يُعلم أنّ عواطفه بالنسبة إلىٰ زوجه وأبنائه وحبَّه لهم أقوىٰ ويتغلّب علىٰ حبّ الله، وستكون هذه حالة خطيرة، ويطلعنا الله عزّوجلّ علىٰ هذا الخطر المحدق بنا بعبارة **﴿فتربَّصوا حتّىٰ يأتي الله بأمره﴾** في الآية السابقة.

و علىٰ هذا فإنّ الآيات المذكورة التي ظاهرها يعارض ما ذكرنا سابقاً لا تدلّ علىٰ أنّ أصل الزواج أو إشباع الغريزة الجنسية أمر مرفوض وذو قيمة سلبيّة، لانّ الذمّ في هذه الآيات يرتبط بحالة عرضية، وهي الحالة التي تتغلّب فيها هذه العواطف علىٰ حبّ الله ورسوله، وتصدّ الإنسان عن أداء واجباته، ولولا هذه الحالات العرضية لم تحدث قيمة سلبيّة في قضية الزواج وإشباع الغريزة الجنسية.

إرشادات قرآنية في مجال الغريزة الجنسية

يدعو عدد من الآيات الناس بصراحة لممارسة الزواج والنكاح كالآية القائلة: **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾**[١].

(١) النساء ٣.

أو ما جاء في آية أخرىٰ:

﴿وأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(١).

مثل هذه الآيات والروايات الكثيرة تدل علىٰ استحباب الزواج وحسنه. وينبغي الالتفات طبعاً إلىٰ أنّ هذا حكم عامّ قد شُرّع علىٰ أساس من الحاجة الشاملة والعامّة مع قطع النظر عن الأعراض الخاصّة التي قد تستدعي الإستثناء في بعض الموارد، ولا يتنافىٰ مع اعتبار هذا العمل (الزواج) واجباً في بعض الموارد ـ في ظروف خاصّة بالنسبة لبعض الأفراد ـ أو حراما وممنوعا في موارد أخرىٰ.

وعدد آخر من الآيات القرآنية يمنع من الزواج مع بعض النساء لأسباب مختلفة ولحكمة خاصّة في كلّ مورد، كالآية:

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ﴾(٢).

ثمّ يحكم:

﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾(٣).

وجاء بعد هذه الآية:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ

---

(١) النور ٣٢ و ٣٣. (٢) النساء ٢٢.
(٣) النساء ٢٢.

بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾(١).

وعقيب هذه الآية وبعد تحريم الزواج بالمحصنات يقول:

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾(٢).

وفي آية أُخرىٰ نهيٰ عن تزويج المشركات بعبارة **﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾**(٣) فتخصص الآية السابقة.

وبعد ذكر النساء اللائي يجوز الزواج بهن في الآية السابقة يدعو سُبحانه إلىٰ مراعاة قضايا جديرة بالاهتمام فيقول:

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾(٤).

هذه الآية تأذن في الإستمتاع بالنساء ولكنْ بدون هرج ومرج وإطلاق لعنان الغريزة الجنسية المنفلتة في المجتمع، فيترتّب عليها فساد كبير وجرائم وانحطاط وبوار، بل من خلال الطريق الصحيح للزواج والتعاهد المتبادل في إطار عقد مقدس دائم أو مؤقت.

نقرأ في آية أخرىٰ:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ...... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾(٥).

---

(١) النساء ٢٣. (٢) النساء ٢٤.
(٣) البقرة ٢٢١. (٤) النساء ٢٤.
(٥) المائدة ٥.

ويعنى اصطلاح اتّخاذ الخِدن العلاقةَ غيرَ الشرعية بالجنس المخالف، ويشير إلىٰ التقاليد التي كانت سائدة في الجاهلية وتسود العالمَ الغربي اليوم أيضاً.

يركّز القرآن الكريم علىٰ هذا الموضوع بخصوصه ويستقبح هذه العلاقة كما جاء في الآيات، كما أنّ هناك آيات عديدة تنهىٰ الإنسان عن الزنا والفحشاء كقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1]. أو تصدّ عن إشاعة الفحشاء، أو ترغّب الذين ارتكبوا الفحشاء وتلوّثوا بها في التوبة أو تدعو إلىٰ الصلاة بوصفها مانعاً من الفحشاء، وهي تشكل مجموعة كبيرة من الآيات[2].

كما انّ هناك آيات وروايات تدعو إلىٰ الإلتزام بالحجاب واجتناب التعرّي وهذه كلّها ترتبط نوعاً مّا بالغريزة الجنسية وتبيّن في الحقيقة الحدود الأخلاقية لها.

خلاصة وفذلكة

من خلال التدقيق في الآيات الكريمة يتّضح أنّ جميع القيم السلبيّة ذات الصلة بهذه الغريزة تعود في الواقع إلىٰ إحدىٰ الجهات الثلاث التي أوضحناها سابقاً.

إمّا انّ منشأ قبحها وقيمتها السلبيّة هو العلاقة مع الجنس المماثل، وهي تعارض الفطرة، أو انّ منشأ قبحها وقيمتها السلبيّة هو الفساد الاجتماعي وتردّه المصلحة الاجتماعية، وعليه من الضروري توضيح حدودها وضمان تنفيذها في ضوء القوانين والعقود الاجتماعية، أو انّ منشأ قيمتها السلبيّة هو تعارضها مع الكمالات الروحية والمعنوية.

---

(١) الأنعام ١٥١.

(٢) كالآيات: النور ١٩ / آل عمران ١٣٥ / العنكبوت ٤٥ / البقرة ١٦٩ و٢٦٨ / الأعراف ٢٨ و ٨٠ / يوسف ٢٤ / النحل ٩٠ / النور ٢١ / النساء ١٥ و ٢٢ و ٢٥ / النمل ٥٤ / العنكبوت ٢٨ / الأحزاب ٣٠ / الطلاق ١ / الأعراف ٣٣ / الشورى ٣٧ / النور ٤ و ٢٣.

انّ ما تذمّه الآيات القرآنية فيما يرتبط بهذه الغريزة يعود كلّه إلىٰ أحد الانواع الثلاثة للتقييد والحدود التي ذكرناها سابقاً ويكون رعايتها لازما وضروريا، وبرعايتها لا يتّجه ذمّ إلىٰ إشباع الغريزة الجنسية بل يرغّب فيه، لانّها حاجة فطرية، ويلزم تلبيتها بنحو يتطابق مع المصالح الفردية والاجتماعية لكي تتحقّق الغايات الإلٰهية التكوينية، ويحفظ ويستمر النسل البشري في الأرض.

اللذة الجنسية في العالم الآخر

بما أنّ التوالد وتكاثر النسل غير موجود في عالم الآخرة فقد يتصور انّ الالتذاذ الجنسي من خصائص هذا العالم، ويهدف إلىٰ بقاء نوع الإنسان في الأرض فقط، ولا وجود لهذه الغريزة في عالم الآخرة، ولكنّ هناك آيات قرآنية كثيرة ظاهرة علىٰ الأقل ـ إن لم نقل صريحة ـ في وجود هذه الغريزة هناك أيضاً.

هناك اختلاف جوهري بين نظام الحياة الإنسانية في العالمين طبعاً، ولا يمكن القول انّ ما هو موجود في الدنيا موجود بعينه في الآخرة، بل هناك تشابه بين هٰذين العالمين، وهناك مفاهيم عامّة قابلة للانطباق علىٰ شؤون العالَمين، ولكنْ لا عينية بينهما في الجزئيات والخصوصيات.

وبعبارة اُخرىٰ انّ التعابير المستعملة ومفاهيمها العامّة يمكن أن تشمل المصاديق الدنيوية والاُخروية، كما يمكن أن يشمل التعبيران العامّان:(الأكل) و(الشرب) المصداقين: الدنيوي والاُخروي.

انّ عملية الأكل والشرب موجودة في الدنيا وهكذا في الآخرة حيث توجد في الجنة والنار، ولكنْ قد لا يكون الأكل والشرب في الآخرة عين الأكل والشرب هنا، وليس فيهما مراحل الهضم والإمتصاص والدفع، ولكنْ علىٰ أيّ حال، فإنّ

مفهومي الأكل والشرب يصدقان عليهما كليهما.

كما توجد في مورد الزواج والغريزة الجنسية تعبيرات في القرآن الكريم تبشّر المؤمنين بـ(**أزواج مطهرة**)، ومنه يُعلم وجود الالتذاذ بالزوج في ذلك العالم أيضاً، بنحو تنطبق فيه التعابير والمفاهيم العامّة ذات العلاقة بهذه الغريزة علىٰ مصاديق ذلك العالم أيضاً.

يمكن تقسيم التعبير القرآني المتلائم مع هذا المجال إلىٰ ثلاث مجموعات تقريبا:

تتضمّن مجموعة من الآيات تعابير تتحدّث عن وجود أزواج مطهرة للمؤمنين في الجنة، ولكنْ لا يُعلم هل انّ أزواج الجنة هنّ أزواجهم في الدنيا أو غيرهن؟ وهل هنّ من قبيل البشر ويصبحن أزواجا للمؤمنين أو انّهن من نوع آخر، كهذه الآيات:

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾[3].

ومجموعة أُخرىٰ من الآيات تتحدّث تعابيرها عن أنّ المؤمنين في الجنة يصبحون أزواجاً لأزواجهم في الدنيا أيضاً، كالآية:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾[4].

---

(١) البقرة ٢٥. (٢) آل عمران ١٥.

(٣) النساء ٥٧.

(٤) الرعد ٢٣ وهكذا نظيرها الآية ٨ من سورة غافر ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم

وعليه فإنّ أزواج المؤمنين إنْ كنّ صالحات فانّهن يدخلن الجنة معهم ويتمتعن بنِعم الجنه ومصاحبة أزواجهن.

وكالآية: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[١].

وكالآية: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾[٢].

وعليه فإنّ من وعود القرآن للمؤمنين والنساء المؤمنات في هذه الآيات هو الاقتران بازواجهم في الجنة أيضاً.

وتضمّنت المجموعة الثالثة من الآيات القرآنية تعابير تتحدّث عن أنّ أزواج أهل الجنة لا تنحصر في أزواج الدنيا، بل هناك نوع آخر من المخلوقات الإلٰهية يعرفن بـ(**الحور العين**).

في هذا المجال نلاحظ عدداً أكبر من الآيات القرآنية نظير:

١ ـ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[٣].

٢ ـ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾[٤].

٣ ـ ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾[٥].

٤ ـ ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ...... كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾[٦].

٥ ـ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ......حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ.....لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[٧].

٦ ـ ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[٨].

---

(١) يس ٥٦.

(٢) الزخرف ٧٠. وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾

(٣) الصافات ٤٨ و ٤٩.

(٤) ص ٥٢.

(٥) الدخان ٥٤ والطور ٢٠.

(٦) الرحمٰن ٥٦ ـ ٥٨.

(٧) الرحمٰن ٧٠ ـ ٧٤.

(٨) الواقعة ٢٢و٢٣.

٧ ـ ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[١].

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾[٢].

يستفاد من مجموع الآيات ذات الصلة والتي قسمناها إلىٰ ثلاث مجموعات أولاً: انّ اللذة الجنسية موجودة في الجنة أيضاً، وثانياً: إنّ لذة المؤمنين هذه تكون مع أزواجهم المؤمنات في الدنيا، وهكذا الحور العين والموجودات والمخلوقات التي يخلقها الله عزّوجلّ لهم في غاية الحُسن والجمال.

فيستنتج أنّ الميل الجنسي لا يختص بعالم الدنيا والنشأة المادية، و أنّ هذا الميل أمر انساني ثابت ومن الأبعاد الوجودية للانسان، ويستثمر في الدنيا بهدف تحقيق مصالح هذا العالم وبقاء النسل البشري في الأرض، كما يستثمر الميل إلىٰ الأكل والشرب في الدنيا لحفظ وجود الإنسان وبقائه وسلامته. والمَيلان المذكوران يوجدان في عالم الآخرة أيضاً ويكونان منشأ لالتذاذ الإنسان واستمتاعه في الجنة، ولكنْ ليس بهدف النمو الجسمي أو تكاثر النسل قطعاً، بل المراد والمقصود هو أصل الالتذاذ من الأزواج والتجلّي الإلٰهي فيهن.

---

(١) الواقعة ٣٤ ـ ٣٨.

(٢) النبأ ٣٣.

القسم الثالث

٣ـ٤

الملبس والمسكن والمركب

الملبس والمسكن في القرآن
الملبس والمسكن في العالم الآخر
القيمة الأخلاقية للملبس والمسكن
القيمة الأخلاقية لانتخاب المسكن
انتخاب المركب
القرآن والمركب
القيمة الأخلاقية لاستخدام المركب

الملبس والمسكن والمركب

إلىٰ جانب الميل الجنسي والميل إلىٰ الأكل والشرب توجد متطلَّبات جسمية أُخرىٰ لدىٰ الإنسان في هذا العالم، وبتوفيرها يشعر بلذة خاصّة.

فالإنسان في المناخ البارد يحتاج إلىٰ المكان والمناخ الدافىء، وفي المناخ الحار يحتاج إلىٰ المكان البارد والمناخ الملائم للطبع، وبصورة عامّة هو بحاجة إلىٰ مسكن ومأوىٰ يقيه ويحفظه من البرد والحر والآفات والأخطار الأخـرىٰ، ومن الطبيعي أن تتحقّق له أنواع خاصّة من اللذة بتوفير هذه المتطلَّبات، الاّ انّ هذا النوع من المتطلَّبات ـ بالقياس إلىٰ شعوره بالحاجة إلىٰ الأكل والشرب والجنس المقابل ـ يحظىٰ بأهمّية أدنىٰ وتأتي في الدرجة الثانية من الأهمية بالقياس إليها.

الملبس والمسكن في القرآن

فيما يخص هذا النوع من المتطلَّبات الإنسانية قامت آيات قرآنية بملاحظتها، وذكّرت بنِعم الله عزّوجلّ بهذا الشأن. وإنْ كانت سعة الآيات ذات الصلة بالملبس والمسكن ـ بما يتناسب مع درجة أهمّية هذه المتطلَّبات بالقياس إلىٰ المتطلَّبات الغذائية والجنسية ـ ليست كسعة الآيات المرتبطة بالمتطلَّبات الجنسيّة والغذائية.

في آيتين من سورة النحل يذكر الله تعالىٰ نعمه في مجال الملبس والمسكن، فيقول في موضع:

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾[١].

في هذه الآية أشار سُبحانه وتعالىٰ أولاً إلىٰ المسكن، وذلك بأنّ الله قد يسّر لكم بيوتا لتسدّ حاجتكم إلىٰ المسكن ومحل السكنىٰ والسكينة.

الأسلوب القرآني هذا معروف، وهو ارجاع نِعم العالم كافة إلىٰ الله تعالىٰ وإسنادها إليه بتعابير مختلفة، نظير الخلق والجعل الوارد في هذه الآية لكي يجذبنا وأفكارنا ـ عبر هذا الطريق ـ نحو التوحيد الأفعالي.

فما يمتلكه الإنسان من دار للسكنىٰ وإنْ كان قد بناه بجهوده فإنّ الله عزّوجلّ هو الخالق لها لانّ جميع المقدمات والمعدّات ووسائل البناء، بل والقدرات والطاقات والإدراك والمعرفة والتخصص المعمول به وإنْ أُنجز من قِبله أو الآخرين في عملية البناء لكنّها تنتهي في واقعها إلىٰ الله عزّوجلّ، سواء أكانت بيوتا وأبنية تمّ تشييدها في المدن، أو خياماً يستعملها البدو والقبائل وغيرهم حال ترحالهم.

أجل، انّهم يصنعون من الجلود خياماً ومأوىٰ يستفاد منها بيُسر عند السفر أو الحضر. وبما انّها خفيفة الوزن وسهلة النقل فهم ينصبونها ويجمعونها بسهولة ويستفيدون منها جيّداً.

ثمّ يذكر أنّ الله تعالىٰ يجعل لكم من صوف الحيوانات ووبرها وشعرها الملابس ولوازم الحياة، ثمّ يتبع الآية بقوله:

---

(١) النحل ٨٠.

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾(١).

في هذه الآية يشير الله سُبحانه إلىٰ كهوف الجبال التي يمكن اتخاذها سكنا ومأوىٰ. هذه الأمور لا تهمّنا نحن الذين نعيش في المدينة وفي بيوت جميلة وعمارات عصرية مؤثثة بفضل ما حصل من تقدم في بناء المدن، ولكنْ بالنسبة للبدو المتنقلين في الصحارىٰ، أو الذين لم يمتلكوا بعدُ مثل هذه الأبنية والعمارات وهذا النوع من المدن وبنائها والسكن فيها فإنّ هذه الكهوف والمساكن الطبيعية والملاجىء تحظىٰ بأهمّية بالغة.

وهكذا تشير إلىٰ الألبسة التي سخّرها الله لكم كي تقيكم الحر، وقال المفسرون أنّ البرد مقصود هنا أيضاً، فالمراد الواقعي هو **﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر والبرد﴾** و(**البرد**) وهو عِدل (**الحر**) محذوف هنا الاّ انّ معناه مقصود.

ثمّ يشير الله تعالىٰ إلىٰ الألبسة التي جعلها لكم لتصونكم من الأخطار، وإلىٰ انّ الألبسة التي تلبسونها في الحرب نظير (الدروع) لكي تقي رؤوسكم وأجسامكم من الأخطار والإصابات ـ إلىٰ حدّ ـ أمام ضربات الآليات والأجهزة الحربية لدىٰ العدوّ وهجماته. هكذا أسبغ الله سُبحانه نعمه لكي تقبلوا الإسلام وتسلّموا لأوامره.

وقد تحدّث الله عزّوجلّ عن الملبس في آيتين من القرآن، جاء في إحداهما:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾(٢).

ليس المقصود في الآية طبعاً أنّ الله ينزّل عليكم ملابس مخيطة وجاهزة

(١) النحل ٨١.

(٢) الأعراف ٢٦.

وقمصاناً وثياباً كاملة، بل كما قلنا آنفا في الرؤية القرآنية أنّ جميع ما يحدث في العالم بفعل القوىٰ الموجودة في الطبيعة أو تصنعه يد الإنسان هو نازل من الخزائن الإلهية، وقد أوضح الله عزّوجلّ هذه الحقيقة في إحدىٰ الآيات القرآنية بـايجاز وبيان بليغ وصريح بقوله:

﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[1].

أجل، إنّ كلّ ما يوجد في هذا العالم يتنزّل من عالم علوي ليتحقّق فـي هـذا العالم المادي والجسماني، وعليه انّ المقصود من عبارة **﴿وَمَا نُـنَزِّلُهُ إلَّا بِـقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾** ليس النزول الجسمي أو المكاني، بل التحقّق والتجسيد والخلق في هذا العالم. إذنْ كلّ ما تلبسونه قد خلقه الله تعالىٰ ونَزل من قِبله.

وقال في الآية الثانية:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾[2].

الملبس والمسكن في العالم الآخر

الأصل في المسكن والملبس في الدنيا هو تلبية المتطلّبات الأوّلية للانسان، وإذا لم يظفر بهما فانّه يعجز عن المحافظة علىٰ سلامته تجاه البرد والحر والأخطار والآفات الجوية وأمثالها، وفي بعض الموارد يقترن بها أهداف أُخرىٰ كـالتزيّن والتجمّل من ارتداء الملابس.

ولكنّ الالتذاذ والانتفاع بالملابس لا يختص بالدنيا، بل يـوفّر الله عـزّوجلّ للمؤمن في عالم الآخرة الثياب الجميلة والفاخرة، وهكذا المسكن والمأوىٰ الجيد والمحبّب، والآيات القرآنية تشهد لهذه الحقيقة في بعض الموارد.

(١) الحجر ٢١. (٢) الانبياء ٨٠.

ففي آيتين من الآيات القرآنية وعد الله سُبحانه المؤمنين بأن يجعل لهم مساكن ومواطن طيبة في الجنة، واستعمل فيهما لفظ (**مسكن**) ويختلف ذلك بشكل واضح عن الآيات الكثيرة التي استعمل فيها لفظ (**الجنة**) فيقول في الآيتين:

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾(١).

في هاتين الآيتين استعمل لفظ (**مساكن**) وهكذا لفظ (**عدن**) ويعني موطن الاقامة ومحل الحياة إلىٰ جانب التعبير بـ(**جنات**) المستعمل في آيات عديدة.

وجاء في عدة آيات أنّ أهل الجنة يلبسون ثياباً جميلة، وعبّر عن هذه الحقيقة بتعابير مختلفة، فقد قال في موضع:

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾(٢).

وقال في موضع آخر:

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾(٣).

وقال في موضع آخر:

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾(٤).

من مجموع الآيات المذكورة يمكن استنتاج أنّ استعمال الملابس والمسكن في هذا العالم وهكذا عالم الآخرة قد تمّ تقديره مسبقاً، والالتذاذ بذلك كسائر الالتذاذات الأُخرىٰ ذو حيثية فطرية. وقد خلق الله عزّوجلّ الإنسان بنحو يشعر بها وباللذة لدىٰ تلبيتها، وعلىٰ العكس إذا لم يحقّق رغباته هذه ولم يجد ما يحتاجه فانّه يحزن ويتألم، ولذة الإنسان وألمه في الواقع أثران طبيعيان لوجود هذه النِعم والأشياء التي يحتاجها وعدمِها.

---

(١) التوبة ٧٢ والصف ١٢.
(٢) الكهف ٣١.
(٣) الدخان ٥٣.
(٤) الدهر ٢١.

القيمة الأخلاقية للملبس والمسكن

نظراً لكون الحاجة إلىٰ الملبس والمسكن ـ كما قلنا سابقاً ـ أمراً فطريا وطبيعيا في الإنسان فانّها في ذاتها ليست ذات قيمة إيجابيّة أو سلبيّة، بل ترجع قيمتها إلىٰ ما يرتبط بها من كمية وكيفية وجهة استعمالها.

في نطاق الأخلاق والقيم يدور الحديث حول كمية الانتفاع، والسؤال: إلىٰ أي درجة ينبغي الاهتمام بالملبس والمسكن؟ في الإجابة ينبغي القول: انّ الكمية التي ترفع حاجة الإنسان للملبس والمسكن لا قيمة سلبيّة لها قطعاً.

وقد أوضحنا في الماضي: بصورة عامّة انّ أصل اللذة في كلّ لذة من لذّات الانسان ليس لها قيمة سلبيّة أو إيجابيّة يقيناً. وهي (مباحة) فقهياً، ولكنْ إذا كان حبّ الملبس والمسكن مانعاً للانسان من تحصيل سائر الكمالات فإنّ الأعمال التي تصدر منه استناداً إلىٰ هذا الحبّ المفرط تصبح ذات قيمة سلبيّة.

من هنا تلاحظون أنّ القرآن بيّن بعض موارد التعارض وقيمتها السلبيّة في بعض الآيات:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[١].

ففي حالة وقوف الإنسان في مفترق طريقين: إمّا أن يحتفظ بمسكنه المحبّب لديه أو يؤدي تكليفه الإلٰهي، فإذا كان حبّ المسكن مانعاً من اهتمام الإنسان بالجهاد أو القيام بسائر تكاليفه أصبح هذا الحبّ مُفرطاً وذا قيمة سلبيّة، لأنّه

---

(١) التوبة ٢٤.

سيعارض كمالاً أفضل من كمالات الإنسان، ولكنْ إذا لم يتعارض مع شأن من شؤونه الفردية ومصالحه الاجتماعية كان الالتذاذ به مشروعاً ومنزّها من القيمة السلبيّة.

وعليه يمكن القول أنّ لذة الملبس والمسكن تتضيق بلحاظ إحدىٰ جهتين عرضيتين: إمّا من جهة طريق تحصيل المسكن، فالواجب أن يكون طريق اكتسابه مشروعاً وبمال حلال لا من طريق محرّم، أو من جهة تعارضها مع شؤون الإنسان وكمالاته الأُخرىٰ حيث لا ينبغي أن يتحوّل حبّه للمسكن إلىٰ حائل يمنعه من تحصيل سائر الكمالات، وفي مثل هاتين الحالتين يكون هذا الحبّ وآثاره وظواهره السلوكية ذا قيمة سلبيّة.

القيمة الأخلاقية لانتخاب المسكن

انّ أساس القيمة الإيجابية في كلّ التذاذ وجهد مبذول لتوفير الملبس والمسكن هو كسائر الميول أيضاً حيث يتوقف علىٰ نية الإنسان ودافعه. فإذا كان الهدف من توفير المسكن والملبس ذا ارتباط ـ بنحو من الانحاء ـ بالله والكمالات المعنوية للانسان كان الجهد المبذول لأجل ذلك ذا قيمة إيجابيّة واكتسب لونا عباديا.

كأن يكون الهدف من توفير المسكن هو تحقيق المزيد من السكينة للأسرة والأهل والعيال ليتمكّنوا من إدامة سيرهم التكامليّ من طريق عبادة الله وإطاعته، أو يكون الهدف الاحسان للآخرين، فإنّ مثل هذه الدوافع تستدعي أن يكون توفير المسكن وكلّ جهد من أجله ذا قيمة أخلاقية إيجابيّة.

إلىٰ جانب ما قلنا آنفا يمكن أن يكتسب الجهد لتوفير الملبس والمسكن في بعض الموارد وتحت عناوين ثانوية قيمةً إيجابيّة، فمثلاً في بعض الظروف

الاجتماعية الخاصّة يكون ارتداء الثياب الفاخرة حاكيا عن الشخصية والكرامة، أو يكون امتلاك المسكن الجيد والوسيع منشأ للانطباع الاجتماعي الإيجابي عن صاحبه، وبالتالي يكون باعثاً علىٰ انتشار الإسلام وعزة المسلمين واهتمام الناس بالدين وبالله سُبحانه، في مثل هذه الظروف يمكن أن يكتسب الجهد وتوفير الملبس والمسكن الجيد ـ تحت عنوان ثانوي وعلىٰ أساس هذا الدافع الإلٰهي والمعنوي ـ قيمة أخلاقية إيجابيّة بشرط أن تكون الظروف الاجتماعية كما وصفنا أولاً، وأن يكون دافع الإنسان في توفير المسكن والملبس الجيد دافعاً إلٰهياً ثانياً.

من هنا نرىٰ من اللازم التذكير بهذه الملاحظة وهي أنّه في موارد كثيرة يخدع الكثير أنفسهم والناس، وهم غالباً يضمرون دوافعهم المشوبة بأهوائهم النفسية تحت مثل هذا الغطاء لتبرير أعمالهم وسلوكهم أمام أنظار الأمة الملتزمة والمؤمنة بالله تعالىٰ. من هنا تكون لهم أوضاع وأحوال معقدة. علىٰ أيّ حال، إذا كان لهم ـ كما قلنا ـ مثل هذه الدوافع حقّاً فإنّ عملهم يكتسب قيمة أخلاقية إيجابيّة.

يقول القرآن إنّ النبي سليمانعليه السلام كان له قصر زجاجي وحينما دخلته بلقيس حسبت وجود ماء هناك، قال تعالىٰ:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

فقال لها المرافقون الذين عرفوا أنها علىٰ خطأ: لا وجود للماء هنا بل انّه قصر ممرّد من قوارير.

ولما شاهدت هذه العظمة الظاهرية خضعت لمقام سليمانعليه السلام وعظمته المعنوية

---

(١) النمل ٤٤.

وأسلمت. إنّ ما صنعه سليمانعليه السلام كان من أجل جلالة الإسلام وعظمته أمام الكفر، إذ كان مستوىٰ الرؤية الاجتماعية آنئذ هو الاعتقاد بأنّ المؤمنين الفاقدين للنِعم الدنيوية هم أناس منحطّون ومتخلفون، وإذا كان جهاز الحكومة الإسلامية بسيطاً ومن دون زخرفة فإنّ ذلك يجعل ذوي المستوىٰ الثقافي الداني لا ينجذبون نحو الإسلام والدين الحقّ. أجل، انّ أكثر الناس في تأريخ الحياة البشرية ابتُلوا ويُبتلون بمثل هذه النظرة السطحية، وحسب الاصطلاح المعروف: إنّ عقولهم في أعينهم، حتّىٰ الكثير من المؤمنين يتأثّرون بشدة بهذه العظمة الظاهرية والمرئيات والمسموعات، ويعجزون عن تقييم الأمور بدقة وعقل ودراية كافية.

رغم رقيّ المستوىٰ الثقافي نسبيا لدىٰ عموم الناس في هذا العصر فانّهم يتبجّحون بما في البلدان المتقدمة من صناعة وتكنولوجيا وتقدم ظاهر ومحسوس عند تقييم عقيدة الشعوب وأفكارها وأديانها ويقولون: لو كان دينها خاطئاً فكيف تقدمت صناعيا واقتصاديا إلىٰ هذه الدرجة؟!

مثل هذه النظرة السطحية والظاهرية كانت سائدة بشكل أوضح في عصر النبي سليمانعليه السلام وكانت العظمة والجلالة الظاهرية سبباً لركون عموم الناس إلىٰ مسلك خاصّ ونظام اجتماعي ومجتمع ما. من هنا دعا النبي سليمانعليه السلام ربه بأن يمنّ عليه بقصر ملكي فخم لا نظير له عند شخص آخر[1].

مما ذُكر آنفا نستنتج بصورة عامّة: في أي مجتمع آخر إذا كان المظهر المتواضع للمسلمين وأهل الحقّ يبعث علىٰ أن يراهم الآخرون منحطّين أذلاء فإنّ من واجبهم الاحتفاظ بالجلالة الظاهرية.

---

(١) ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ص ٣٥ـ٤٠.

في إحدىٰ الروايات يدعو الإمام عليه السلام الشيعة إلىٰ الإلتزام بـالجمال الظـاهري أمام المناوئين كي لا يبدوا في منظارهم أناساً متخلفين وعاجزين.

من الواضح انّ الكرامه الواقعية والكمال الحقيقي للانسان ليسا بـهذا الظـاهر طبعاً، ولكنْ مع اعتبار مثل هذه القيم الظاهرية لدىٰ مجتمع وشعب يصبح التجمّل والجلالة الظاهرية بالنسبة للمؤمنين بالعنوان الثانوي أمرين محبّذين وذوَي قيمة أخلاقية ومعنوية.

علىٰ المؤمن أن يحافظ علىٰ كرامته، وهذا حكم أشير إليه في الروايات، وعليه أن لا يعيش بنحو يُنظر إليه بعين الذل ـ خاصّةً في مجتمع تسوده القيم المادية وإنْ كان مجتمعا اسلاميا ـ بل بنحو يحفظ له عزته واحترامه في منظار الآخرين.

في مثل هذه المجتمعات يغدو ارتـداء الثـياب الفـاخرة والإلتـزام بـالجمال الظاهري ـ في إطار العناوين الثانوية من النوع الذي أشرنا إليه آنفا، وعلىٰ أساس من الدوافع الإلٰهية والمعنوية التي أوضحناها في هذا المجال ـ أمراً محبّذاً وقيّماً في المنظار الأخلاقي.

أمّا في مجتمع تسوده القيم المعنوية بنحو كامل وتُرفض القيم المادية فانّه لا مجال للحديث عن مثل هذه الأمور ورعاية تلك الظواهر طبعاً، ولا يكون لمثل هذه الجلالة الظاهرة ـ باسم تلك العناوين الثانوية وعلىٰ أساس تلك الدوافع التي أشرنا إليها ـ قيمة إيجابيّة وحُسن أخلاقي.

من هنا يمكن القول: انّ القيم المتعلّقة بهذه الميول ستتغيّر وتتبدل إلىٰ حدّ ما، أي في بعض الظروف الاجتماعية كلّما كـانت العـمارة الإسـلامية ذات جـلالة وعظمة أكبر كانت محبّبة بنحو أفضل وذات قيمة أكبر، وفي ظـروف اجـتماعية أُخرىٰ لا تكون الجلالة والعظمة الظاهرية محبّذة أبداً.

ورد في بعض الروايات انّه إذا أصبحت العمارة في عصر ظهور الإمام الحجةعليه السلام أعلىٰ من حدّ معين أو مزّينة بالذهب فانّهعليه السلام يأمر بهدمها حتّىٰ وإنْ كانت مسجدا.

هذه الرواية تبيّن أجواء اجتماعية خاصّةً لمجتمع تسوده القيم المعنوية إلىٰ درجة عدم فسح المجال لهذه العناوين الثانوية. أمّا في المجتمعات المعاصرة التي لم تمتلك بعدُ الرؤية المعنوية الخالصة، والثقافة الإسلامية للمجتمعات الدينية والإسلامية مشوبة بالثقافة المادية إلىٰ حدّ ما، فإنّ وجود بعض حالات التزيّن أمر محبّذ وقيّم للمسلمين في المجتمع الإسلامي حتّىٰ لا يكونوا أذلاء لا قيمة لهم في منظار الآخرين، ويحظىٰ النظام الإسلامي بالعزة والقوة والجلال والعظمة.

انتخاب المركب

هناك نعمة اُخرىٰ من النِعم التي يركّز عليها القرآن الكريم هي (المركب)، فالإنسان يحتاج إلىٰ مركب كي يتنقل أو يسافر من مكان إلىٰ آخر ليصل إلىٰ مقصده بنحو أسرع دون تعب وتخلف في أداء أعماله، وهناك موارد يعجز فيها عن الوصول إلىٰ المحل المقصود بدون مركب، كمن يعزم علىٰ السفر إلىٰ جزيرة في البحر أو إلىٰ الجانب الثاني من البحر للعمل أو ضرورة حياتية.

فيحتاج الإنسان في كلّ الأحوال ـ براً وبحراً ـ إلىٰ مركب كي تتحسن أوضاع معيشته وتدور بنحو أفضل وترفع حوائجه بصورة أسرع.

القرآن والمركب

يذكّر الله عزّوجلّ بنعمة المركب لدىٰ بيانه النِعم التي تفضّل بها علىٰ الإنسان في عدد من الآيات.

وقد كانت المراكب الأُولىٰ التي يستخدمها الإنسان هي الحيوانات من قبيل البقر والجمل والحمار والفرس والبغل، كان يستخدمها في أسفاره وتنقلاته علىٰ الأرض اليابسة. ولكنْ للسفر عبر البحار لم توجد مراكب طبيعية فاضطرته الحاجة إلىٰ صناعة المراكب البحرية والسفن لكي يسد حاجته بيده.

ورغم هذا الفارق الواضح بين المراكب الطبيعية كالفرس والبغل وبين المراكب المصنوعة بيد البشر كالفلك والسفينة فإنّ الله سُبحانه يسند خلقها إليه، ولو كان من المقرر نزول القرآن الكريم في هذا العصر لأسند إليه صناعة الوسائل المتطورة في هذا العصر كالطائرات والسفن وغيرها من وسائل النقل الضخمة والمتطورة وعمليات النقل الشائعة في هذا العصر أيضاً، ولقال: انّا خلقنا لكم الطائرات وهكذا مركبات الفضاء، لانّ الملاك في جميعها واحد. المقصود هو ملاحظة إسناد جميع الموجودات إلىٰ الله تعالىٰ وأن يكون التفات البشر وتوجُّهه إليه دائما وفي كلّ مكان، إذْ انّه المنشأ والمبدأ لكلّ النِعم مآلاً.

يقول تعالىٰ في إحدىٰ الآيات:

﴿وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾(١).

لقد جعل لكم بعض الحيوانات مراكب لنقل الأثقال لتحمل لكم وسائل الحياة، كما جعل البعض الآخر مراكب لتنقلكم إلىٰ مختلف الأمكنة.

وجاء في آية أُخرىٰ:

﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(٢).

---

(١) الأنعام ١٤٢. (٢) غافر ٧٩ و ٨٠.

وقد تكرّرت عبارة ذيل الآية **﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾** في آية أخرىٰ[١].

وقال في مورد: **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾**[٢].

وجاء في مورد آخر: **﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾**[٣].

وقال في آية أخرىٰ:

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾[٤].

وجاء في آية أخرىٰ: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾**[٥].

لقد أشير في الآيات المذكورة ـ بالتعبيرين العامّين (**أنعام**) و(**فلك**) ـ بصورة عامّة إلىٰ نوعين من الوسائط الطبيعية والصناعية للسفر والنقل، وفي الآية ٨ من سورة النحل وبعبارة **﴿والخيل والبغال والحمير﴾** ذكر مصاديق للأنعام التي يمكن استخدامها للركوب والنقل من قبيل الفرس والبغل والحمار حيث أنّها تعين الإنسان في الحمل والنقل والسفر. وقد أشار إلىٰ جميع المراكب بصورة عامّة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٦].

والمقصود انّه سخّر للانسان وسائط الحمل والنقل والركوب في اليابسة والبحر، وهي المراكب الطبيعية كالخيل والبغال والحمير والمراكب الصناعية كالسفن التي كانت منذ القدم، وهكذا اليوم حيث سخر للانسان وسائط متطورة برية وجوية

---

(١) المؤمنون ٢٢.
(٢) الزخرف ١٢.
(٣) النحل ٧ و ٨.
(٤) يس ٤١ و ٤٢.
(٥) يس ٧١ و ٧٢.
(٦) الإسراء ٧٠.

وسريعة في الوقت ذاته، لانّ الملاك في هذه الوسائط هو ذاته في السفن، فكما أسند الله تعالىٰ السفينة ـ هذه الواسطة الصناعية ـ إليه رغم انّها مصنوعة بيد الإنسان لزم بنفس ذلك الملاك إسناد جميع الأدوات والمعدّات الصناعية المتطورة المعاصرة إليه أيضاً.

القيمة الأخلاقية لاستخدام المركب

انّ استخدام المراكب الطبيعية وغير الطبيعية من جهة تقييمها الأخلاقي هو كاستخدام النِعم الأخرىٰ، أي انّ الإنسان حرٌّ في استخدام هذه النِعم ـ مالم يتعارض ذلك مع كمالاته الأخرىٰ، ولا يهضم الحقوق الاجتماعية للآخرين ـ ولا بأس ولا قيمة سلبيّة في ذلك، وكما قلنا سابقاً فإنّ اللذّات الفطرية ومنها لذة الركوب ليس لها قيمة إيجابيّة ولا سلبيّة، ولكنْ بفعل الدوافع الخاصّة التي تتعلّق بها يمكن أن تكون لها قيمة أخلاقية إيجابيّة أو سلبيّة.

فمثلاً يكون استخدام شخص المركب بهدف أداء مسؤوليته تجاه أفراد المجتمع بنحو أفضل وأسرع وبنشاط أكبر، أو بهدف إلٰهي آخر وينتهي دافعه في ذلك بالله ونيل رضاه، كالجهاد في سبيل الله، فانّه استخدام قيّم ومحبّذ في ضوء هدفه السامي، وتتوقف قيمة عمله علىٰ قوة هذا الدافع أو ضعفه ودرجة تأثيره علىٰ عمله طبعاً.

وبالعكس من ذلك لو أراد شخص أن يستخدم هذه النِعم بدافع التفاخر والتكاثر دون الالتفات إلىٰ حالة الآخرين البائسة والفقر والمجاعة والمشكلات الاجتماعية الأخرىٰ، ويقوم بتغيير طراز سيارته كلّ فترة ليزهو بها أمام الآخرين بانني أستخدم هذا الطراز المتطور من السيارة أو الطائرة الفلانية، أجل مثل هذه الدوافع يكون منشأ للقيمة السلبيّة لاستخدام المركب.

القسم الثالث

٥ـ٣

حبُّ الزينة والجمال

حبّ الجمال في القرآن

أ ـ زينة الدنيا

ب ـ الزينة في العالم الآخر

الجمال الإنساني في الجنة

الزينة والقيم الأخلاقية

حبُّ الزينة والجمال

ما تمّت ملاحظته ـ لحدّ الآن ـ من ميول ومتطلَّبات انسانية كانت ميولاً ومتطلَّبات يعجز الإنسان بدون تلبيتها واشباعها عن مواصلة حياته كالحاجة إلىٰ الأكل والشرب، أو يتوقف عليه بقاء النوع الإنساني في الأرض كالغريزة والحاجة الجنسية، أو انّ سلامة الإنسان وبقاءه يتوقف علىٰ توفيرها كالحاجة إلىٰ الملبس والمسكن، أو تزيده قدرة علىٰ تنمية أعماله والإسراع بها كالحاجة إلىٰ المركب.

وعلىٰ أيّ حال، فإنّ المتطلَّبات المذكورة متطلَّبات مادية وبدون الاهتمام بها تتعرض حياة الإنسان المادية للخطر، أو تصاب بالخلل بنحو مّا.

وما نريد قوله هنا هو أنّ في الإنسان ـ في مقابل المتطلَّبات والميول المذكورة آنفا ـ مجموعةً أُخرىٰ من الميول واللذّات التي لا تتعرض حياته للخطر بعدم تلبيتها واشباعها، وإنّما يشعر الإنسان باللذة من توفيرها واشباعها. يطلق علىٰ هذا النوع اسم (الزينة) و(التجمل).

إلىٰ جانب ما في الإنسان من ميول هناك ميل إلىٰ الجمال أيضاً، وهو مستقل عن متطلَّبات الإنسان الأُخرىٰ وإنْ كان متقارنا معها في الغالب، فمثلاً ما يتناوله الإنسان من طعام ويسد حاجة جسمه المادية إلىٰ الغذاء إذا كان في الوقت ذاته

طيباً في لونه ورائحته وقُدّم له في إناء أنظف وأجمل وأفضل فانّه يشعر بلذة أكبر طبعاً، الاّ انّ حيثية الحاجة إلىٰ الطعام هي غير حيثية الالتذاذ باللون والرائحة والجهات الأخرىٰ، فالمكفوف الذي يتناول الطعام ذاته ترفع حاجته إليه ولكنّه محروم من هذا النوع من اللذة لانّ عينه لا تبصر اللون الجميل للطعام، والذين يفقدون حاسة الشم ينتفعون بفائدة الطعام المادية ذاتها، ويلتذون بحاسة البصر باللون الجميل للطعام وإنْ لم يدركوا رائحه الطعام الطيبة ويحرمون من هذه اللذة.

انّ الإستمتاع بالرائحة الطيبة أو رؤية اللون البهيج أو الشكل الجميل والمناظر النضرة أو إدراك الجمال المعنوي والروائع الادبية في الشعر والنثر و... ليست من المتطلّبات الطبيعية للانسان بمعنىٰ انّ عدمها لا يهدّد الحياة الإنسانية، ولكنّها ـ علىٰ أيّ حال، ـ تبعث علىٰ التذاذ الإنسان بما يفوق أحياناً اللذّات المادية والتي يحتاجها في حياته. انّ متعلّق هذه اللذّات يدخل تحت عنوان الزينة والتجمّل، ولفظ الزينة والجمال يشملها بأجمعها.

الزينة تتفاوت عن الجمال تفاوتاً ظريفاً، فالزينة تطلق فقط علىٰ الجمال العارض الذي يحصل بضمّ شيء آخر من الخارج، بينما الجمال يطلق علىٰ الجمال الأصيل في الشيء والموجود في ذاته وبنحو طبيعي.

فمثلاً يطلق علىٰ الإنسان الجميل في ذاته انّه (جميل) وعندما يتزيّن بعملية تجميل أو لبس الحليّ والأسورة والقلادة الذهبية والمرصّعة باللؤلؤ ولبس الأقراط يقال انّه تزيّن.

وعليه فإنّ الزينة أمر عارض بينما الجمال صفة ذاتية للشيء نفسه، الاّ انّ الملاك فيهما واحد، بمعنىٰ أنّ الزينة والجمال العرضي يرجع إلىٰ الجمال الذاتي للحليّ ذاتها، فالحليّ في الخارج يجب أن تكون جميلة لكي تضفي جمالاً علىٰ

الأعضاء والجوارح التي تلبسها. إذنْ انّه الجمال الذاتي للاشياء وله تجلّيان: تجلٍ في الشيء الجميل، وتجلٍّ في الشيء الآخر الذي يتزيّن به، ويطلق علىٰ التجلّي الثاني الزينة في مقابل التجلّي الأول وهو الجمال.

يستعمل الجمال عادة في المرئيات الأعمّ من الأشياء وبني الإنسان، وهناك نوع من الجمال في المسموعات أيضاً. وفي اللغة الفارسية نعبّر عن الصوت الحسن والممتع بالصوت الجميل، ولعلّ لفظ الجمال في مختلف اللغات قد وضع أوّلاً للمرئيات ثمّ أُطلق علىٰ تجلّياته الأخرىٰ. وعلىٰ أيّ حال، فإنّ المقصود من الزينة هنا هو الأشياء التي يلتذ الإنسان بادراكها في الوقت الذي لا يشعر بالحاجة المادية إليها ولا يشكّل عدمها خطراً عليه.

حبّ الجمال في القرآن

أ ـ زينة الدنيا

لقد ركّز القرآن الكريم علىٰ هذا الموضوع باستمرار، والتفت إلىٰ هذا الميل والمراد الفطري للانسان. وفي بعض الآيات عرّف الله عزّوجلّ كلّ ما خلقه في الأرض كـ(**زينة**) لها بقوله: **﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾**[1].

وفي بعض آخر من الآيات يذكّر بالنباتات خصوصا بأنه قد جعلها زينة كي تبعث البهجة والحيوية فيمن يراها حيث قال في آية:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[2].

---

(١) الكهف ٧. (٢) النمل ٦٠.

وهي ما يُسرّ الإنسان ويفرح برؤيتها. وفي آيات أُخرىٰ أشار إلىٰ الأحـجار الكريمة والمعادن الثمينة وما يستخرج من البحر كزينة، فقال في مورد:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[١].

وجاء مثل هذا التعبير **﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾**[٢] في آية أخرىٰ.

وقد عرّف النجوم في بعض آخر من الآيات كزينة للسماء وقال:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[٣].

انّ النجوم مصابيح قد زيّنا بنورها وبريقها السماء، وقال في آية أُخرىٰ عن هذا الأمر:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[٤].

وفي بعض الآيات جمع كلاً من زينة السماء والأرض في موضع واحد والتفت إليها بقوله:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٥].

وجاء ذيل الآية في آية أُخرىٰ بهذا النحو: **﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾**[٦]، والمراد من (كريم) في الآية هو (جميل) وجاء في آية ثالثة: **﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾**[٧].

وربّما يجد الذين يدرسون ويبحثون عن حقيقة وماهية الجمال في (فلسفة

---

(١) النحل ١٤.
(٢) فاطر ١٢.
(٣) الملك ٥.
(٤) الحجر ١٦.
(٥) ق ٦ و ٧.
(٦) لقمان ١٠.
(٧) الحجر ١٩.

الجمال) شاهداً من هذه الآية علىٰ هذه النظرية وهي أنّ ملاك الجمال أو أحد ملاكاته هو انتظام أجزاء الشيء الجميل وتناسقها وتوازنها، وذلك لمكان كلمة «موزون» بدلاً من «البهيج» و«الكريم» و«الجميل».

ب ـ الزينة في العالم الآخر

يتمتع المؤمنون في الجنة بزينة خاصّة ويشعرون أيضاً بهذه اللذة (التمتع بالزينة) إلىٰ جانب التذاذهم بالأطعمة والمشروبات وثياب الجنة واللذائذ الأخرىٰ.

لقد أكد سُبحانه وتعالىٰ علىٰ هذه الحقيقة بتعابير مختلفة في آيات القرآن الكريم كقوله في موضع:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾(١).

في هذه الآية تصريح بتزيين أهل الجنة وتجميلهم بالثياب وأدوات الزينة والذهب والمجوهرات. ويستفاد من هذه الآية جواز لبس الذهب والحرير في الجنة، ويمكن القول: انّ منع انتفاع الرجال بهذه الأشياء في الدنيا يرجع إلىٰ تعارضها مع المصالح المادية والاجتماعية للانسان.

وقال في آية أخرىٰ:

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾(٢).

يخبر الله في هذه الآية الكريمة عن ألوان من زينة الجنة وهي تتعلّق بمأوىٰ و

---

(١) فاطر ٣٣ و ٣٤.　　(٢) الرحمٰن ٥٤.

مسكن وأسرّة أهل الجنة. وفي هذا المجال ورد في آية أخرىٰ:

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾[١].

لقد ركّز القرآن علىٰ اللون الأخضر بين الألوان المتنوّعة والجميلة، ولدىٰ الحديث عن اللون في الجنة فقد ذكّر ـ كما هو الحال في الآية الأخيرة ـ باللون الاخضر.

كما جاء في هذا المجال: **﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾**[٢].

كما قال في مجال أدوات الزينة والمناظر الجميلة في الجنة:

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[٣].

لقد تحدّث في هذه الآية عن الكؤوس والآنية التي توضع علىٰ المنضدة وعن الأسرّة والأخشاب العالية والجميلة والفرش والوسائد المنتظمة وأدوات الزينة الأُخرىٰ والمناظر الجميلة الموجودة في الجنة والتي يتمتع بها أهلها.

وعليه فإنّ أصل الالتذاذ بالمنظر الجميل وأدوات الزينة من الغرائز الفطرية في الإنسان، وليس لها في ذاتها قيمة حسنة ولا سيئة، وتتوقف القيمة والحُسن والقبح الأخلاقية علىٰ أمور عرضية وخارجية.

وإذا كان لاستعمال أدوات الزينة والمناظر الجميلة ـ في بعض الموارد ـ قيمة سلبيّة في هذا العالم فانّه إمّا بلحاظ تعارضه مع المصالح الشخصية الأُخرىٰ للانسان، أو بسبب انّه يؤدّي بالإنسان إلىٰ التعلّق بالأمور الدنيوية أكثر من الحدّ

---

(١) الرحمٰن ٧٦.

(٢) الواقعة ١٥ و ١٦.

(٣) الغاشية ١٢ ـ ١٦.

المتعارف بحيث يجعله غافلا عن الآخرة، أو انّه مرفوض لتعارضه مع حقوق الآخرين ومصالحهم الاجتماعية. فانْ لم يوجد أمثال هذا التعارض فإنّ استعمال الزينة والجمال في ذاته محبّذ لدىٰ الإنسان فطريا، كما انّه لا بأس به أخلاقيا، وإنّما يكتسب القيمة الإيجابية والسلبيّة من العناوين الطارئة، كسائر موارد الالتذاذ.

الجمال الإنساني في الجنة

إلىٰ جانب ما قلنا عن نِعم الجنة التي يعددها القرآن الكريم أشار إلىٰ الجمال الانساني الذي يتمتع به أهل الجنة، واعتبره من اللذّات التي يحظَون بها.

لقد قلنا ونذكّر هنا أيضاً بأنّ الغرائز الإنسانية متشابكة في الغالب، وتدفع الانسان للعمل المشترك بنحو قد تؤثّر عدة غرائز متقارنة في ممارسة عمل مّا.

النموذج الواضح لما ندعيه هو الغريزة الجنسية التي تختلف عن حبّ الجمال، ومع ذلك فإنّ الغريزتين تؤثّران معا في الغالب.

وقد أشير في القرآن الكريم إلىٰ جمال النساء كدافع بعبارة **﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾**[1].

فالجمال عنصر مهم وفاعل في انتخاب الزوج، وإنْ كان حبّ الجمال ميلاً مستقلاً ويختلف عن الشهوة والغريزة الجنسية تماماً.

القرآن الكريم في نطاق ذكره لنِعم الجنة ـ إضافةً إلىٰ تعبيره الجذاب والظريف عن الأزواج الجميلات كالتعبير **﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾**[2] و**﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾**[3] ونظائره ـ فانّه يتحدّث عن غلمان الجنة ذوي الجمال حيث يلتذ

(١) الأحزاب ٥٢.
(٢) الصافات ٤٩.
(٣) الرحمن ٧٢.

أهل الجنة بالنظر إليهم. قال في موضع:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾(١).

وقال في موضع آخر:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾(٢).

الغلمان الذين يطوفون حولهم ويخدمونهم هم شباب في نشاط دائم دون أن يعتريهم الشيب.

وجاء في آية ثالثة:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾(٣).

وعليه فإنّ رؤية ذوي الجمال من اللذّات الأُخروية، والذين لا يلتفتون إلىٰ هذا الميل المستقل في الإنسان يحسبون انّه مرتبط بالغريزة الجنسية، وانّ في الجنة ـ العياذ بالله ـ ميلاً إلىٰ الجنس المماثل، وهذا الحسبان باطل لا أساس له.

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ التذاذ أهل الجنّة بنعمها هو نفس الالتذاذ الذي تقتضيه الفطرة الإنسانية في ذاتها. لكنّ الميول التي يبديها الإنسان في هذا العالم المادي في بعض الموارد ميول بديلة تنشأ فيه نتيجةً للانحراف عن طريق الفطرة المستقيم. أي حينما لا تُشبع رغباته الفطرية بنحو طبيعي فإنّ ميله ينجذب إلىٰ الطرق البديلة.

انّ مقتضىٰ الغريزة الجنسية في هذا العالم هو الميل إلىٰ الجنس المقابل، ولكنّ عامل الحرمان أو بعض العوامل الأُخرىٰ يسبّب انحرافه، فيتعلّق ميله عندئذ بالجنس المماثل أيضاً. وهذا يعارض الفطرة الإنسانية الأصيلة وسيكون انحرافا عن مسيرته الفطرية.

(١) الطور ٢٤.
(٢) الواقعة ١٧ و ١٨.
(٣) الدهر ١٩.

يخاطب القرآن قوم لوط بشأن هذا الميل المنحرف بقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[١]. حيث تتّبعون ما هو شيطاني ومنحرف.

انّ الميول التي تنشأ في هذا العالم إثر انحراف الإنسان لا وجود لها في عالم الآخرة، فالانجذاب للمخدّرات في هذا العالم مثلاً وهكذا الميل إلىٰ التدخين أو الإدمان علىٰ الحشيشة والهيروئين وأمثاله ليست ميولاً فطرية، وعليه لا وجود في الجنة لمثل هذه الميول في الإنسان.

فحينما نقول: ينال الإنسان كلّ ما يريده في الجنة وتلبّىٰ جميع رغباته هناك فانّه لا يستلزم وجود السجائر والنارجيلة والهيروئين والحشيشة و.. كما هو حال العالم المادي.

يقدّم للانسان في الجنة ما تميل إليه فطرته الأصيلة، وسوف تلبّىٰ جميع ميوله الأصيلة والفطرية وغير المنحرفة ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[٢].

ولا وجود فى ذلك العالم للميول الإنسانية الناشئة من الانحراف عن الفطرة والضلال.

انّ حبّ الجمال وحبّ رؤية الأشياء الجميلة وأصحاب الجمال من الميول الأصيلة والفطرية والدائمة في الإنسان، ولذا فإنّ القرآن يعتبر ذلك من أفضل النِعم في الجنة ومن اللذّات الرفيعة لدىٰ أهل الجنة، ولكنْ ينبغي الالتفات إلىٰ انّ هذا ميل مستقل ولا يرتبط بالميل الجنسي.

انّ الميل الجنسي في الإنسان يتمّ اشباعه عن طريق الجنس المقابل، ولكنّ رؤية ذوي الجمال كالنبي الأكرم ﷺ والائمة الاطهار عليهم السلام ميل فطري آخر، وله

---

(١) الشعراء ١٦٦. (٢) الزخرف ٧١.

وجود في الآخرة أيضاً، ونظراً لكونه ميلاً فطريا وأصيلاً فسوف يُفسح المجال لاشباعه أيضاً.

انّ منع الإنسان من رؤية بعض أصحاب الجمال في هذا العالم يعود إلىٰ التعارض ذاته الذي أوضحناه سابقاً. أي انّ لذة رؤيتهم تتعارض مع الكمالات الأُخرىٰ للانسان، ويتعرض الإنسان إلىٰ الانحراف والضلال باتّباعه لهذا الميل، والسبب هو انّ إشباع الجنس يرتبط غالباً بالجمال بصورة مباشرة، ويكون الجمال في الغالب جزءً من الدوافع المثيرة للشهوة الجنسية.

من هنا فإنّ المرأة في هذا العالم مكلّفة بالحجاب أمام الرجل الاجنبي من جهة، كما انّ الرجل مكلّف بأن لا ينظر إلىٰ المرأة الاجنبية من جهة أخرىٰ، ولكنْ في عالم الآخرة سيقدّم للانسان في الجنة ما يشاء من الحور العين، ولو أثار جمال امرأة ـ هي زوجة شخص آخر ـ رغبته فإنّ الله يخلق له حورية هي مثل تلك المرأة، ولا يواجه مشكلة التعارض والتزاحم في ذلك العالم.

الخلاصة انّ حبّ الجمال من الميول الأصيلة والفطرية في الإنسان، ويتمّ اشباعه برؤية المناظر الجميلة، وسيكون الالتذاذ برؤية المناظر الجميلة ومشاهدة ذوي الجمال من نِعم أهل الجنة الكبرى، ويعود وجوب غضّ النظر عن الاجنبي والمنع من الالتذاذ برؤية الجمال الإنساني في بعض الموارد في هذا العالم إلىٰ تعارضه مع كمالات الإنسان الأخرىٰ.

الزينة والقيم الأخلاقية

انّ الملاك في حُسن استخدام الزينة ـ كما قلنا سابقاً ـ هو جهة ارتباطه بالله عزّوجلّ ومبدأ الإنسان ومعاده.

انّ التمتّع بالزينة يكون علىٰ صورتين مختلفتين: تكون الأُولىٰ بمعنىٰ الالتذاذ برؤيتها ومشاهدة المناظر الطبيعية الجميلة.

وتكون الثانية بمعنىٰ التزيّن والاهتمام بمظهر الشعر والوجه والملبس وتناسق ما ذُكر ونظافته.

ومن الطبيعي انّ ارتباط هذين النوعين بالله تعالىٰ يكون علىٰ صورتين مختلفتين أيضاً، نطلق علىٰ أحدهما: (**الإرتباط في النتيجة**) وعلىٰ ثانيهما: (**الإرتباط في دافع العمل**).

والمراد من (الإرتباط بالله في نتيجة العمل) هو حصول نحو من التغيير الايجابي في حالات الإنسان ومعنوياته وعلاقته مع الله عزّوجلّ بفعل هذه النعم.

فمثلاً إذا كان استخدام هذه النِعم داعياً لالتفات الإنسان إلىٰ الله تعالىٰ والقيمة السامية لنعمه وباعثاً فيه روح التقدير والشكر، أو زاده معرفة وعلما ومعرفة بالله سُبحانه وتجلّىٰ له العلم والقدرة والحكمة الإلٰهية بنحو أفضل فإنّ التمتع بالزينة في هذه الحالة يكون ذا قيمة إيجابيّة.

انّ أولىاء الله الذين يذكرون الله في جوف الليل ـ حينما يرقد الجميع ويسلب الكرىٰ أبصارهم وأسماعهم ويضرب علىٰ عقولهم واذهانهم ـ وينهضون لعبادة الله ينظرون إلىٰ السماء والقمر والكواكب المنيرة والمجرّات النيرة وجمال الأجرام السماوية فيذكرون الله وقدرته وعظمته وجلاله ويستغرقون في ذكره، وتتركّز حواسهم وإدراكهم في الهيبة والعظمة الإلٰهية حتّىٰ انّهم لا يرون شيئاً سواه، أو يرون مستقبل العالم من خلال الرؤية والتأمل والتفكّر في هذا العالم، مثل هذه الرؤية والمشاهدة ومثل هذا التمتّع بالزينة سوف يحظىٰ بأسمىٰ القيم الأخلاقية.

والمقصود من (الإرتباط في الدافع) هو أن يكون دافع الإنسان في استخدام

الزينة هو اتّباع الأوامر الإلٰهية والآداب الأخلاقية. في هذا المجال ترتكز رؤيتنا بنحو أساسي علىٰ أنّ الإسلام في بعض الموارد قد دعا وأكد علىٰ استخدام الزينة بنحو خاصّ من قِبل المؤمنين، فإذا كان استخدام الإنسان الزينة بهذا الدافع وقام بتزيين نفسه واعتنىٰ بمظهره فإنّ عمله يحظىٰ بقيمة إيجابيّة ويكون عملا عباديا، ويحسن أن نشير هنا إلىٰ نموذج بارز:

يولي الإسلام أهمّية كبيرة لاجتماع المؤمنين، وله إرشادات جمة للتآلف بين المؤمنين، وبما انّ المظهر اللائق والتزيّن والنظافة الظاهرية من الأمور التي تستوجب الأُنس بين الناس فقد اهتم بنحو خاصّ بتزيّن المؤمنين بعضهم لبعض لكي تشتد رغبتهم في المعاشرة فيما بينهم.

فذو المظهر غير المتناسق لا يودّ الناس معاشرته والأُنس معه. وإذا لم يعتنِ المؤمنون بمظهرهم فإنّ هذه الحالة اللامنتظمة ستسبّب تفرُّقهم تدريجيّاً. وعليه فإنّ ذلك لا ينسجم مع هدف الإسلام في التآلف والتعاطف بين المؤمنين.

من هنا يكون من المستحب تزيّن المؤمنين لدىٰ اشتراكهم في الاجتماعات وذا قيمة أخلاقية إيجابيّة. لنلاحظ هذه الآية القرآنية الكريمة حيث تقول:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1].

ينبغي للمؤمنين لدىٰ اشتراكهم في الاجتماعات الإسلامية التي تعقد عادة في المساجد أن يكون مظهرهم متناسقا ليرغب الآخرون ويميلوا للاجتماع بهم والتحدّث معهم.

(الزينة) المبحوث عنها هنا تشمل الملبس والشعر والوجه أيضاً. انّ الملبس النظيف والوجه المزيّن يكونان مشمولَين للزينة، ولهذا الملاك ينبغي للمؤمنين

---

(١) الأعراف ٣١.

رعاية هذا الإرشاد الإسلامي في مجالسهم الأُخرىٰ حتّىٰ لدىٰ اللقاء بين فردين مؤمنَين.

لقد ورد في روايات كثيرة أن النبي الأكرمﷺ كان يزيّن مظهره لدىٰ حضوره في اجتماعات المسلمين وحتّىٰ عند اللقاء مع شخص واحد، وفي حالة عدم وجود المرآة ينظر إلىٰ صفحة الماء الصافي كي يلاحظ مظهره لئلا يكون غير متناسق.

وورد في روايات أُخرىٰ شدة اهتمامه ﷺ بالطِيْب، حتّىٰ يستفاد من بعض الروايات انّ ثلث مؤونته السنوية كان يخصّص لشراء الطيب، مما يفيد انّ الإسلام يولي اهتماماً بالتزيّن الظاهري لكي تزداد أجواء الأُنس والتآلف و المخالطة بين المؤمنين، وتتحقّق الأهداف الإسلامية من خلال اجتماعاتهم وعلاقاتهم.

ويمكن استظهار استحباب التزيّن من بعض آخر من الآيات القرآنية التي استعمل فيها لفظ الطهارة كالآية:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[1].

والآية: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2]، وفي هذا السياق بما انّ الإسلام يولي أهمّية بالغة باجتماعات المؤمنين فقد تضمّن آدابا وأحكاما تهتم بشدة وبنحو خاصّ بتزيينهم لبعضهم، والتزيّن في الملبس والمظهر والنظافة، وذلك بهدف الأُنس فيما بينهم واقامة مثل هذه الاجتماعات.

(١) المدثّر ٤. (٢) البقرة ٢٢٢.

القسم الثالث

٦ـ٣

حبّ المال والبنين

معنىٰ المال

المال والملكية

الفطرة وحبّ المال

القيمة الأخلاقية لحبّ المال

المال والبنون في القرآن

حبّ الأبناء والفطرة

كسب الأموال والبنين من وجهة النظر الأخلاقية

وسيلتان للاختبار

حبّ المال والبنين

للانسان حبّ شديد للمال والبنين، وقد أشير إليهما معا في القرآن الكريم غالباً كقوله تعالىٰ:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾[2].

﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾[3].

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾[4].

في هذه الآيات وآيات أُخرىٰ كثيرة[5] ذُكر هٰذان الشيئان ونُسب إليهما قيمة إيجابيّة وسلبيّة مشتركة. وقد عبّر عنهما بتعابير مختلفة كالتعبير: **(الأموال والأولاد)** و**(المال والبنون)** و**(مالا وولدا)** و**(أنعام وبنين)** ونظائرها ممّا يشعر باشتراكهما في الحكم.

---

(١) الانفال ٢٨. (٢) سبأ ٣٧.

(٣) الإسراء ٦. (٤) الكهف ٤٦.

(٥) ٣/١٠ و ٣/١١٦ و ٩/٦٩ و ١٨/٣٩ و ١٨/٤٦ و ١٩/٧٧ و ٣٣/٥٥ و ٢٦/١٣٤ و ٣٤/٣٥ و ٣٤/٣٧ و ٥٧/٢٠ و ٦٨/١٤ و ٧١/١٢ و ٧٣/١٢ و ١٣.

وانّنا اقتدينا هنا بالقرآن وذكرنا الموضوعين معا وقمنا بدراستهما من زوايا مختلفة.

معنىٰ المال

المال هو كلّ ما يتمكن به الانسان رفع حوائجه، ولذا يحبّه بشدة. وهذا تعريف بالأعمّ حيث يشمل المواد الإستهلاكية كالماء والطعام والملبس والتي يستعملها الإنسان بصورة مباشرة، كما يشمل النقد والذهب والفضة التي لها دور غير مباشر في توفير الرغبات الإنسانية وذلك بمبادلتها مع المواد الإستهلاكية، كما يشمل الأرض والعمل ووسائل الانتاج التي يمكن من خلال الزراعة أو العمل بها توفير المتطلّبات الإنسانية المختلفة. وعليه فإنّ المال هو كلّ ما يرغب فيه الإنسان، ويرفع حاجة من حاجاته الجسمية والروحية بنحو مباشر أو غير مباشر(١).

المال والمِلكية

هناك فرق بين مفهومي المال والمِلكية، فالمال يكون عادة عينا خارجية ينتفع بها الإنسان بنحو مّا لتلبية متطلّباته المتنوّعة، في حين تكون الملكية أمرا اعتباريا وتعاقديا.

في تعريف الملكية يمكن القول انّها: «**سلطة الإنسان الاعتبارية علىٰ الشيء الذي يريد الانتفاع به بنحو مّا**»، وقد قال بعض الفلاسفة: انّ الملكية من

(١) المال شيء يرفع حاجة من حاجات الإنسان بالفعل او بالقوة وقد عرف دوره في ذلك ويكون مشروعا ومقبولا لدىٰ الناس بنحو عامّ وله شحة نسبية ـ مقتبس من (المباني الاقتصادية للاسلام) / مكتب التّنسيق بين الحوزة والجامعة ص ٢٢١.

مقولة (**الاضافة**) وقال بعض هي من مقولة (**الجِدة**) ويرىٰ الرأي الثالث انّها (**جِدة اعتبارية**).

وعلىٰ أيّ حال، فإنّ قوام الملكية هو أن يكون للانسان نوع من السلطة القانونية علىٰ الشيء كي يتمكن من التصرف به كما يحلو له بنحو مشروع. ولعل أفضل تعريف للملكية هو هذه السلطة الاعتبارية والقانونية، ولازمها إضافة المالكية والمملوكية.

الفطرة وحبّ المال

هل انّ رابطة (**الملكية**) فطرية أم هي تنشأ في الوسط الاجتماعي بمعونة من العقل وتعمّله؟

للإجابه عن السؤال المذكور ينبغي القول: من الصعب إثبات دعوى انّ (**الملكية**) أمر فطريّ مستقلّ. لو افترضنا أنّ انساناً يعيش في الأرض وحيداً لم يكن يطرح عنده قضية الملكية. فالإنسان لحبّه لذاته يودّ حيازة كلّ ما ينفعه، ونظراً لإمكان سلبه منه من قِبل الآخرين يتولد لديه هذا الدافع وهو حصر حقّ التصرف فيه علىٰ نفسه وهذا هو معنىٰ (**الملكية**).

ولا يكون حبّ (**المال**) حبّا أولياً وأصيلا أيضاً بل فرعيا وثانويا.

يودّ الإنسان ـ أصالةً وابتداء ـ تلبية متطلّباته ويستعمل هذه الأعيان والأموال كوسيلة لاشباع رغباته ومتطلّباته، ولذا ينجذب إليها. انّ الإنسان يحبّ أولاً الماء والطعام والملبس والزوج والأشياء التي ترفع حاجاته الجسمية أو الروحية، وبعد التفاته إلىٰ انّ شيئاً آخر يعينه في تلبية هذه الحاجات فانّه يحبّه. وعليه فإنّ حبّه للمال حبّ آليّ محض.

وعلىٰ هذا لا يمكن القول انّ حبّ المال حبّ أصيل وفطري في الإنسان، الآنّ نعتبر المال عنوانا انتزاعيا للاشياء التي يحتاجها الإنسان بصورة مباشرة.

فالثروة ليست في ذاتها شيئاً ينجذب إليه الإنسان فطريا. بل انّ ميله إلىٰ المال ثانوي ويظهر في الإنسان تبعاً لميله الأصيل إلىٰ ما يحتاجه في حياته. وإذا صار حبّ المال والثروة ذا أصالة عند بعض الناس وصار حيثية آليته منسيّة كان ذلك دليلاً علىٰ انحراف الفطرة ونسيان الذات.

القيمة الأخلاقية لحبّ المال

ما هي القيمة الأخلاقية لحبّ المال، هل هو مذموم أم ممدوح أم حيادي ولا قيمة له إيجابيّة وسلبيّة؟

ترتبط الإجابة عن هذا السؤال إلىٰ حدّ كبير باستقلال هذا الحبّ وعدمه، فإذا اعتبرناه حبّاً ثانوياً ـ لكون المال وسيلة لتوفير ما يحتاجه الإنسان ـ فإنّ قيمة المال تكون تابعة لقيمة ما يتبعه، فلو كان المتبوع ذا قيمة إيجابيّة كان المال ذا قيمة إيجابيّة تبعاً له، ولو كانت قيمته سلبيّة كان حبّ المال أيضاً ذا قيمة سلبيّة.

وعلىٰ العكس إذا اعتبرنا حبّ المال مستقلا وغير تابع، فيجب القول انّ هذا الحبّ في ذاته ـ كسائر الرغبات الفطرية المبحوث عنها سابقاً ـ ليس حسناً ولا سيئا، بل انّ قيمته الإيجابية أو السلبيّة تابعة لدافع كسب المال من جهة، وبطريقة كسبه ومورد صرفه من جهة أخرىٰ، فإذا اكُتسب عن طريق غير مشروع كانت له قيمة سلبيّة لأنّه يمنع بلوغ الإنسان إلىٰ الكمالات الأخرىٰ. وإذا جُعل المال وسيلة للقيام بعمل ذي قيمة إيجابيّة كان كسب المال كوسيلة له محبّذاً، وعلىٰ العكس إذا أراد المال لصرفه في موارد غير صحيحة كان كسبه ذا قيمة سلبيّة أيضاً.

المال والبنون في القرآن

يُذكر المال في القرآن بتعابير مختلفة:

أ ـ يوصف المال والبنون في بعض الآيات بـ«الزينة» كما جاء في مورد:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

انّ كلّ ما ذُكر في هذه الآية كـ **﴿القناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾** و**﴿الخيل المسوّمة﴾** و**﴿الأنعام والحرث﴾** من مصاديق المال، وهي زينة من وجهة نظر الإنسان وتجذبه نحوها كي ينتفع بها.

أجل، انّها زينة الحياة الدنيا، وتتوقف قيمتها الإيجابية أو السلبيّة علىٰ نية الإنسان ودافعه في كسبها، فإذا أراد الحياة الدنيا للعبادة وأداء الواجب وبالتالي لأجل تكامله فإنّ مثل هذه الحياة وشؤونها تكون ذات قيمة أخلاقية إيجابيّة. وعلىٰ العكس إذا جعل الحياة الدنيا وشؤونها هدفاً وانشغل بها حتّىٰ أنسته الأهداف الكبرىٰ التي ينبغي الوصول إليها كانت ذات قيمة أخلاقية سلبيّة. انّ الحبّ الأصيل للحياة الدنيا وزينتها ليست مذمومة في الأخلاق الإسلامية فحسبُ، بل هي السبب لكلّ خطيئة وانحراف.

وقال في آية أخرىٰ:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2].

فقد اعتبر المال والبنون زينة وجمالاً للحياة الدنيا. وكما تمّ بيانه فانّه يجب مقارنة قيمتها مع القيم الأصيلة والأهداف الأرفع والأفضل.

---

(١) آل عمران ١٤.　　(٢) الكهف ٤٦.

ب ـ في بعض الآيات اعتبر الأموال والبنون نِعماً إلٰهية للبشر، وهذا وحده ليس دليلا علىٰ قيمتها الأخلاقية، ولكنّها من جهةٍ نعمة تمهّد لابداء الإنسان شكره لله تعالىٰ، ومن جهة أُخرىٰ إذاكان استخدامها بدافع التمكن من العبادة وأداء الواجب فستكون ذات قيمة أخلاقية إيجابيّة، كالآية:

﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾[١].

والآية: **﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾**[٢].

ج ـ في بعض الآيات وعد بأنّكم إذا أديتم العمل الفلاني فسوف تكثر أموالكم وأولادكم. من هذا الوعد الإلٰهي يمكن إدراك أنّ التمتع بالمال والبنين وحبّهما ليس سيئا في ذاته.

يقول في إحدىٰ هذه الآيات:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾[٣].

فلو كان للمال والبنين قيمة سلبيّة لم يَعِدِ الله تعالىٰ الناس بمثل هذا الوعد أبداً.

ونقرأ في آية أخرىٰ:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾[٤].

ومع الالتفات إلىٰ أنّ الله عزّوجلّ يقول في الآية الأُولىٰ: استغفروا الله لكي

---

(١) الإسراء ٦.
(٢) الشعراء ١٣٣.
(٣) نوح ١٠ ـ ١٢.
(٤) الفتح ١٨ ـ ٢٠.

يمدّكم بأموال وبنين، ويقول في الآية الثانية: انّ الله سيجعل لهم غنائم كثيرة لأنّهم بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ الأموال والأنفس، وهذا بنفسه شاهد علىٰ أنّ المال والبنين ليس لهما قيمة سلبيّة، والاّ فإنّ الله لم يَعدْ بهذا التعبير ولم يرغّب الناس هكذا بأن استغفروا، أو اتّجهوا إلىٰ الجهاد لكي تكسبوا أموالاً وأولاداً وغنائم.

من اتّجه إلىٰ الجهاد لتحصيل الغنائم فقط وخاطر بنفسه كان قليل الهمة وعُدّ عمله هذا عملاً غير عقلاني. وعليه فإنّ الله لا يتقبّل ذلك كدافع أصلي للحرب، بل قد استثمر هذا العامل لتعزيز الدافع الأصيل لدىٰ المؤمنين للمشاركة في الجهاد، أي يَعد بالغنائم لكي يؤدّي الذين يتحرّكون لله ـ باندفاعهم إلىٰ جبهة القتال ومواجهة العدوّ ـ هذا الفعل بنحو أسرع وبدافع أقوى.

ومن البديهي أن يحبّ المؤمنون ذوو الايمان الوثيق غنائم الحرب أيضاً إذ بها يضاعفون قوة الإسلام واقتداره لينتصروا علىٰ المشركين.

د ـ ورد في عدد من الآيات أنّ بعض الانبياء طلبوا البنين من الله سُبحانه، أو فرحوا بشدة عندما رزقهم ولدا، ويعلم من موقف الانبياء عليهم السلام هذا ـ وهم الأُسوة والقدوة للآخرين ـ أنّ وجود الولد أمر محبّذ وقيّم إجمالاً.

من هؤلاء الانبياء: النبي زكريا عليه السلام الذي وردت قصة حياته في ثلاث سور قرآنية، فقد قال في سورة آل عمران:

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى

مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنْ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنْ الصَّالِحِينَ﴾[١].

وجاء في سورة مريم:

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾[٢].

وجاء في سورة الانبياء:

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[٣].

لقد دعا زكرياعليه السلام ربه أن يرزقه ولداً فرزقه يحيىٰعليه السلام. ينقدح هنا سؤال عن الهدف من طلب الولد؟ هل كان ذلك إبرازاً للميل الطبيعي فحسبُ، أم كان له سبب آخر؟

يستفاد من الآيات أنّه طلب الولد ليرث آل يعقوب ويرفع مشعل الهداية وهّاجاً في هذا البيت، ويكون سلوكه مرضيا عند الله، قال تعالىٰ:

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[٤].

والنبي ابراهيمعليه السلام وزوجه قد فرِحا فرحاً شديداً ببشارة الملائكة بولد لهما، والبشارة الإلٰهية تدل علىٰ حُسن التمتّع بالولد.

هـ ـ في بعض الآيات اعتبر الدعاء للأولاد عملاً محبوباً لدىٰ الانبياءعليهم السلام أو الصالحين، فقد كان نبي الله ابراهيمعليه السلام يذكر ذريته دائماً ويدعو لهم، ويطلب لهم

(١) آل عمران ٣٧ ـ ٣٩.
(٢) مريم ٢ ـ ٧.
(٣) الانبياء ٨٩.
(٤) مريم ٥ و ٦.

خير الدنيا والآخرة من الله عزّوجلّ.

لقد دعا ابراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل عليه السلام عند بناء الكعبة:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

ودعا في موضع آخر:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٢].

ويدعو ابراهيم بقوله:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[٣].

وعندما منحه الله عزّوجلّ مقام الإمامة طلب ذلك لذريته:

﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٤].

وقد دعا ابراهيم عليه السلام للمؤمنين أيضاً، ولكنّه كان يدعو دعاء خاصّاً لذريته ويوليهم رعاية خاصّة، ولم يذمّه الله سُبحانه. وعلىٰ أيّ حال، فإنّ من الفطري أن يكون حبّ كلّ انسان لابنائه أشدَّ وأكثر.

والله سُبحانه يلقّن المؤمنين ويعلّمهم الدعاء لابنائهم حيث يقول:

---

(١) البقرة ١٢٨ و ١٢٩.
(٢) ابراهيم ٣٥.
(٣) ابراهيم ٤٠.
(٤) البقرة ١٢٤.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً..... وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾(١).

و ـ اعتبر الولد الصالح في بعض الآيات نعمة خاصّة وأجراً للعمل الصالح.

وقد حكىٰ القرآن علىٰ لسان ابراهيم عليه السلام:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾(٢).

يستشعر من هذه الآيات أنّ الأنبياء كاسماعيل وإسحٰق ويعقوب كانوا نعمة إلٰهية قد تفضل الله بهم علىٰ ابراهيم أجراً علىٰ هجرته من الوطن وأهله المشركين.

وقال في آية أخرىٰ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٣).

ولعل الرزق بالولد الصالح كاسماعيل وإسحٰق ويعقوب هو مصداق للأجر الدنيوي المذكور في ذيل الآية، سيّما وانّه جعل مجموعتين من انبيائه من ذرية ابراهيم عليه السلام: إحداهما أنبياء بني إسرائيل وكانوا من ذرية إسحٰق، وثانيتهما ذرية اسماعيل التي تنتهي بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال في آية ثالثة:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾(٤).

---

(١) الفرقان ٦٣ و ٧٤.
(٢) مريم ٤٨ و ٤٩.
(٣) العنكبوت ٢٧.
(٤) الأنبياء ٧٢.

ز ـ هناك آيات تنبىء بأنّ الله تعالىٰ سوف يُلحق أبناء المؤمنين الذين اتّبعوا آباءهم في الايمان بهم في الجنة، حيث يقول:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(١).

علىٰ أيّ حال، فإنّ أبناء المؤمنين يدخلون الجنه طبعاً، ولكنّ ما تشير إليه هذه الآية هو مرافقتهم مع آبائهم، وهذه نعمة تضاف إلىٰ نعمة الجنة. من هنا يقول بعد ذلك بأنه لا ينقص من أجر عملهم شيئاً.

أو يقول: **﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**(٢).

بديهي أنّ المراد في هذه الآية هو كالآية السابقة أي مرافقتهم إيّاهم وإنْ لم يستعمل في هذه الآية لفظ الإلحاق.

والحاصل أنّه يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ وجود المال والبنين في ذاته لا قيمه سلبيّة له، وليس من أهداف الإسلام أن يسكن الإنسان كهفاً في هذه الدنيا من دون أبناء، ولا من أهدافه أن يعتزل العمل والسعي لكسب المال والمعاش.

حبّ الأبناء والفطرة

يمكن القول ـ استناداً إلىٰ شواهد ـ انّ حبّ الأبناء أمر فطري، وللناس دوافع مختلفة في تقوية هذا الميل الفطري، ففي المجتمع العشائري يكون الولد مصدراً للاقتدار الأكبر في الإنسان. وفي بعض الموارد يحبّ بعض الناس الولد لكي يكون عوناً عند الشيخوخة والعجز، وأخيراً فإنّ الدافع الآخر هو اعتبارهم الولد امتداداً لوجودهم، أي حينما يلتفت الإنسان إلىٰ انّ حياته ليست أبدية، وسوف

---

(١) الطور ٢١. (٢) غافر ٨.

يموت بلا ريب فانّه يعتبر الولد مرتبة ضعيفة من وجوده، ويرىٰ بقاء ولده بعد موته بقاء له وهذه العقيدة تشعره بالسكينة. ووراء هذه الدوافع المختلفة المذكورة ميل أصيل ومستقل وفطري لوجود الولد في ذات الإنسان، وهذا في رأينا فارق واضح بين دافعَي حبّ المال وحبّ البنين، فحبّ المال ليس أصيلا، بل هو مراد كوسيلة لرفع الحوائج الأخرىٰ، في حين يمكن القول انّ الولد مراد أصيل وتتعلّق به إرادة فطرية مستقلة.

من هنا نلاحظ الذين حُرموا من الولد لا قرار لهم، وهذا النقص يؤلمهم بشدة ويضطرون لتبنّي ولدٍ لهم.

كان التبنّي سنّة سائدة في الكثير من المجتمعات، وقد أشار القرآن الكريم في بعض الموارد إلىٰ هذه السنّة، فقد كان أحد الذين تبنّوا ـ كما يتحدّث القرآن ـ هو عزيز مصر الذي حاول أن يتبنّىٰ يوسف (ع)، قال تعالىٰ:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾[١].

كما انّ زوج فرعون التي لم تُرزق ولداً أقنعته بأن يغضّ النظر عن قتل موسى عليه السلام (أيام رضاعته) لكي يكون لهما ولداً، قال تعالىٰ: **﴿وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾**[٢].

من هذه المضامين يمكن استشعار فطرية حبّ الولد، و لهذا يفكر في اشباعه بالبديل في حالة عدم إشباعه بشكل طبيعي.

---

(١) يوسف ٢١. (٢) القصص ٩.

كسب الأموال والبنين من وجهة النظر الأخلاقية

ما هو حكم اكتساب الأموال والبنين أخلاقيا؟ هل له قيمة إيجابيّة أم سلبيّة؟ يعرف الجواب من ملاحظة الأصول التي أشرنا إليها سابقاً: إذا كان حبّ الأموال والبنين هو المحور فانّه يقتضي الغفلة عن الكمالات المعنوية، وبالتالي يُعتقد بأنّ الأموال والبنين منشأ للقيمة والإستعلاء ويُغفل عن الكمالات الواقعية والمعنوية.

في هذه الحالة المنحرفة التي يفقد حبّ المال وبذل الجهد لاكتسابه موقعهما الأصيل، ويتعارضان مع الكمالات المعنوية والأُخروية للانسان ستكون لهما قيمة أخلاقية سلبيّة.

يحذّر القرآن الكريم الإنسان في الكثير من الآيات من صيرورة البنين والأموال غاية له بحيث تمنعه من تحقيق الأهداف الأصيلة للحياة. ويذمّ الذين يعتبرون الأموال والبنين ملاكا للقيمة، فيقول في قصة طالوت:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

كانوا يعتقدون خطأ انّه ليس أهلا للقيادة لأنّه غير ثريّ. في الحقيقة كانت الأهداف والقيم قد تغيّرت لدىٰ بني إسرائيل لحبّهم المفرط للأموال والبنين حتّىٰ أنّهم اعتبروا المبدأ الأساسي للقيمة والكمال الإنساني هو المال والثروة، واعتقدوا أن من يملك أموالاً أكثر فهو أليَق للحكم.

---

(١) البقرة ٢٤٧.

ومشركوا مكة لم يتحمّلوا النبي ﷺ أيضاً بهذه الذريعة وهي: لماذا لم يخترِ الله نبيّه من بين العظماء أي أثرياء العرب؟

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

فقال الله تعالىٰ في الردّ عليهم:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[2].

انّ الله عزّوجلّ هو الذي قسّم ثروات الحياة علىٰ الناس فأعطىٰ كلّ انسان ما يصلحه، انّ المال في الدنيا ليس سوىٰ وسيلة للاختبار قد قسّمه الله علىٰ الناس علىٰ أساس من المصلحة.

ولكنّ مشركي مكة لتوغّلهم في القيم المادية واعتبارهم المال ملاكاً لعظمة الإنسان وقيمته ظنّوا أنّ النبي يجب انتخابه من بين الأثرياء.

قال في آية أخرىٰ:

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾[3].

هذه الانحرافات الفكرية والقيمية موجودة في المجتمعات المختلفة وتشغل بال بني الإنسان حتّىٰ المؤمنين والعابدين لله عزّوجلّ. كان بنوإسرائيل يعبدون الله ويؤمنون بنبي الله وطلبوا منه تعيين قائد لهم، ورغم ذلك لم يُقرّوا بقيادة طالوت غير الثري، وذلك لحبّهم للمال واعتباره الملاك الوحيد للقيادة.

وفي القرآن ندّد الله عزّوجلّ بشدة بهذه الرؤية حيث قال:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۞ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ۞ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۞

---

(١) الزخرف ٣١. (٢) الزخرف ٣٢.
(٣) الزخرف ٥٣.

كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾[١].

انّ الاعتقاد بأنّ المال يجلب السعادة والخلود للانسان اعتقاد خاطىء تجب مكافحته، قال تعالىٰ عن أبي لهب:

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[٢].

وقال عن الكفار:

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٣].

كان هؤلاء الكفار يعتقدون بأنّ العذاب إذا وقع فانّه يصيب الفقراء والبؤساء، إذ إنّ بيوت الفقراء غير محكمة فهي التي تنهدم لا بيوتهم المحكمة!. انّ الفقراء هم الذين يتعرضون للشقاء والعذاب، وليس الذين يحظَون بمعونات من أبنائهم الكثيرين!

وفي آية أُخرىٰ يضفي علىٰ الثروة قيمة سلبيّة لانّها أصبحت منشأ للتكبر ويذمّ مثل هؤلاء الأثرياء بقوله:

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[٤].

وفي آية أُخرىٰ يضفي عليها قيمة سلبيّة لكونها سبباً للغرور وحبّ الدنيا المفرط بقوله تعالىٰ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾[٥].

مثل هذه الآثار والأعراض تكون منشأ للقيمة السلبيّة للأموال والبنين، ولولا هذه الأعراض لم يتعلّق بهما ذمّ أيضاً، لانّ ذات الأموال والبنين نعمة إلٰهية ويمكن

---

(١) الهمزة ١ ـ ٥.
(٢) المسد ٢.
(٣) سبأ ٣٥.
(٤) القلم ١٣ و ١٤.
(٥) المدثّر ١١ ـ ١٥.

استخدامهما بصورة صحيحة، وإذا اكتُسبا عن طريق مشروع ولأهداف صحيحة كان لهما قيمة إيجابيّة أيضاً.

وسيلتان للاختبار

لقد عارض القرآن الذين اعتبروا الأموال والبنين هدفاً أصيلا في الحياة أو عاملاً لتكامل الإنسان وتقرّبه إلىٰ الله عزّوجلّ، وينظر إليهما كوسيلتين لاختبار الإنسان، يقول القرآن في آية:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾[1].

وعليه فإنّ الأموال والبنين ـ إضافةً إلىٰ انّهما ليسا هدفين أصليّين ـ لا يقرّب امتلاكهما الإنسان من هدفه النهائي وهو القرب الإلٰهي.

يقول القرآن بأنّ الأموال والبنين وسيلتان للاختبار، ويتوقف دورهما في نيل الإنسان لكماله علىٰ الإستخدام الصحيح لهما.

لقد أعلن القرآن موقفه الخاصّ من الأموال والبنين في آيات مختلفة، فيقول في موضع:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

انّ القرآن الكريم يعتبر الأموال والبنين بل كلّ النِعم الدنيوية وسيلة للاختبار. ومن الطبيعي أن تكون وسيلة الإختبار جذابة. فلو لم يحبّ الإنسان الأموال والبنين ولم يأبهْ بهما لم يصبحا وسيلة لاختباره ليُعلم هل يكتسبهما عن طريق صحيح ويصرفهما في طريق صحيح؟ وهل يتنازل عن الأموال إذا لزم ذلك أم لا؟

إذنْ يجب أن تكون الأموال والبنون جذابة لتكون وسيلة لاختبار الإنسان.

---

(١) سبأ ٣٧. (٢) الانفال ٢٨.

وبملاحظة هذه النكتة المأخوذة من مضمون الآية:﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١] نفهم انّه لا تعارض بين الآيتين إطلاقاً. وقد أشار بصراحة إلىٰ هذه العلاقة وطرفيها في موضع واحد من آية أُخرىٰ بقوله:﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢].

ومن جهة أُخرىٰ نلاحظ قوله في بعض الآيات:﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٣]. حيث يشير إلىٰ انّ الإنسان إذا لم تخدعه الجواذب المادية وأفلح في الاختبار الإلٰهي فانّه سينال ما عند الله من أجر عظيم وحياة سعيدة.

وعلىٰ هذا فإنّ المال كما قلنا ليس حسناً في ذاته، كما انّه ليس سيئاً في ذاته، بل انّه حسن إذا كان سلّماً لارتقاء الإنسان ونيله للكمال، كما انّه إذا كان سدّاً ومانعاً من تكامل الإنسان فالواجب هو تركه في هذه الحالة كما يقول تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٤].

أو يقول:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾[٥].

إذنْ تتعلّق القيمة السلبيّة للأموال والبنين بهذا الحبّ المفرط الذي يمنع من بلوغ الكمال المتوخّىٰ، ويصدّ الإنسان عن الأعمال الصالحة ويدفعه لارتكاب القبائح، وقد روي عن المعصوم عليه السلام:

---

(١) الكهف ٤٦.
(٢) الكهف ٧.
(٣) التغابن ١٥.
(٤) التغابن ١٤.
(٥) التوبة ٢٤.

«حبُّ الدُنيا رأسُ كُلِّ خَطيئَةٍ».

والقيمة الإيجابية تكون في ظل الدافع الإلٰهي والإلتزام بالموازيـن الشـرعية الصحيحة في اكتساب المال وإنفاقه واتخاذه وسيلة لنيل القرب الإلٰهي والمنزلة الرفيعة عند الله.

القسم الثالث

٧ـ٣

العاطفة والأحاسيس

مفهوم العاطفة

العاطفة الطبيعية الأوّلية والعاطفة الثانوية

العاطفة الطبيعية

القرآن والعاطفة الطبيعية الإيجابية

العاطفة التركيبية

تأرجح العاطفة الطبيعية

العاطفة السلبية

الآثار المتنوّعة للعاطفة

الحيثيات القيمية للعاطفة

الحزن والسرور

الندم والغضب والرضا

الخوف والأمان واليأس والأمل

عناوين الانفعالات وأبعادها النفسية

الآثار الظاهرية للأحاسيس والانفعالات

القيمة الأخلاقية للأحاسيس والانفعالات

العاطفة والأحاسيس

مفهوم العاطفة

قلنا ان أحد أبعاد وجود الإنسان هو بُعد اللذة والسعادة، فالإنسان يحبّ اللذة فطريا ويسعى لها بمختلف القنوات، وكانت الغرائز إحدىٰ قنوات اللذة التي تـمّ بحثها.

والعاطفة هي النوع الثاني من قنوات اللذة الإنسانية. وما نقصده من العاطفة قد لا يتطابق مع اصطلاحها في علم النفس تطابقاً كاملاً. العاطفة ـ كما نرىٰ ـ هـي الانجذاب النفسي الذي يشعر به الإنسان تجاه انسـان آخـر، ويـمكن تشـبيهه بالعلاقة بين المغناطيس والحديد. فالإنسان في هذه الحالة يشعر بانجذابه نـحو انسان آخر يتعاطف معه.

انّ مفردة (**العطف**) التي هي الجذر لمفردة (**العاطفة**) في قاموس اللغة العربية تستعمل في مفهوم التفات شيء وميله إلىٰ شيء آخر، مع فارق هـو انّ المـفهوم الاصطلاحي لـ(**العاطفة**) الذي نقصده ليس العطف والالتفات المطلق، بل يقتصر علىٰ الموارد التي يكون الإنسان فيها ملتفتاً ومنعطفاً علىٰ انسان آخر وليس أيّ شيء غيره.

للعاطفة الإنسانية جذور مختلفة وتتجلّىٰ في صور متنوّعة. فأساس العاطفة يكون تارةً المنفعة التي تصل الإنسان من شخص آخر، وتارةً اللذة التي يشعر بها من النظر إلىٰ الآخرين، كأن يلتذ من رؤية ذوي الجمال وينجذب إليهم بهذه اللذة، وتارةً ينجذب الإنسان لشخص آخر تلقائياً وإنْ لم يكن جميلاً ولا تصله منفعة منه، بل قد يلحقه الضرر والخسارة بسببه. ففي هذه الحالة هناك شيء آخر غير الجمال والمنفعة يكون منشأً للعاطفة. وعليه ـ استناداً إلىٰ ما قلنا ـ يمكن تقسيم العاطفة إلىٰ مجموعتين أساسيتين.

العاطفة الطبيعية الأوّلية والعاطفة الثانوية

العاطفة الأوّلية هي الانجذاب الذي يشعر به الإنسان تجاه شخص آخر بدون وجود منفعة أو جمال خاصّ، كعاطفة الأم تجاه ولدها، إذ لا تكون المنفعة والجمال واسطة ومنشأ للعاطفة. فالطفل مهما كان دميماً ولا تنتفع به أمه، بل قد يسبّب لها الضرر والخسارة فانّه محبوب لديها، هذا النوع من العاطفة نسميه عاطفة أولية وطبيعية.

العاطفة الثانوية وهي التي يكون المراد فيها شيئاً آخر أساساً. والشخص الذي يُتعاطف معه يكون محبوباً لأنّه واسطة لبلوغ الإنسان إلىٰ ذلك الشيء. فمثلاً يحبّ الإنسان من يحسن إليه الاّ انّ هذا ليس ميلاً طبيعيا، بل انّ الإنسان يحبّ نفسه ومنفعته بالأصالة، ويحبّ الواسطة في منفعته ثانياً وبالعَرض. فالتعاطف بين المعلم والطالب تعاطف ثانوي. إذ رابطة التعليم والتعلّم هي الواسطة لظهور هذا التعاطف، وبدونها لا يسود التعاطف بين المعلم والطالب.

العاطفة الطبيعية

المصداق الواضح للعاطفة الطبيعية هي الآصرة الأُسرّية وأقواها آصرة الوالدين مع الأبناء، وبدرجة أضعف آصرة الإخوة والأخوات. وحتّىٰ أبناء العشيرة الواحدة الذين تربطهم علاقة قرابة بعيدة توجد بينهم علاقة عاطفية، وتضعف طبعاً كلّما تباعدت القرابة.

وقد تكون القرابة البعيدة أحبّ إلىٰ الإنسان من القرابة القريبة لسبب خارجي، الاّ انّ ذلك لا يرتبط بعلاقة القرابة وحدها، وليس من مراتب العاطفة الطبيعية، بل له حيثية ثانوية كأن يحبّ شخص ابن عمه أكثر من عمه، فهذا ليس عاطفة طبيعية، بل له سبب خارجي وهو عاطفه ثانوية، كأن يكون ذا أخلاق خاصّة.

انّ العاطفة الطبيعية الناشئة من القرابة تكون أقوىٰ كلّما قصرت واسطة القرابة، وتضعف كلّما تعدّدت الواسطة.

القرآن والعاطفة الطبيعة الإيجابية

يمكن استشفاف العلاقة العاطفية المذكورة من عدة آيات في القرآن الكريم، منها الآيات التي تتحدّث عن قصة أم موسىعليه السلام. فعندما ولد موسىعليه السلام وضعته أمه بوحي إلٰهي في صندوق وألقته في نهر النيل، والآيات القرآنية تشير في موضعين إلىٰ انّها كانت قلقة ومضطربة جدّاً. قال في موضع:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١].

---

(١) القصص ١٠ و ١١.

وقال في موضع آخر:

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[1].

هذه العبارة أُوحيت إلىٰ موسى مع عبارات أُخرىٰ في الوادي الأيمن، وجاءت عبارة شبيهة لها مع فارق طفيف في سورة القصص، هذه الآيات تحكي بوضوح عن التعاطف بين الأم والولد، ووجود هذه العاطفة ملحوظ من خلال اضطراب أُمّ موسى وقلقها والحزن علىٰ فقده، وسرورها وقرّة عينها بعد رجوعه.

علىٰ أيّ حال، فإنّ العاطفة والرابطة بين الأم والولد أمر طبيعي جدّاً، وتوجد بين كلّ أم وولدها مهما كان.

ومن الممكن أيضاً أن تقوم بعض الأسباب الخارجية بتضعيف هذه العاطفة أو إزالتها، ويوجد في التأريخ أشخاص قتلوا أبناءهم أو وأدوهم، الاّ انّه انحراف عن الفطرة ويحصل في ظل بعض الظروف البيئية والاجتماعية أو النفسية، في حين يكون الميل الطبيعي والفطري لأيّ أب وأم هو الأُنس بأبنائهم ومحبّتهم.

وتستفاد العاطفة الأبوية من بعض الآيات القرآنية، منها ما حكاه القرآن في قصة نوحعليه السلام فحينما وقع الطوفان وكاد الناس يهلكون خاطب نوحعليه السلام ابنه:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾[2].

فدعوة نوح ابنه هي غير دعوته للناس، حيث دعاهم للدين سنين طوالاً دامت أكثر من تسعمائة عام الاّ انّهم عارضوه وناوؤه حتّىٰ يئس منهم.

ولكنّه حينما رأى ولده يغرق رغم يأسه من دعوة الناس دعته العاطفة الأبوية

---

(١) طه ٤٠.

(٢) هود ٤٢.

ليطلب من ابنه بإلحاحٍ الابتعادَ عن الكفار وركوب السفينة مع المؤمنين.

ومرة أُخرىٰ حينما رأى ابنه يغرق في الماء دعا ربه لينجيه:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾(١).

ربِّ انك وعدت بنجاة أهلي وهذا ابني وهو من أهلي فأجاب الله نوحاً:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(٢).

انّ نوحاً في هذه التعابير قد أولىٰ التفاته الخاصّ لإنقاذ ابنه أكثر من إنقاذ جميع الناس، مما يشير إلىٰ عاطفته الأبوية الخاصّة، أي العاطفة الطبيعية التي يمتلكها كلّ والد تجاه ولده بعيداً عن أيّة خصوصية.

وفي المقابل يشعر الابن بهذه العاطفة تجاه والده، ويشير القرآن إلىٰ ذلك، ففي قصة ابراهيم عليه السلام والحوار الذي جرى بينه وبين أبيه الذي تبناه (آزر) قال الأب: ابتعد عني، فاجابه ابراهيم عليه السلام:

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾(٣).

وهذا هو الوعد الذي وعده ابراهيم عليه السلام وجاء في القرآن أيضاً:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(٤).

إذ إنّ عاطفة البنوّة هي التي دفعت ابراهيم عليه السلام لاتخاذ هذا الموقف من الأب الذي أبعده، فيسلّم عليه ويدعو له ويطلب له المغفرة والعفو من الله تعالىٰ.

---

(١) هود ٤٥.
(٢) هود ٤٦.
(٣) مريم ٤٧.
(٤) التوبة ١١٤.

لا شك انّ ابراهيم عليه السلام لم يدعُ لعبدة الأصنام الآخرين ولم يعِدهم بالإستغفار، الاّ انّه وعد هذا الشخص الذي يرتبط معه أسريّا، وهذا مؤشر علىٰ رعايته الخاصّة به، ولو كان والده الحقيقي لكانت هذه العاطفة أشدّ وأقوىٰ بنحو أولىٰ.

العاطفة التركيبية

هناك حيثيات خاصّة تستوجب مودة أشدّ بين أعضاء الأُسرة، وهي في الواقع حيثيات ثانوية للعاطفة تنضّم إلىٰ هذه الحيثية الطبيعية الأوّلية، كأن يكون الابن صالحاً ومؤدباً وعالماً وعابداً ومحسناً وجميلاً، أو يعتني بوالديه ويخدمهما أكثر من سائر الأبناء، فمثل هذا الابن يحظىٰ بعطف الوالدين ومودتهما بنحو يفوق سائر الأبناء قطعاً.

في هذه الموارد تكون الخصوصيات والضمائم الخارجية سبباً لتقوية العاطفة الأُسرية الطبيعية، وتكون العاطفة هنا تركيبا من العاطفة الطبيعية الأوّلية والعاطفة الثانوية.

نقرأ في القرآن الكريم انّ النبي يعقوب عليه السلام كان يُضمر ليوسف عليه السلام حبّاً شديداً. حيث كانت خصال يوسف وكمالاته سبباً لاشتداد حبّ الوالد وعاطفته الطبيعية حتّىٰ حسده أخوته واستعدوا لالقائه في البئر. قالوا فيما بينهم: رغم كوننا شبابا ذوي قوة أكبر وعمل أكثر فإنّ يوسف وأخاه أحبُّ لدىٰ أبينا. قالوا:

انّ أبانا علىٰ ضلال بحبّه يوسف أكثر منا، وأخيراً ألقَوه في البئر.

انّ حبّ يعقوب ليوسف كان شديداً إلىٰ درجة انّه دام بكاؤه علىٰ فراقه حتّىٰ عميت عيناه، وعندما وجد الأخوة يوسف في مصر بعد سنين وجاؤوا ليخبروا يعقوب بحياة يوسف ويكشفوا عنه الغمّ اطّلع علىٰ ذلك قبل وصول القافلة والخبر، وذلك لشدة العلاقة والعاطفة الأبوية، وقال: انّي أشمُّ رائحة يوسف.

علىٰ أيّ حال، فقد كان يعقوب يحبّ يوسف حبّا جماً فـاق العـلاقة الأبـوية الاعتيادية وفوق علاقته مع سائر الأبناء، وذلك لكمالات خاصّة في يوسف. إذنْ كانت هناك عدة عوامل وراء ذلك: أحدها عامل العلاقة الأبوية الطـبيعية وهـي مشتركة بين جميع الأبناء. ثانيها: كمالات يوسف الخاصّة وكـانت هـي المـنشأ للعاطفة الثانوية، وكانت عاطفة يعقوب تجاه يوسف عاطفة تركيبية.

تأرجح العاطفة الطبيعية

ليست هذه العاطفة التي تتوفّر في بني الإنسان طبيعياً ذات مستوىٰ واحد، بل تتصف بالشدة والضعف حسب البعد أو القرب في الانتساب الأُسري، فتكون في كلّ انسان هي الأقوىٰ والأشد بالنسبة للابناء والوالدين إذ هم أقـرب مـن بـين أعضاء الأُسرة، وكلّما ابتعد هذا الانتساب كانت الأواصر العاطفية أضعف حـتّىٰ نصل إلىٰ أدنىٰ وأضعف آصرة عاطفية طبيعية أولية، وهي التي نشعر بها تجاه أي انسان من أيّة قومية ومهما كان بعيداً عنا.

هذه العاطفة التي تكون بإزاء كلّ انسان في أوسع نطاق لها تكون ضعيفة وذات لون باهت، ولكنّ في بعض الظروف الإستثنائية كأن يكون الإنسان حائراً ووحيداً في صحراء لمدة، ولم ير أيّ انسان فانّه يكون موضع اهتمامه بوضوح، فإذا وقع بصره عليه فكأنّه وجد ضالته وسرعان ما يأنس به، وإنْ لم تكـن هـناك مـنفعة وعلاقة أُسرية خاصّة.

العاطفة السلبيّة

يطرح هنا سؤال: هل هناك عاطفة طبيعية سلبيّة كما تـوجد عـاطفة طـبيعية إيجابيه؟ وهل يشعر الإنسان بالنفور من أناس أو انسان آخر بلا علة خارجية؟

في الإجابة نقول: لا يمكن إثبات وجود عاطفة طبيعية سلبيّة في الإنسان، ولا يمكن القول: كما توجد عاطفة طبيعية إيجابيّة بين الوالد والولد فإنّ هناك عاطفة طبيعية سلبيّة في الإنسان تجاه بعض بني الإنسان. إذ لا تثبتها تجربة ولا يمكن الاطلاع علىٰ وجودها من خلال القرآن الكريم.

في العاطفة الثانوية طبعاً يوجد نوع سلبي وهكذا إيجابيّ، لانّ العاطفة الثانوية تنشأ في روح الإنسان بصورة غير مباشرة وبتأثير من العوامل الخارجية، والعوامل المختلفة تكون منشأ لحدوث عواطف مختلفة، فبعض العوامل توجِد العاطفة الإيجابية، بينما توجِد العوامل الأُخرىٰ العاطفة السلبيّة والكدورة والنفور والعداء والحقد.

انّ جذور وأساس العاطفة الثانوية ترجع إلىٰ أن يكون شخص واسطة لتحقيق رغبات الإنسان، أو عاملاً علىٰ فقدانها، وبالتالي تنشأ في نفس الإنسان عاطفة ثانوية إيجابيّة وسلبيّة. فمثلاً يحبّ الإنسان العلم ويريد المأكل والملبس والسكن ويكون المال مراده بصورة غير مباشرة لرفع حوائجه الأوّلية كالمأكل والملبس، فإذا قام شخص بتوفيرها له وكان واسطة لنيل هذه المتطلّبات الإنسانية فانّه تتعلّق به عاطفته الإنسانية الإيجابية.

وعلىٰ العكس، لو كان شخص سبباً لحرمان انسان من إحدىٰ رغباته والأمور القيّمة المذكورة فانّه سيكون موضعاً للعاطفة الإنسانية السلبيّة، لأنّه أصبح واسطة لفقدان رغبات الإنسان.

الآثار المتنوّعة للعاطفة

هل ينحصر أثر العواطف في لذة النظر إلىٰ شخص آخر واللقاء به وصحبته أم هناك آثار إضافية أخرىٰ؟

نقول في الإجابة: لا تنحصر آثار العواطف فيما ذُكر، فقد لا يلتذ انسان في

الحالة الاعتيادية من لقاء شخص أو صحبته أبداً، ولكنْ يوجد أثر آخر يحكي عن وجود عاطفة تجاهه، إذ إنّ هذا الشخص الذي لا نشعر بعاطفة تجاهه في الحالة الاعتيادية حينما يمرض أو يواجه مشكلة أُخرىٰ نحس بشعور مماثل ونتألم لألمه، ونستعد برغبة تامة علىٰ إعانته قدر المستطاع. انّ هذا أثر آخر يشير إلىٰ وجود مرتبة أُخرىٰ من العاطفة الإنسانية.

انّه الشعور الذي يكنّه الإنسان تجاه الآخرين من بني الإنسان وحتّىٰ الحيوانات. فعندما يطّلع الإنسان علىٰ موجود آخر ذي شعور ومدرك للألم واللذة فانّه يضع نفسه موضعه عندما يبتلىٰ ويتألم لألمه ويُقدم علىٰ مساعدته.

انّ ذلك ميل طبيعي وعاطفة إلٰهية، وكان من الممكن أن يخلق الله عزّوجلّ الإنسان بنحو يحبّ فيه الآخرين دون أن يتألم أو يتأثّر لما يلاقونه من آلام ومشاقّ.

الاّ انّ الله سُبحانه قد منحه حسَّ الرحمة والشفقة فيشعر به في نفسه تجاه بني الإنسان والحيوانات المتألمة، مع فارق انّ هذه العاطفة لها ارتباط خاصّ مع الإدراك والشعور لدىٰ الموجود الذي يعطف عليه، ولذا تكون هذه العاطفة تجاه الإنسان أقوىٰ من الحيوانات، ومن بين الحيوانات أيضاً تشتد عاطفة الإنسان تجاه الحيوان الذي يحظىٰ بادراك وشعور أقوى، وكلّما كانت الحياة فيه أضعف كان حس الشفقة والرحمة لديه أضعف حتّىٰ نصل إلىٰ موجودات حية ذات أدنىٰ مراتب الحياة حيث يشعر الإنسان في نفسه بأدنىٰ درجات العاطفة تجاهها.

انّ الحيوانات التي لها نوع احساس متبادل مع الإنسان تكون موضعا للشفقة والعواطف الإنسانية بنحو أكبر. فبعض القطط تأنس مع الإنسان ويأنس الاطفال معها بشدة أيضاً، وفي المجتمعات الغربية يوجد من يحبّ كلبه أكثر من أطفاله!،

والسبب هو انّ هذه الحيوانات لها مشاعر مشتركة تجاه الإنسان، وتبدو منها حالات يفهم الإنسان منها أنها تبادله الحبّ، فيقيم معها علاقة عاطفية متبادلة. وأمّا الموجودات الحية الأُخرىٰ نظير الصراصر والدود وأشباهها والتي لا يفهم الإنسان منها مثل هذه الحالة فانّه لا يشعر في نفسه بمثل هذه العاطفة إزاءها، ومع ذلك فانّه يتألم إذا رأىٰ هذه الموجودات عديمة الاحساس تتأذى بدون وجه.

وهذا هو نوع من العاطفة الإنسانية ويمكن القول: من الكمال أن يمتلك الإنسان مثل هذه العاطفة، فقد كان من أخلاق الانبياء وأوليـاء الله أن لا يؤذوا أيّ موجود ذي روح، وكانوا يجتنبون أيّ ايذاء لهم.

انّ أصل هذه العاطفة أمر فطري الاّ انّ وجودها لا يكون بمستوىٰ واحد لدىٰ الجميع، بل يشتد ويضعف في أفراد الإنسان حسب الظروف التربوية المختلفة والبيئات المتنوّعة.

وفي مقابل الكمّل من بني الإنسان المذكورين هناك أشخاص لا يتألمون ـ بفعل الظروف التربوية الخاطئة ـ لايذاء بني الإنسان أو الحيوانات، ليس هذا فحسبُ بل يودّون ايذاء الإنسان أو الحيوانات ويلتذون من مشاهدة ذلك، وهذا انحراف عن الفطرة الإنسانية الطاهرة والأصيلة.

لقد اعتبر بعض فلاسفة الغرب الإنسان ـ برؤية تشاؤميّة خاصّة ـ موجوداً ظالماً يحبّ ايذاء الآخرين، ولكنْ ينبغي الالتفات إلىٰ انّ الإنسان في ذاته لا يشعر باحساس وعاطفة سلبيّة تجاه أيّ موجود، فالعاطفة السلبيّة مهما كان نوعها أمر عارض وتبدو في روح الإنسان نتيجةً لعوامل خارجية قد ذكرناها كعاطفة ثانوية في هذا المقال، انّها العاطفة التي توجدها البيئة والثقافة والتربية والعُقد الشخصية.

الحيثيات القيمية للعاطفة

الآن وبملاحظة ما قلنا فإنّ تشديد العاطفة الفطرية وتضعيفها أمر اختياري، فبوسع الوالدين والمعلم والإنسان نفسه أن يكون لهم تأثير في توجيه العاطفة وتشديدها وتضعيفها وانبعاثها وتربيتها وفق المبادىء الصحيحة والتأثير علىٰ تنميتها أو قمعها.

من هنا تدخل العاطفة ـ وإنْ كانت في أصلها فطرية وغير اختيارية ـ في نطاق الأخلاق والأمور القيمية في ضوء هذه الأبعاد الاختيارية، ومن الجدير أن ندرسها ونبحث بشأنها من هذه الزاوية.

بملاحظة ما قلنا يطرح هذا السؤال: وفق الرؤية الإسلامية ما هو واجب الإنسان تجاه عاطفته وعواطف ابنائه وتلاميذه؟ في الإجابة يجب القول: انّ القاعدة العامّة التي اتّبعناها لحدّ الآن هي انّ تقييم سلوك الإنسان وصفاته ذو ملاكات متعارضة. فإذا لم يكن لاشباع غريزة أو تشديدها أيّ تأثير علىٰ سائر أبعاد الإنسان الوجودية ففي هذه الحالة ليس له قيمة إيجابيّة ولا سلبيّة، بل يكون أمرا طبيعيا.

يمكن القول هنا: انّ لتعميق العاطفة درجةً من القيمة إجمالاً وإنْ لم يكن في الرؤية الإسلامية كافيا وبالغاً حدّ النصاب. لقد توصلنا إلىٰ هذه النتيجة في (فلسفة الأخلاق) وهي أنّ القيمة ذات نصاب معيّن لا يعتبر الإسلام مادونه ذا قيمة أساسية. فالنصاب القيمي للعمل في الإسلام هو أن يقوم الإنسان بأعماله بدافع الٰهي ليبلغ بها إلىٰ حدّ النصاب للقيمة، ولكنّه توجد مرتبة أدنىٰ من ذلك، ولها القابلية ان تعدّ الإنسان لكي يقوم بأعماله بالدافع المطلوب إلىٰ أن تصبح أعماله متمتّعة بنصاب القيمة.

وعليه فإنّ الأعمال التي تتمتع بالنصاب المعيّن للقيمة توصل فاعلها إلىٰ السعادة الأُخرو ية، والأعمال التي لها قيمة أدنىٰ فانّها تمهّده للبلوغ بقيمة أعماله إلىٰ حدّ النصاب.

فمثلاً يكون للسخاء مثل هذه القيمة، فانّه في ذاته لا يُدخل الإنسان الجنة، ولكنّه يخفف من عذاب السخي لانّ شرط الدخول في الجنة هو الايمان بالله عزّوجلّ. والأخلاق والسلوك الصادر عن الايمان بالله هو الذي يمهّد لسعادة الإنسان في الجنة.

(**العاطفة**) التي نبحث بشأنها هنا هي كالسخاء وتتمتع في ذاتها بقيمة أدنىٰ من حدّ النصاب، فمثلاً حينما يشاهد الانسان حيواناً جريحاً وجائعاً فانّه يشفق عليه ويفكّر في تهيئة الماء والطعام له ومعالجته، فإذا قام بهذا العمل لله تعالىٰ وعن إيمان كان في حدّ النصاب للقيمة، ولكنْ إذا لم يكن مؤمنا فإنّ عمله ذو نوع من القيمة والحُسن، ولعل مثل هذه الخصلة تقرّبه من الله تعالىٰ وتوفّقه للايمان.

ولدينا شواهد عديدة في الآيات والروايات علىٰ انّ حالة الرأفة والرحمة محبّذة عند الله تعالىٰ، فقد أثنىٰ الله في القرآن علىٰ أتباع النبي عيسى عليه السلام لما فيهم من رأفة ورحمة حيث قال:

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[1].

وقد ورد في الروايات انّ الشفقة والأهتمام بحيوان جائع وعطشان قد ينجيان الإنسان، وقد يستوجب ايذاء الحيوان عذاب النيران.

روي انّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقبّل الحسن والحسين عليهما السلام فقال عُيَينة (وفي رواية الأقرع بن حابس) ـ لانّ تقبيل الولد لم يكن مألوفاً ويعتبر عملاً غير لائق بين

---

(١) الحديد ٢٧.

العرب ـ: انّ لي عشرة ما قبّلت واحداً منهم قطّ، فقال النبي ﷺ: من لا يَرحم لا يُرحم. وفي رواية: فغضب رسول الله ﷺ حتّىٰ التَمع لونه وقال للرجل: انْ كان الله قد نزع الرحمة من قلبك فما أصنع بك؟[١].

انّ فقدان العاطفة والرأفة تبعد الإنسان من الكمالات الإنسانية، وعلىٰ العكس فإنّ العطف والرحمة تقرّب الإنسان من الكمال. وقد جاء في الروايات انّ من يحبّ ولده فإنّ الله سُبحانه يرحمه علىٰ هذه الخصلة وينجيه من العذاب.

انّ بعض المذاهب الأخلاقية في الغرب تعتبر المودة والرحمة ذات قيمة مطلقة وأساساً لجميع القيم، سيّما انّ أخلاقيات النصارىٰ تؤكّد بشدة علىٰ هذه القضية وإنْ لم يكونوا كذلك عمليّاً، الاّ انّ إعلامهم الواسع يدعو الإنسان إلىٰ بذل الحبّ للجميع.

وفي الرؤية الإسلامية ليس للعاطفة قيمة مطلقة، بل انّ قيمتها تستند إلىٰ ملاكات أخرىٰ، ويستفاد من الآيات والروايات وجوب ضبط العاطفة، وإذا تعارضت مع قيم أُخرىٰ فلا يمكن ترجيحها في كلّ مورد، بل يلزمنا معالجة الإفراط في العاطفة وإرشادها والسيطرة العقلية عليها.

في القرآن الكريم يأمر الله سُبحانه المسلمين عند إقامة الحدّ علىٰ الزاني أو الزانية:

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنتمّ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٢].

فحينما يرىٰ الإنسان انساناً آخر يتعرض للأذىٰ وتهدر كرامته يتألم إلىٰ درجة انّه قد لا يوافق علىٰ اقامة الحدّ الإلٰهي إشفاقا عليه، أو يعتقد بابداء المزيد من اللين

(١) بحار الأنوار ج٤٣ – ٢٨٣.
(٢) النور ٢.

والتخفيف من القيود، كأن يُقام عليه الحدّ في الخلوة وبعيداً عن أنظار الناس، ولكنْ لابدّ من الالتفات إلىٰ انّ الشفقة والعاطفة الإنسانية هنا تتعارض مع مصلحة أقوى. في مثل هذه الموارد يكون اتّباع العاطفة بمثابة إطلاق عنان الغرائز والشهوات المنفلتة ويسوق المجتمع نحو مستنقع الفساد والمعاصي، ويهدّد الجيل البشري والأعراض والكرامة لدىٰ الجميع.

في مثل هذه الموارد لا يبقى مجال للتعاطف عند وجود مصلحة معارضة أقوىٰ. من هنا يأمر الله سُبحانه بعدم الرأفة بأهل الزنا. فالموقف يقتضي ضبط العاطفة.

وفي آيات أُخرىٰ يحذّرنا الله عزّوجلّ من المودّة وإبداء المحبّة مع أعدائنا، ويرغّب في التصدّي لهم والتعامل معهم بغلظة، وهذا ما سيتمّ البحث بشأنه تفصيلاً في قسم الأخلاق الاجتماعية.

خلاصة القول: نستنتج من الآيات والروايات المذكورة انّ العاطفة وإنْ كان لها في ذاتها نوع من القيمة، ولذا بوسعها أن تزيد الإنسان توفيقاً وتخفّف من عذابه وعقابه، الاّ انّ قيمتها ليست مطلقة أولاً، بل انّ ملاكات أُخرىٰ تمثّل الأساس لقيمتها، وثانياً انّ قيمتها ليست في حدّ نصاب القيمة الإسلامية لأعمال الإنسان وسلوكه لكي تكون في ذاتها منشأً للسعادة.

أمّا البُعد الأخير الملحوظ لروح الإنسان في الأُطروحة المقترحة فهو بُعد الأحاسيس والانفعالات. هذا البُعد مع كونه أكثر سطحية من الأبعاد الوجودية الأُخرىٰ للانسان فانّه أوسعها. أي بما انّه يتأثّر بسائر الأبعاد الوجودية للانسان ويُبدي آثاره وأعراضه الظاهرية والشاملة علىٰ صورة عبوس الوجه أو البشاشة أو الانعزال والمعاشرة أو الكسل والنشاط ونظائرها فانّنا نراه أكثر سطحية من الأبعاد الأخرىٰ.

وعليه فإنّ الانفعال حالة محسوسة لها جذور في أعماق النفس **والروح** الإنسانية، ويمكن تشبيهها بتغيّرات الأغصان والأوراق الناشئة من تغيّرات الجذور.

من جهة أُخرىٰ بما انّ الانفعالات تنشأ بتأثير كلّ بُعد من الأبعاد الروحية، **ولا** يكون كلّ غصن مستقلا عن الأغصان الأُخرىٰ فانّه يمكن القول: انّ سعة **هذا البُعد** هي أشمل من الأبعاد الوجودية الأُخرىٰ للانسان. انّ الأحاسيس والانفعالات ذات شُعب وفروع متعدّدة وآثار وظواهر متنوّعة نوضح هنا عدداً منها:

الحزن والسرور

حينما يريد الانسان شيئاً ـ قد يرتبط بأيّ واحد من الأبعاد الإنسانية السابقة ـ فانّه يشعر بحالة هي (**السرور**) انْ تحقّق مراده، وإنْ لم يتحقّق أو فقَد ما يملكه فانّه يشعر بحالة أُخرىٰ هي (**الحزن**) و(**الغمّ**).

ولذا فإنّ الانفعالات النفسية لا تختص بأحد الأبعاد الوجودية للانسان، بل لو لاحظنا أيّ واحد من المتطلّبات السابقة ـ المتعلّق بأيّ بُعد من الأبعاد الإنسانية ـ فإنّ نيله أو فقدانه يمهّد لحصول السرور والحزن في روح الإنسان.

فمثلاً: يحبّ الإنسان حياته وسلامته، فإذا أحس بأنّه سيفقد حياته وسلامته فانّه يشعر بالحزن والغمّ، وعلىٰ العكس إذا استرجع المريض أو المهدّد بالموت سلامته أو التفت إلىٰ زوال الخطر عنه فانّه يشعر بـ(**السرور**).

والإنسان يحبّ (**الاقتدار**) أيضاً، فإذا أحس بزوال قدرته وانّه سيكون عاجزا فانّه سوف يحزن، وعلىٰ العكس إذا اكتسب القدرة فاقدُها فانّه يشعر بـ(**السرور**).

وهكذا الإنسان الذي يـحبّ (**الأمـوال**) و(**البـنين**) يـحزن لفـقدها ويـفرح باكتسابها.

النماذج المذكورة شاهد واضح علىٰ ما ادعيناه سابقاً من انّ الانفعالات النفسية كـ(**الحزن والفرح**) ذات دائرة أوسع وتشمل جميع الأبعاد والميول الإنسـانية وتتأثّر بها جميعاً.

الندم والغضب والرضا

تترتّب آثار علىٰ تحقّق مراد الإنسان أو فقدانه حسب خصائصه وإضافاته أو عوامله المختلفة نذكرها علىٰ التوالي تحت عناوين خاصّة: فما يريده الإنسـان تارةً يتحقّق أو يزول بفعل منه، ويكون الآخرون واسطة لنيل مراده أو فقدانه تارةً أخرىٰ.

فإذا كان الإنسان نفسه هو السبب لخسارته واستوجبت أعماله فقدان مـراده فانّه يشعر بحالة نطلق عليها (**الندم**). وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ النـدم ليس شـيئاً سوىٰ (**الغمّ**) الاّ أنّ له ميزة خاصّة، وهي أن يـمهّد الإنسـان بـنفسه واخـتياره وأعماله لفقدان ذلك المراد وعروض هذه الحالة.

ولكنْ إذا كان شخص آخر هو السبب لفقدان هذا المراد فستنشأ حالة تسمىٰ (**الغضب**). إذنْ للغضب والغمّ أصل واحد، ولكنْ يمتاز الغضب بأنّ شخصا آخر أصبح واسطة للخسارة وعروض هذه الحالة. ولو أصبح شخص آخر واسطة لنيل الإنسان مراده فانّه سيشعر بالسرور والرضا من ذلك الشخص.

الخوف والأمان واليأس والأمل

إذا كان فقدان المراد مرتبطا بالمستقبل القريب أو البعيد فنتيجةً للـتفكير فـي

الخسارة التي يمكن أن تلحقنا في المستقبل تنشأ فينا حالة نسميها (**الخوف**) **وفي** المقابل إذا علم الإنسان بعدم وجود خطر يهدّده في المستقبل فانّه سوف يشعر بحالة نسميها(**الأمان**) و(**الاطمئنان**).

وإذا توقع الإنسان نيل بعض رغباته أو دفع خسارة عنه في المستقبل فـانّه سيشعر بحالة تسمىٰ (**الرجاء**) و (**الأمل**) وعندما يطمئن بأنه سوف لا يصل إلىٰ مراده في المستقبل، أو لا تجبر خسارته فانّه سيشعر بحالة تسمىٰ (**اليأس**).

وعليه يمكن القول: انّ سعة المفاهيم في هذا الباب تكون لجهتين: إحداهما هي انّها تشمل رغبات الإنسان كافة، وتعم حبّ الذات والكمال والعلم والاقتدار وأنواع اللذّات، ويستتبع تحقّقها وعدمه ألواناً من الأحزان والأفراح.

ثانيتهما انّ الاختلاف في الاضافات والحيثيات كالزمان الماضي أو المستقبل، أو الاختلاف في نسبة الفعل للانسان نفسه أو فاعل آخر يستوجب تنوّع الانفعالات ويُنتزع مفهوم خاصّ من كلّ واحد منها بما يتناسب معه.

فمثلاً لنلاحظ حالة الإنسان لدىٰ فقدان ولده، فهي (**الغمّ والحزن**) بالنسبة للماضي، و(**الخوف**) بالنسبة للمستقبل.

فإذا كان الإنسان هو السبب فانّه سيشعر بـ(**الندم**)، ويشعر بـ(**الغضب**) إذا كان الغير هو السبب في فقدانه. في الموارد المذكورة كافة يكون موت الولد هو المتعلّق للحالات والانفعالات النفسية، ولكنْ بملاحظة الازمنة والنسب المختلفة ستنشأ حالات متنوّعة وردود فعل متعدّدة.

عناوين الانفعالات وأبعادها النفسية

ذكر في القرآن الكريم العديد من الأحاسيس والانفعالات الإنسانية بعناوين

مختلفة أهمها: الفرح والسرور والحبور والمرح والبطر من جهة، ومفاهيم الحزن والأسىٰ والأسف وضيق الصدر والبخوع والندامة من جهة أخرىٰ. وكذا مـفهوم الرضا وكظم الغيظ من جهة، ومفاهيم السخط والغضب والكراهة والغيظ من جهة أخرىٰ، وهكذا مفهوم الخوف والخشية والشفقة والرهبة والوجل المترادفة تقريبا، ومفاهيم الأمن والسكينة واطمئنان القلب وهكذا مفهوم الرجاء في مقابل اليأس والقنوط والإبلاس.

الآثار الظاهرية للأحاسيس والانفعالات

انّ الآثار الجسمية للسرور وانشراح النفس هي البشاشة والابتسام والضحك، والآثار الجسمية للغمّ والحزن هي العبوس والانعزال والكآبة والبكاء. وفي بعض الموارد طبعاً يبكي الإنسان شوقاً وفرحاً.

يمكن البحث عن الآثار الجسمية والظاهرية للأحـاسيس والانـفعالات فـي القرآن الكريم تحت عناوين مختلفة من قبيل: الضحك والإستبشار والإسفار وقرّة العين.

وفي قِبالها مفاهيم من قبيل: البكاء والعَبُوس وقَمطرير وغبْرة ومُغبرّة وكالِحون أو الجزع بمعنىٰ عدم التحمّل في مقابل الصبر والحلم والإستعجال المستعمل في مورد الخوف من فوت المنفعة، هذه ونظائرها من المفاهيم الأخلاقية التي تُنتزع من الالتفات إلىٰ الانفعالات النفسية وردود الفعل تجاه الحوادث.

القيمه الأخلاقية للأحاسيس والانفعالات

ما هي قيمة الأحاسيس والانفعالات من الناحية الأخلاقية؟

الجواب: انّ هذه الحالات حيادية، وليس لها قيمة أخلاقية إيجابيّة أو سلبيّة مادامت غير اختيارية.

في طبع كلّ انسان أن تنتابه حالة (الخوف) حينما يداهمه الخطر. هذه حالة طبيعية في مثل هذا الوضع ويشعر بها الإنسان دون اختيار، وأن يفرح حينما ينال مراده، وهذه حالة طبيعية اُخرىٰ يشعر بها الإنسان وهي خارجة عن اختياره أيضاً، وقد نسب القرآن الكريم ـ في آيات عديدة[1] ـ هذه الحالات إلىٰ الانبياء أيضاً.

هذه الحالات مادامت انفعالات طبيعية وقهرية فانّها لا تُعدّ فعلا أخلاقيا، وليس لها قيمة إيجابيّة أو سلبيّة ولا تقبل الثناء أو الذمّ. ولكنّ ردود الفعل التي يبديها الإنسان عقيبها بما يتناسب معها تكون اختيارية، وعليه فانّها تدخل في نطاق الأخلاق فتكون ذات قيمة إيجابيّة أو سلبيّة وقابلة للثناء أو الذمّ.

هذه الحالات كحالات الإدراك الاُخرىٰ فانّها تتحقّق حينما يطّلع الإنسان ويلتفت إلىٰ موردها أو عاملها الخارجي. انّ الالتفات إلىٰ هذا العامل الخارجي يكون دفعيا وغير اختياري تارةً كأن يقع بصره علىٰ أسد مفترس مستعد للانقضاض عليه فانّه سيهابه دون اختيار.

ويكون الالتفات إلىٰ العامل الخارجي للخوف باختيار الإنسان تارةً أخرىٰ، كأن يطّلع ـ بتفكيره وبحثه وتحليله الاختياري ـ علىٰ وجود عامل يهدّده.

يكون الاطلاع علىٰ عامل الخوف في الصورة الاُولىٰ غير الاختيارية خارجا عن نطاق الأخلاق، في حين يدخل فيه في الصورة الثانية ويكون موضوعا للقيمة الأخلاقية ومورداً للثناء والذمّ.

---

(١) راجع الآيات: هود ٧٠ والنمل ١٠ والقصص ٣١ والذاريات ٢٨ وص ٢٢.

كأن يفكّر الإنسان في العظمة الإلٰهية وعظمة الكون والإنسان، ويلتفت إلىٰ الغضب الإلٰهي والعذاب الأُخروي فتحدث في نفسه حالة **(الرعب والخوف)** طبعاً. مثل هذا الخوف ـ بملاحظة حصوله بمقدمات اختيارية ـ يكون اختياريا، وفي هذه الصورة لا تدخل آثار الخوف فحسبُ، بل الخوف ذاته وعوامله أيضاً ـ لانّها اختيارية ـ في نطاق الأخلاق وتكون موضوعا للقيمة الأخلاقية.

أو كأن يفكّر الإنسان بشيء يستدعي **(الأمان)** له، فهذه الحالة اختيارية أيضاً تحصل بمقدمات اختيارية. وفي بعض الموارد أيضاً حيث يحصل **(الخوف)** أو **(الأمان)** بنحو قهري وغير اختياري ولكنْ يمكن أن يكون استمراره اختياريا، كما انّ عكسه ممكن أيضاً.

وعليه فإنّ للاختيار والعوامل الاختيارية دوراً أساسياً في حدوث أو بقاء هذه الحالات والانفعالات النفسية أو حدوثها وبقائها معاً من جهة وفي تضعيفها أو هدايتها وتوجيهها من جهة أخرىٰ.

انّ الأحاسيس والانفعالات النفسية ـ لتأثّرها بالاختيار والعوامل الاختيارية من الأبعاد المختلفة التي ذكرناها ـ تدخل نطاق الأخلاق وتكون موضوعا للقيم الأخلاقية، لانّها في ذاتها ناشئة من عوامل اختيارية في حدوثها وبقائها وتقويتها وتضعيفها وتوجيهها، وهكذا الآثار العملية التي تترتّب علىٰ هذه الحالات، وردود الفعل التي تحصل بتأثير هذه الحالات تكون اختيارية بنحو أوضح.

انّ بعض الأشخاص من ضعفاء النفس يبدون ضعفهم في مثل هذه المواقف، ويعجزون عن ضبط أنفسهم، فيتلفظّون بألفاظ نابية في حالة الحدّة، ويرتكبون أعمالاً خاطئة وكأنهم مسلوبوا الاختيار. والواقع انّه لم يُسلب منهم تماماً، بل لهم اختيار ضعيف وبإمكانهم السيطرة علىٰ أنفسهم من خلال التمارين والتلقين. انّ

أعمال هؤلاء الأشخاص ذات قيمة أخلاقية بنسبة ما لديهم من اختيار.

السؤال هنا: ما هو ملاك حُسن وقبح الأعمال التي نمارسها عقيب هذه الحالات النفسية والتي تكون باختيار الإنسان من جهات مختلفة؟ الجواب: انّ الملاك العامّ الذي استندنا إليه في الموارد كافة يكون حاكما هنا أيضاً. الملاك هو التعارض مع الكمالات النفسية وعدمه، فإذا كان العمل الاختياري سبباً لحرمان الإنسان من كمالات أعلىٰ كان ذلك العمل مرفوضا وذا قيمة سلبيّة. وعلىٰ العكس إذا مهّد العمل الاختياري الطريق لنيل الإنسان رغبات أكثر وأثمن وأكمل كان ذلك العمل محبّذا وذاقيمة إيجابيّة.

إذا كان الخوف والحزن والرضا والسرور والأمل واليأس وسائر المفاهيم التي أشرنا إليها سبباً لصدّ الإنسان عن بلوغ كمالات أسمىٰ فانّها مرفوضة، وتكون ذات قيمة أخلاقية سلبيّة بمقدار ما للانسان من اختيار في تحقّقها.

ما قلناه يمثّل القيمة التي تُنسب للانسان نفسه في ضوء قيمة تبعات ونتائج هذه الآثار، ولكنْ من جهة اُخرىٰ بما أنّ هذه الحالات تابعة للعوامل والأجواء السابقة فانّها تكون ذات قيمة سلبيّة أو إيجابيّة تبعاً لقيمة تلك العوامل والأجواء السابقة أيضاً.

فمثلاً: ينشأ خوف الإنسان من الخطر الذي يهدّد مراده. فالواجب ملاحظة ذلك المراد ودرجة مطلوبيّته، هل هو مراد دنيوي أم أخروي، مادي أم معنوي، جسمي أم روحي؟ ما هو أثره ومع أيّ شيء يتعارض؟ هذه الأمور لها تأثير في تقييم الأحاسيس والانفعالات.

فمثلاً: ينبغي البحث عن السبب في حبّ المال عند شخص معيّن، فمن يقدّم

حافلة أو سفينة من أمواله لإعانة المجاهدين في جبهه القتال يسعىٰ للمحافظة عليها قطعاً وهو قلق علىٰ بقائها، الاّ انّ خوفه هذاليس من جهة تلف أمواله، بل من جهة عدم وصولها إلىٰ الجبهة، وهكذا المساعدات إلىٰ المجاهدين فيحدث خلل في أمر الجهاد مع العدوّ. مثل هذا الخوف محبّذ وقيّم.

مع ذلك، فإنّ حُسن هذا الخوف ذو حدود وقيود كماً وكيفاً، فهو محبّذ بدرجة يزداد فيها سعياً للمحافظة علىٰ أمواله، وأمّا بدرجة الوسوسة بحيث تحول دون قيامه بسائر واجباته فانّه غير محبّذ.

وعلىٰ العكس من كان خوفه من تلف أمواله هو تقليل ثروته، أو حدوث خلل في أهوائه الدنيوية وكيان التذاذه فقط، مثل هذا الخوف وإنْ لم يكن اختيارياً في البداية وهو خارج عن نطاق الأخلاق الاّ انّ استمراره اختياري للانسان وليس محبّذاً في الرؤية الإسلامية.

انّ الأموال والثروة واللذائذ الدنيوية ليست هدفاً، بل وسيلة لاختبار الإنسان، ففي الدنيا يُختبر الإنسان تارةً بامتلاك الأموال، وتارةً بعدمها أو تلفها. يُختبر بامتلاك الأموال والثروة ليُعلم كيف يتصرف فيها، ويُختبر بالفقر أو فقدان الأموال ليُعلم هل يصبر ويحافظ علىٰ وقاره وعزة نفسه، أو يفقد حلمه ويجزع وينتهي أمره بالإستجداء.

مثل هذا الخوف المذموم ذو درجات مختلفة من القيمة السلبيّة، وسيكون حراماً إذا دفع الإنسانَ نحو ارتكاب الحرام والعمل غير المشروع. كأن يستخدم وسائل غير مشروعة في المحافظة علىٰ أمواله، أو التطاول علىٰ أموال غيره عندما تتلف أمواله.

في مثل هذه الحالة من اللازم أن يسعىٰ الإنسان وبتفكير صحيح لطرد هذا

الخوف والقلق من نفسه، ويلتفت إلىٰ هذه الحقيقة وهي انّ متاع الدنيا ليس الاّ وسيلة للاختبار، وليس له تأثير بالغ في تقرير المصير النهائي للانسان. وعليه لا ينبغي أن تدفعه الثروة وخوف فقدانها لارتكاب عمل غير مشروع أو الكفر وعدم الشكر أو الجزع والفزع.

وفي المقابل هناك خوف وغمّ حسن وقيّم ذو درجات مختلفة من القيمة الايجابية حسب قيمة التبعات والأعمال التي تنشأ منها.

فمثلاً تستوجب خدمة الوالدين والاحسان إليهما سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فإذا اغتمّ الإنسان لفقدان والديه لانّهما غير موجودين ليقوم بخدمتهما وينال ثواب الاحسان إلىٰ الوالدين فانّه أمر محبّذ وقيّم. وهذا النوع من الخوف والغمّ محبّذ إلىٰ درجة تدفع الإنسان للمزيد من فعل الخيرات، كأن يتصدّق عنهما ويدعو لهما ويتلو القرآن ويصلي ويهدي ثواب ذلك إليهما، وليس إلىٰ درجة الصدّ عن أداء سائر واجباته.

مثل هذا الخوف والغمّ ذو قيمة سامية لانّه يدفع إلىٰ القيام بأعمال تستتبع الكمال للولد والخيرات والبركات للوالدين. ولكنْ إذا تجاوز هذا الحدّ كأن يجلس وحيداً ويلطم وجهه بدلاً عن السعي النافع فإنّ مثل هذا الخوف والغمّ غير محبّذ، وذلك لفقدانه الآثار النافعة والنتائج المثمرة، وقد ذمّت الروايات اللطم غير النافع بصفته (**جزعاً**).

أو يدفع غمّ فقدان الوالدين أو الأبناء الإنسان إلىٰ الانزواء وصدّه عن العمل والنشاط اليومي فيعطل دروسه ومباحثته ويتخلّف عن أداء واجباته، ففي جميع هذه الموارد لم تراعَ الدرجة المعقولة من الغمّ والحزن وتفقد القيمة الإيجابية.

علينا أن نلاحظ ونقتدي بسيرة العظماء في المجالات كافة. ينقل انّ صاحب

الجواهر (ره) كان له ولد ويكنّ له حبّاً جمّاً ففقده في شبابه. في الليلة التي توفّي فيها ولده وضعوا جثمانه في غرفة ليتمّ تشييعه ودفنه صباحاً. في تلك الليلة كان الوالد المفجوع جالساً إلىٰ جوار جثمان ولده يواصل تأليف كتاب (الجواهر). جلس تلك الليلة وقال: إلٰهي لو كنت أعلم أن هناك عملاً آخر له ثواب أكبر لولدي من تأليف كتاب (الجواهر) لفعلته، ولكنّي لا أرىٰ عملاً آخر أهمَّ منه، إنّي أواصل تأليفه إلىٰ الصباح وأهدي ثوابه إلىٰ روح ولدي.

لقد بلغ إيمانه بكتابة (الجواهر) وقيمتها السامية درجة لم يرَ أيّة عبادة أسمىٰ منها، فواصل الكتابة حتّىٰ الصباح بكلّ طمأنينة.

اليوم أيضاً نعيش ظروفاً يجب فيها علىٰ كلّ فرد في أي موقع كان أداء واجباته المكلّف بها بكلّ ما أوتي من قوة، ولا ينبغي نسيان مسؤولياته وواجباته الجسيمة بفعل الأحاسيس والغمّ والحزن الشديد.

انّ السرور أحياناً يدفع الإنسان نحو النشاط الأكبر، لانّ نشاطات الإنسان الجسيمة والفكرية تتحقّق بنحو أفضل عند الشعور بالفرح والانشراح، ومثل هذا السرور والفرح أمر محبّذ.

انّ إدخال السرور علىٰ قلوب المؤمنين وممازحتهم سيّما في السفر والذي يستدعي سرور رفاق السفر يكون مستحبّاً شرعاً لما يترتّب عليه من نتائج محبّذة.

وفي المقابل يؤدي السرور والفرح في بعض الموارد إلىٰ نسيان الإنسان مصلحته المعنوية والأُخروية، لانّ الفرح في ذاته أمر مستساغ ويودّ الإنسان دوام هذه الحالة. فإذا استمر بوسائل غير مشروعة أو استوجب عملاً غير مشروع كان ذا قيمة سلبيّة. ولكنْ إذا لم يبلغ هذه الدرجة فانّه يستدعي ـ علىٰ الأقل ـ ألواناً من

الغفلة، كالغفلة عن الله عزّوجلّ والآخرة وأداء الواجبات الاجتماعية المهمة، وبمقدار ما يؤدي بالإنسان إلىٰ الغفلة فإنّه يكتسب قيمة سلبيّة بتلك الدرجة ذاتها.

قال تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١].

انّه ذلك الفرح والانشراح السلبي الذي يحدث للانسان عند امتلاك الأموال والأولاد، ولكنّه يتعدّىٰ حدّه حتّىٰ انّ الإنسان يغفل عن ذكر الله سُبحانه وأداء واجباته.

إذنْ يكون الملاك العامّ في الأحاسيس والانفعالات كافة وقيمتها الإيجابية والسلبيّة هو كمية وكيفية تأثيرها في بلوغ الإنسان للكمالات الإنسانية والأهداف النهائية أو فقدانها.

ينبغي أن يُربّىٰ الإنسان المؤمن بنحو لا يختلج روحه الهياج عندما ينال زخارف الدنيا أو يفقدها، بل يحافظ في الحالين علىٰ هدوئه ووقاره ويفكّر فقط في أداء تكليفه، قال تعالىٰ:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٢].

لانّ الأموال والأولاد وأمور الدنيا الأُخرىٰ ليست هدفاً، بل وسيلة لاختبار الإنسان فلا ينبغي أن يُسكر نيلُها الإنسان، أو يؤدّي به فقدانها إلىٰ صدّه عن أداء الأعمال والواجبات والانحراف عن التحرّك في الصراط الإلٰهي المستقيم والغفلة عن الكمال والهدف النهائي.

---

(١) المنافقون ٩.   (٢) الحديد ٢٣.

الفهرست

الفصل الثاني: خلود الإنسان وبحثه عن الكمال

الفصل الثالث: لذة الإنسان وسعادته